



دعاء عبد الرحمن

ظل التعيم

الجزء الثاني من رواية داو

رواية

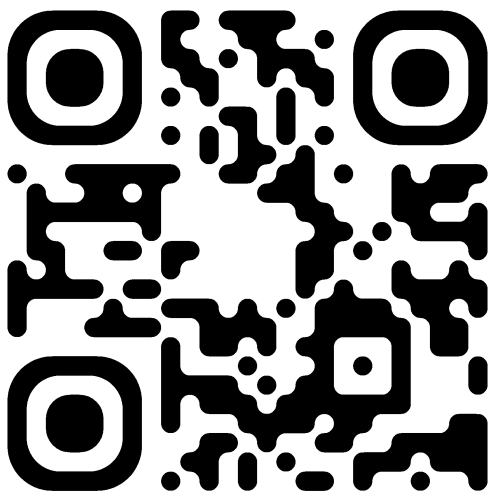


ظِلُّ التَّحِيْمِ

يسعدنا انضمامكم إلى قِناة



معكم تكبر ونستمر بكل جديد





للنشر والتوزيع



telegram @
yasmeenbook

● تأليف: دعاء عبد الرحمن

● الطبعة الأولى: يناير 2026م

● تدقيق لغوي: مروة نصر

● رقم الإيداع: 34127/2025م

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الترخيم الدولي: 6-634-992-977-978



دعاء عبد الرحمن



ظل التعيم

الجزء الثاني من رواية داو

رواية

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ
لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا يَخِفُّونَهَا
إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يترك الشيطان البداية للملائكة؛
بينما يسكن هو كل النهايات!

إهداء

إِلَى الَّذِينَ تُنْبِتُهُمُ الْأَرْضُ كَمَا تُنْبِتُ أَغْصَانَ الزَّيْتُونِ.

عشر سنين مضت، تغير فيها كل شيء،
إلا المكان الذي ابتلعك!

الفصل الأول



telegram @
yasmeenbook

العقاب

وقف الفتى على الضفة كعادته، ممسكًا بغصنٍ يابسٍ يعبث به في
الطين أسفل قدميه، عيناه شاردتان في مياهٍ لا يراها؛ بل تغوصان في
ماضٍ يلوح من بعيد، أمنيات تتكسر على السطح الساكن.

نسمات الهواء تلامس وجنتيه بهدوء، كنسمةٍ وداعٍ أخيرة، والصمت
من حوله لغةٌ لا يفهمها سواه؛ كلُّ شيءٍ ساكنٌ إلا ذاكرةٌ صاخبةٌ تضجُّ
في أعماقه.

لم تعد داو جزيرةً فحسب، بل غدت مرآةً رماديةً تعكس وجه السحاب
الباكي؛ لا شمس، لا ظل، لا صوت... فقط مطر.

مطرٌ بدأ كقطراتٍ مباركة، ثم استحال شيئًا فشيئًا إلى لعنةٍ كبرى
انتهت بغرق القارب الذي حمل من أحبهم جميعًا: أستاذه جلال الدين،
وزوجته الطيبة خديجة، وصديقه مالك، وسلام الفتاة السمراء زرقاء
العينين التي كانوا يلقبونها مشؤومة الجزيرة، وسلطان صخر العاصي
الساحر التائب الذي كاد يفقد عقله ويغدو مخبول داو.

خمسُ سنواتٍ انقضت، وما يزال عمار وفياً لعادته، يأتي إلى هذه الضفّة يتلمّس آخر ما تبقى من ذكرياتهم.

عامٌ يتبعه عام، حتى تبخر الأمل في عودتهم أحياء، أو أن يلفظ البحر أجسادهم إن فارقوا الحياة.

تشق شفّتيه المذمومتين كخط رفيع ابتسامةٌ حزينة، بينما عقله يرسم له بريشة من خيال متمنٍ وجه أستاذه وهو يطالع بنيته التي اشتدت بابتسامة فخورة، ذلك الوجه الذي جمع بين الحنان والحزم، واليد التي أمسكت بهم بقوةٍ لتحميمهم، والصوت الذي بُحّ وهو يعلمهم التاريخ والقصائد.

وكان آخر ما أوصاه به، أن لا يترك الناس على جهلهم، وأن يُخبرهم بأنّ الله لا يحتاج إلى وسيط... لا ساحر ولا أسياد...

يحتاجون فقط إلى أن يدبروا معنى إِيّاك نعبد وإِيّاك نستعين.

- قد صار الفتى شاباً يا أستاذي، لكن الخوف يستبد بي، فأصمتُ مرات وأتكلّم مرة.

همس عمار لنفسه قبل أن يتنهد بقوة ويستدير على مهل، ذاهباً إلى طريقه الذي قصده من البداية، قبيلة الرواة.

منذ أن أقيم السور الشاهق الفاصل بين الغابة وداو من جهة، وبين قبيلة الرواة من الجهة الأخرى، غدت الرحلة طويلةً ومرهقة، يضطر في كل مرة إلى أن يلتف عبر الصحراء، متتبّعاً دروباً ملتوية بين جبالٍ متشابكة كالأضلاع.

لطالما سمع حكايات كثيرة عن قطاع الطرق هنا، والذين جعلوا من الصحراء فخاً، حتى لم يجد أهل داو بُدّاً من البقاء بداخلها خلال سنين طويلة عجاف دون محاولة واحدة للخروج.

فلقد كانت البحيرة هي الطريق الآمن المُتعارف عليه للعبور، لكنها ظلت جافة لسنوات، فاخтарوا العزلة راضين بما يحدث في موسم الحصاد!

يتسلل الآن بحذر، يحمل حقيبتة القماشية الصغيرة التي تحوي قارورة ماء وبعض كسرات خبزٍ جافة.

يختار اجتياز كل هذا الطريق وحده فور أن ينتهي ورفاقه من ركعتي الصبح، رافضاً مطالباتهم بمرافقته؛ يخشى أن يثير عددهم الانتباه؛ في النهاية يضطرون إلى تنفيذ أوامره؛ فهو القائد.

خمس سنوات حتى حفظ معالم طريقه عن ظهر قلب، يُمضي الوقت كما درَّبه أستاذه... «لا يتوقف لسانك عن الذكر لحظة؛ سيكون من الصعب رصدك».

حين بدأ السير على المسار الحجري الضيق، بينما الحصى يئن تحت قدميه، وعلى جانبيه ترتفع الصخور، بينما خط الغابة البعيد خلف السور لا يزال يلوح كذكرى حاضرة.

في كل مرة يسلكه، لا يرى ولا يسمع من الصحراء سوى هزيمها ينساب بين الصخور، كهمس من عالم آخر، لكن هذا الصباح كان مختلفاً؛ إذ باغته تحرك مفاجئ للهواء من حوله.

ظلَّ واسعُ الجناحين مرق فوق رأسه، يدور في حلقاتٍ بطيئة، ويشقُّ سكون الصحراء بصرخةٍ حادة.

رفع عمار رأسه، وكاد قلبه أن يتوقف عن النبض؛ كان عُقابًا يطير على ارتفاع منخفض، ثم انحرف مبتعدًا عن الممر المعتاد، متجهًا نحو شقٍّ جانبيٍّ بين الصخور.

على الرغم من خوفه، أحسَّ بدفق الدم يشتعل في عروقه، كأنه نداء خفيٍّ يدعوهُ ليتبع أثر الطائر الجارح؛ لم يره من قبل، لا في داو ولا عند تخومها، بدا كأنَّه وافد من أرضٍ أخرى.

تردَّد، لو أراد افتراسه لفعل، أم تراه يستدرجه إلى فخٍّ ما؟ مدفوعًا بثوران دماء الشباب في عروقه، انقاد خلفه دون أن يدري لِم. تتبع ظلَّ العقاب وهو ينساب أمامه، يلامس جدران الممرِّ الحجريِّ الضيق، فترتجف الظلال من حوله كأطراف مخلوقٍ أسطوريٍّ يسبقه بخطوة إلى المجهول.

عينا العقاب تلتمعان في العتمة بوهج ذهبي، وكل رفة من جناحيه تُثير تيارًا باردًا يلامس وجه عمار، كأنَّ الطائر يشقُّ له طريقًا نحو وجهةٍ خفية لا يعرفها.

لم يكن يرفرف عبثًا؛ بل يحلِّق على ارتفاعٍ منخفض، يتوقف عند كل منعطف، ثم يلتفت برأسه الكبير نحوه، كمن يتفقَّد تابعه ليتأكَّد أنَّه لم يتخلف بعد.

بدا لعمار كأنَّ الممرَّ يضيق كلما ابتعد العقاب، كأنَّ وجوده وحده يضمن له العبور، كرسولٍ يقوده نحو سرٍّ ما كان ليبلغه وحده.

ثم فجأة انفتح الممرُّ على مساحةٍ دائرية، أرضها مفروشة بالحصى الرطب، وفي مركزها فم بئرٍ عتيقةٍ تحيطها أعشابٌ جافَّة.

توقف العقاب عند الحافة، وأطلق صرخةً حادةً ارتدَّت صداها بين الصخور، قبل أن يرتفع عاليًا ويختفي في السماء الرمادية، تاركًا عمار أمام فم الظلام... وحده.

اقترب عمار من البئر بحذر، مد عنقه ببطء ليلقي نظرة في العمق،
لم يرَ سوى سواد ساكن يتخلله وميض خافت، كأن الضوء يتكسر على
سطح بعيد... مال أكثر، ثم أصغى.

وهناك، من الأعماق، أتاها صوت هدير الماء يشبه الأنين!
وعندما مد أطراف أصابعه بوجل يلامسه، ارتفع تيار خفيف بارد،
ومعه طفت قطعة قماش، زرقاء، مطرزة الأطراف بخيوط فضية باهتة،
انتشلها بحذر.

وعندما اعتدل مستندًا إلى ركبتيه، بسطها بين كفيه.

عرفه في اللحظة ذاتها... ذاك الوشاح!

كانت ترتديه طوال العام الذي ظلُّوا فيه محاصرين داخل قصر مالك
المهجور، وكان آخر ما رآه يلفُّ رأسها حين كانوا على متن القارب، قبل
أن يُنزلوه على ضفة القبيلة، وقبل أن يذوبوا في المجهول بلا عودة...
كان وشاح خديجة!

تجمد في مكانه، لا يدري أهو في حضرة حقيقة أم وهم!

كانت خيوط الوشاح المبتلة مطرزة عند مقدمته بنصِّ قرآني «اللَّهُ
نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، الوشاح تفوح منه رائحة البحيرة القديمة، كأنه
ما زال يحمل أنفاسها الأخيرة.

شدَّ قبضته عليه، فتسلَّل البرد من القماش إلى جلده، ومعه اندفعت
موجة الذكريات التي ظنَّ أنه دفنها مع الغرق.

وقف مذهولًا، قلبه يخفق، ثم رفع رأسه ليبحث عن العقاب، لكنه لم
يجد له أثرًا، اختفى، كأنه لم يكن هنا قط منذ لحظات.

وبينما كان غارقًا في أفكاره لمح خيطًا رفيعًا من الدخان الرمادي،
يتصاعد ويتلاشى في الهواء بين الصخور على يمينه.

اقترب بحذر، وصل إلى فتحة ضيقة في الجبل، انحنى ليعبر الفتحة، فاستقبله ممر قصير، رائحته مزيج من الرطوبة ونار مطفأة حديثاً.

ومع كل خطوة، كان الضوء يزداد، حتى انفتح الممر على كهف واسع، تزين سقفه فتحات تسمح لشرائط من النهار أن تتسلل إلى الداخل، حُصرَ قديمةً بالية، وحولها وجوهٌ متربِّصةٌ تحدِّقُ إليه في صمتٍ ودهشة! تجمَّدَ عمار في موضعه، وارتسم الذهول في عينيه كما في عيونهم، فهم أيضاً قد تفاجؤوا بوجوده أمامهم دون سابق إنذار.

شهق متراجعاً خطوة إلى الخلف، كاد قلبه يتوقَّف للمرة الثانية، وعيناه تتنقَّلان بين الوجوه الماثلة أمامه في ذهول.

بالتأكيد، هؤلاء ليسوا قطاع الطرق الذين كبر على حكاياتهم البشعة؛ فكلُّهم عجائز أثقلهم العمر والتجاعيد، وبينهم فتیان غادروا الطفولة منذ عهدٍ قريب.

ساد صمتٌ مهيبٌ للحظات، تقدمت بعدها امرأةٌ مسنَّة، عيناها لا تفارقان هيئته، الملابس البيضاء التي تخص قبيلة الرواة لكن بشرته ليست داكنة مثلهم.

هي كبيرتهم، يبدو أن الجبل عمل على نحت شيخوختها فتركها صلبة، تجاعيدها خريطة لرحلة طويلة من الصمود.

عيناها واسعتان كبحيرتين مظلمتين، لا يعرف ما يختبئ في عمقهما، يتأرجح فيهما مزيج غريب من الحكمة والوعيد.

تكلمت بنبرة لا ارتعاش فيها... كأنه صوت الجبل نفسه يهمس بأسراره القديمة... همست:

- من أنت؟ وكيف وصلت إلينا؟!

لم يجب عمار... بملامح أتعبها الجوع والخوف أكثر مما أتعبتها المعارك القديمة؛ تبادلوا النظر إليه، وإلى الوشاح الذي لا يزال يقطر وهو متدلّ من قبضته، ابتلع ريقه محاولاً إدراك كل تلك الدهشة التي أحاطت به وتنحنح مخفياً ارتبাকে:

- كان هناك عقاب يصرخ... كنت أتبعه!

قطعت المرأة المسنة كلامه قبل أن يُتمه، وقالت وهي تشير إلى الوشاح المبتل:

- هل عثرت عليه في البئر؟

أوماً عمار في الحال. فتراجعت لتعاود الجلوس بين البقية مردفة بتفكير:

- العُقاب لا يلفت الانتباه إلا في حالة واحدة...

قاطعها فتى يافع باندفاعٍ ذكّر عمارًا بطبعه الناري قبل خمس سنوات، وقد اشتعلت عيناه كجمرة في ظلال الكهف:

- لو تركناه لكشف سرنا...

همهم عمار بملامح ضائعة:

- أنا لا أعرفكم لأكشف سركم!

اندفع الفتى نحوه منفعلًا، محملاً بخوف نال من طفولته أعوامًا، بينما هو حبيس صحراء، وصرخ بوجهه:

- إنك من داو، وبالتأكيد تعرف الحاكم، وهذا يكفي لتقضي عمرك سجيناً معنا.

الفتى كان أقصر طولاً من عمار، لكن قبضته قوية تسبق عمره أعوامًا، لكن المسنة هتفت وهي تعود للنهوض مجددًا:

- اتركه...

ساد صمت ثقيل، وقد تجمّد المشهد ترقُّباً لمعركة لم تبدأ بعد، لكن الفتى اضطر إلى التراجع، فلقد تربى على طاعة الجدة أيّاً كان رأيه! أشارت بكفها نحو الحصير أمامها تدعوه للجلوس، تقدّم عمار وقد تبدد شيء من الخوف بداخله، وحل الفضول ضيفاً يعرف كيف يحتله. خطا عدة خطوات متمهلة، ثم جلس وبقية الأعين تراقبه من كُثب، وضعت الجدة مصباح الزيت الباهت بينهما وتساءلت:

- أين ظهر لك العُقاب؟

كان يحدق بحركة يديها وهي تُعيد إشعال ضوء المصباح، وهمهم باختصار:

- عندما كنت أتسلق صخور الجبل، للوصول إلى قبيلة الرواة بعد أن أمر الحاكم بإغلاق طريق الغابة.

ظَلَّت تراقبه صامته، حتى سألته أخيراً:

- وهل ما زال يحكمكم، ذلك الذي لا يشيخ؟

ارتبك عمار، لم يفهم في البداية، ثم قال وهو يضيق ما بين عينيه مستفهماً:

- الحاكم؟ نعم... لكن ماذا تعنين بأنه لا يشيخ؟!

سكت هُنيهة ينتظر ردها لكنها لم تفعل، اكتفت بتثبيت عينيها عليه، كأنها ترى ما وراء ملامحه، فقال بعدم فهم:

- هل تعرفينه؟!

مالت بجذعها نحوه حتى تسلط ضوء المصباح فوق وجهها، فأضاف عليه لوناً نارياً مخيفاً وصوتها صار أعمق، كأن كل كلمة تُقال تستقر في صدره:

- أعرفه قبل أن يسمّوه حاكماً، قبل أن تعرفه داو كلها!

كان يرهف سمعه في انتظار التفاصيل، لكنها صمتت متأمة عينية،
ما هو المميز بهذا الشاب اليافع ليختاره العقاب ويحضره إليها!
نظرت نحو الوشاح وقالت بحزم أقلقه، وجعله يقبض عليه بقوة أكبر:
- هل رفعته المياه إليك؟

يتشبث به ويجيبها بحسم من لن يتنازل:
- البحيرة أخذت مني كل شيء، واليوم فقط... أعادت لي أثرًا...
شعر بشيء من البرودة يزحف على ظهره، لكنه تماسك حتى
لا يرتجف، لفه الحنين وطحن عظامه، ابتلع ريقه يقاتل غصة تؤلمه
وهمس:

- أنا فقط أريد أن أعيد هذا الأثر... لصاحبه.
ابتسمت المرأة ابتسامة باهتة لم تمس عينيها، وقالت:
- وهل صاحبه تسكن قبيلة الرواة؟
- كانت...

أجاب بحزن دفين، فقالت:
- ماتت؟

صاح صوت فتاة تأوي بجانب صخرة في نهاية الجانب المختفي
من الكهف:

- غرقت مع زوجها.
تحولت النظرات نحوها، فتابعت مُوجّهة حديثها نحو الجدة وهي
ترفع كتفها بلا مبالاة:
- كنت أتسلى بمراقبتهم، الغابة كانت تسليني بقصصها الغريبة.

تقدم نحوها الفتى الذي كان على وشك الاشتباك مع عمار وزجرها
بجلافة:

- لا تتدخل.

انتفضت نحوه حتى كاد وشاحها يسقط عن رأسها، ترد نغزته التي
آلمتها في كتفها، وتُطلق نحوه نظرات نارية هاتفة بغیظ:
- امسني ثانية وستفقد يدك.

تقدمت نحوهما امرأة نحيلة منحنية الظهر قليلاً، تبدو مريضة لكنها
ذات شكيمة فبمجرد اقترابها هداً الصراع، وقال الفتى معتذراً مُمسكاً
بيديها ليسندها:

- آسف أمي.

- آسفة أمي.

اعتذرت الفتاة كأخيها على الفور، وقد سكن الندم عينيها وهي تضم
نفسها إلى جانب والدتها، تحركت معه لإعادتها إلى الفراش المهترئ
التي كانت تضجع فوقه بوهن.

المشهد حرك فؤاد عمار، وقد تذكر أمه التي فقدت عقلها يوماً في
الغابة وهي تبحث عن ابنتيها المدفونتين هناك، ومنذ تلك اللحظة لم تعد
إلى رشدها قط، حتى وجدوها هناك بين الأشجار المحترقة اليابسة، وقد
أسلمت روحها.

شعر بلمسة الجدة أعلى ذراعه، تُعيده من خواطره الحزينة المرتسمة
بوضوح بمقلتيه إلى الواقع، وعندما رفع رأسه نحوها زائغ النظرات،
همست وقد اتخذت قرارها:

- غادر الآن قبل أن ترتفع الشمس...

اتسعت عيناه دهشة، هكذا؟! دون أن يعرف من هم على الأقل، هل يعبثوا به؟

نهض وقد زاده الجهل غضبًا، سألها بنبرة حادة:

- على الأقل أخبروني من أنتم، ولماذا تسكنون هذا الكهف، وما قصة هذه البئر!

نهضت، تقدمت نحوه دون أن تستند إلى العصا الغليظة في يدها، أطبقت أصابعها على معصمه في قوة لا تليق بسنها، وقالت بصوت أشد صرامة:

- إن ارتفعت الشمس قبل أن تغادر... فلن تكون غريبًا ضلَّ طريقه... بل أسيرًا لا خلاص له.

وما إن انتهت كلماتها حتى برز من الأركان المظلمة ثلاثة فتيان، أشد غضبًا من الأول، وجوههم متجهمة تحمل نظرات عدائية صريحة. أدرك عمار أن الكهف لم يكشف له إلا القليل؛ كل ركن معتم كان يخفي أنفاسًا تترصده، وأعينًا تتابع حركته منذ اللحظة الأولى.

خرج عمار من الكهف بخطوات محسوبة، الهواء الساخن الذي يلفح وجهه لم يكن بأكثر لهيبًا من العيون المتربصة في ظهره. كان صوت أنفاسه يتداخل مع صرير الرياح القادمة من فتحة الممر، كأن الصحراء نفسها تهمس له أن يعود.

توقف لحظة، شعره يلامس جبينه المُبلل بالعرق، وأدرك أن ما وجده اليوم لن يكون مجرد وشاح، قد يكون بابًا لشيء أكبر بكثير مما توقع، ولكنه على الرغم من ذلك شدَّ حقيبته إلى كتفه، وبدأ النزول في المنحدر.

وقبل أن يبلغ الوادي، رفع عينيه للأعلى، فوجدها تقف هناك متشابكة الأيدي، لن يخطئ نظره من هذه المسافة، هي نفسها الفتاة التي اعترفت للتو أنها كانت تراقبه لتتسلى، تربط وشاحها حتى لا يطير مع الرياح. هل هي ذاك الشيء الذي كان يشعر بوجوده يراقبه كل الوقت فيما مضى وهو يقطع الغابة ذهابًا وإيابًا؟ لقد ظنّها يومًا شيطانة أو جنية تحاول إخافته كما فعلوا مع سلطان صخر العاصي وهو يعبر الغابة. إنها يافعة مثل أخيها، لكن ما فهمه من حديثها القصير بالكهف أنها لا تختبئ مثل البقية وتجوب الغابة والصحراء.

تعليق بسيط منها جعله يدرك أنها تعرف الكثير عنهم، بل وكانت تراقبهم من كثب، يبدو أن للجبل طرقًا عدة لم يعرف منها سوى الأكثر أمانًا. أعاد رأسه للأمام، وتابع المسير حتى بدا كأن الصحراء ابتلعتة.

أكمل المسير حتى بدت الدور المميزة بألوانها الزرقاء والبيضاء. وأخيرًا ظهرت الدور من بعيد، تلك الدور المميزة بألوان طلائها، مزيج من الأزرق والأبيض، عربات القش والجريد التي تجرّها الدواب تجوب الطرقات.

كان يعرف كيف يختفي فلا تلاحظه الأعين، مرتديًا نفس الملابس البيضاء والعمامة التي يتميزون بها عن سكان داو.

لاحت له دار الشيخ نصر الدين الراوي التي أجبروه على الانتقال إليها مع والدته.

يظنون أنهم يعاقبونه بنقله إلى دار منعزلة عند نهاية الصف، كظلّ يوشك أن يتلاشى، بينما داره التي ألفها وسكنها لسنوات أخذها آصف

الزعيم الجديد للقبيلة بعد هروب خديجة، ويقينهم بأنهم قد غرقوا جميعاً وأصبح نصر الدين الراوي وحيداً.

فعلوا به ما تفعل الضباع بالأسد العجوز، متناسين أن الزئير الأخير قد يهزُّ الغابة، وإن كان زئير وداع.

دفع عمار الباب بحذر، ودخل إلى الصحن الداخلي، كان خالياً كعادته، إلا من شجيرات صغيرة غرسها بيديه في زيارته الأولى، قبل أن تتحول زيارته إلى عادة أسبوعية، خصوصاً في السنة الأولى للغرق. طرق الباب الداخلي طرقتين ثم ثلاثاً، كما هو المتفق عليه فنصر لا يفتح لكل طارق؛ يعيش وحيداً مع والدته الحاجة وسيلة، زوجة الراوي الكبير المقعدة منذ زمن، الذاهلة عن كل ما يحدث من حولها.

أما ولدها الأصغر نصر، فما أنهكه سوى مرض الفقد الذي تملّكه، صار منبوذاً في قبيلته وبين أهله؛ فقد كسر القانون حين مدَّ يده لابنته وزوجها... وكان لا بد وأن يدفع الثمن.

حتى الآن الباب لم يُفتح وهذا غريب، أيكون نائماً؟ هل مَرِض ولم يجد من يعتني به؟

تبّاً لك يا عمار هذه الزيارات الأسبوعية لا تكفي على الإطلاق، أخذ يوبخ نفسه، بينما عقله يشرد في المرة الأولى التي أتى فيها لزيارته بعد الغرق، فكل شيء تحول في حياته إلى قبل الغرق وبعده كأنه تاريخ جديد!

حينها طرق الباب الذي ملأته الشقوق بسبب الزخات حتى صنعت به الأخاديد، يداه ترتجف من البرد، والماء لا يزال يبتلع أطراف البلدة بلا رحمة كما لو أنه يلتهمها قطعة تلو قطعة رغم توقف المطر.

فتح نصر الباب، وجهه شاحب، وملامحه مشدودة كوتر مشدود على وشك الانقطاع، عيناه تحملان بقايا عاصفة أكبر من المطر.

أفسح له الطريق ليدخل دون كلام... ومن يومها صار وجود عمار في الدار عادة، كان مرافقاً بائساً، يبحث عن آخر ما تبقى من رائحة جلال الدين، ولم يكن سوى عمه نصر والد خديجة!

خطوات بطيئة أخرجته من سيل ذكرياته، جعلته يلتفت للخلف في اللحظة التي يظهر فيها نصر عائداً من الخارج يتخطى ارتفاع عتبة الدار بصعوبة.

عندما التقت أعينهما زفر عمار الصعداء براحة كبيرة، كأن حملاً قد انزاح عن صدره.

أسرع نحوه يساعده على المرور بعتبة كانت أقل من أن تعيق نصر الراوي.

ابتسم نصر ابتسامة لم تصل إلى عينيه التي تغضنت بفعل الفراق لا الزمن، وقال بصوت مبحوح يغشاه الحنين:

- تأخرت يا ولدا!

لم تكن جملة عابرة، وعمار يفهم مدى معاناة نصر مع الوحدة، لذا أجابه مسرعاً:

- الطريق كان طويلاً هذه المرة.

- هل قاموا ببناء المزيد من الأسوار؟!

همهم بها نصر بنبرة خشنة مكتومة، كمن اعتاد على محادثة نفسه فقط، لذلك سمعها عمار بصعوبة، وقال مسترسلاً بينما يغلق باب الدار خلفهما بإحكام:

- لا... ما زال سورًا واحدًا حول الغابة، أما بقية الأسوار فهي بداخلنا نحن.

جمع نصر طرفي ثوبه، وجلس على الأريكة الخشبية، مستندًا بقبضتيه كعادته التي لا يتركها أبدًا على رأس عصاة المشيخة.

تلك العصا التي لم يُفلحوا في انتزاعها منه، حتى بعد أن انتزعوا مكانته واحتلوا داره، إنها ورث الراوي الكبير أبا عن جد.

حين يمسك بها يشتد ظهره، كأنها ترد له شيئًا من وقار المشيخة الذي خسره، وحين يطرق بها الأرض، يتردد الصدى كذكرى ما زالت تحاول البقاء، إنها كرامته.

وضع عمار إبريق الشاي فوق الطاولة المرتفعة، ثم تساءل بفضول:

- أين كنت يا عمي لقد قلقت عليك؟

سرحت النظرات الهادئة رغم سكونها بين محتويات الصحيفة المليئة بأكوام الزجاج صغيرة الحجم، والمنكفئة على أفواهاها دليلًا على نظافتها كما هي عاداتهم.

كاد أن يعيد عمار سؤاله لما طال الصمت، لكن نصر قال فجأة:

- ذهبْتُ إلى الضفَّة.

عقد عمار ما بين حاجبيه متسائلًا:

- لِمَ الآن يا عمي؟ ألم تعدني منذ شهور بأن تتوقف عن الذهاب إلى هناك؟!

أرسل نصر تنهيدة حارّة، وأومأ برأسه متممًا بما يعتمل في صدره، والذي ظل يكتمه ولا يجد من يبوح له به منذ أيام:

- خديجة تأتيني في المنام كل ليلة... وتهمس بأنها حيّة.

اضطربت نبضاته، وترددت الكلمات على طرف لسانه، ظل يراقب عيني نصر التي انعكس فيهما بريق غريب... خليط من أمل لا يموت، وخوف لا يفارق صاحبه.

لم يكن يعرف كيف سيشرح ما رآه، أو مَنْ هؤلاء الذين يسكنون كهف الجبل، أو لماذا كان الوشاح هناك في البئر!

يعرف أنه ينقصه الكثير من الخبرة، متى يتكلم ومتى يسكت، لقد عاش وحيداً بعد أن لحق والده بأمه.

سكن بيتهم وحده، يخرج يومياً للقاء أصدقاء الأمس، الذين شاركوه حكايات جلال الدين، وأسياد سلطان العاصي، ثم الطقوس التي فرضها عابد على سكان البلدة هو وليلى أسفل صنم تم نحته ليشبه جلال الدين تماماً!

اتفق مع أصدقائه على الحيلة، كما اتفقوا على تنفيذ وصية أستاذهم في السر، ولم ينسوا الشعائر حتى يمنعوا رصدهم.

ينقصهم الكثير من الخبرات، ينقصهم الكتب، لا يعرفون حتى الآن ماذا عليهم أن يفعلوا لليوم التالي، إلا أنهم يبذلون كل طاقاتهم فيما يتقنونه، التخفي عن أعين الحاكم... كل أعينه بكل ما تحمله الكلمة من معنى!

حسم ترده أخيراً وفتح حقيبته القماشية، أخرج منها الوشاح الذي ما اكتمل خروجه حتى حرق نصر به مصدوماً، وسمع عمار يقول على الفور، كأن الكلمات تندفع خلف بعضها بعضاً بسرعة حتى لا يتراجع:

- وجدته اليوم... يطفو بداخل بئر في الجبل.

رفع نصر عينيه بحدة، كأن أنفاسه قد تعثرت في صدره:

- الجبل؟ أي جبل؟

- كنت أتبع عُقابًا... حتى قادني إلى ممر بين الصخور في نهايته
بئر ماء، كان هذا الوشاح يطفو فوق سطحها.
ظل نصر يحدّق إلى عمار، عيناه تتسعان شيئًا فشيئًا، ويده ترتجف
على عصاه الغليظة. همس بصوت بالكاد يُسمع، بينما يحرك رأسه غير
مصدق:

- أعرفه إنه وشاحها... من صنّع يدها!
ما إن أتم مهمته الشاردة حتى نهض وفي عينيه بريق جديد، لم
يلمع في عينيه طوال خمس سنوات:
- خذني إلى هناك يا عمار... الآن.
نهض عمار بينما قلبه يخفق قلقًا:
- إنه ليس آمنًا يا عمي؛ هناك أناس غريبة الأطوار، وطيور جارحة،
وممرات مخيفة قطعت أنفاسي!
قاطعه نصر بانفعال غاضب:

- آمنٌ أو غير آمن لا يهمني، أنا ميت في كل الأحوال.
ارتفع صوته حتى خشي عمار من أن يسمعهم أحد ما عبر النافذة
الخشبية المواربة، فقبّل كتفه وهو يحاول احتواء ثورته:
- عمي أرجوك... هناك ألغاز لا أفهماها وقطاع طرق... حتى تلك
البئر غريبة... كأن هناك سحرًا ما... لا أستطيع المجازفة بك بينما
الخطر ومن يكرهونك يحيطون بك من كل جانب... لا نريد أن
يضيع الأمل الذي ظهر لنا فجأة... أرجوك... أنا أثق بحكمتك.
التفت نصر نحوه بصرامة وقال أمرًا:

- احكِ لي إذا كل شيء دون موارد... هل فهمت يا ولد؟
أوماً عمار بطاعة يحب تقديمها على الرحب كأبي حفيد بار وقال:

- حسنًا يا عمي سأقص عليك كل التفاصيل... أعذك.

لم يكد يُتم جملة حتى جاء من الداخل صوت ارتطام شيء بالأرض! تبادلًا النظرات ثم أسرع نصر وهو يتوكأ على عصاه، يلحق به عمار حتى وصلا إلى مصدر الصوت، غرفة الحاجة وسيلة.

كانت أشعة الشمس تتغلغل بقوة بين خشب نافذة غرفتها المتشقق، مقتحمة أركان العتمة الباقية ليل نهار.

رائحة البخور التي تحتفظ به أسفل فراشها تعبق في المكان، كأنها محاولة يائسة لطرد ذكريات لا تغادرها، وهي جالسة متكئة إلى ظهر فراشها، بينما شالها ينزلق عن كتفها، وإلى جوار الفراش إناء فخاري مكسور تسيل منه بقايا ماء.

رفعت رأسها ببطء، وعيناها الغائمتان تتعلقان بهما دون أن ترمشا، ثم تمتمت بصوت مبجوح:

- كان الدم... كثيرًا... وهند تلد... الصرخات...

انكمش جسدها فجأة، ووضعت كفيها المخضبتيين بالحناء فوق أذنيها، ثم أدارت وجهها نحو الحائط، كأنها تطارد ذكرى مرعبة، لا يراها سواها.

بقي عمار واقفًا مكانه، أنفاسه متسارعة، بينما نصر يشيح بوجهه في صمت ثقيل، يعرف أي ذكرى تهاجمها الآن، يبدو من كلماتها المبعثرة أن الأمر هذه المرة يخص اللحظة التي وُلد فيها جلال الدين وصرخات هند التي لم تتوقف.

خروج شمس الدين المضطرب من الغرفة ونداءاته المبعثرة على عابد، القابلة العجوز في الداخل أصابها الإعياء، عابد العائد مسرعًا وبصحبه ابنتها، أتت للمساعدة.

صرخات هند التي تعلو، رائحة البخور المختلطة بالدم، تكونت سحب ثقيلة منفرة أزكمت أنف نصر الذي كان يجلس خارج الدار في الباحة الخارجية بصحبة الرجال!

سرت همسات بين النسوة، يبدو أن الطفل وُلد ميتاً، كيف يكون على قيد الحياة بعد كل هذا الجنون، لا يعلم أحد ماذا فعلت القابلة الأصغر سناً، بعد أن أجبرت النساء على الخروج من الغرفة، لكنها استطاعت في النهاية تخليص جلال الدين من مريضه المتشبث به إلى الحياة.

إنه لا يصرخ، مغلقاً عينيه يحيطه السكون... لا نبض... لدقيقتين، ثم ملأ بكأؤه الآفاق وشق عنان الليل وانطلقت الزغاريد المشبعة بالدموع.

خرج عمار من دار نصر فجراً، بعد أن شاركه ركعتي الصبح كما شاركه المبيت، وقد رفض نصر بحسم قاطع خروج عمار للعودة ليلاً؛ فلقد انتظر نصر طويلاً حتى خروجه من غرفة الحاجة وسيلة، بعد أن هدأت أخيراً، ثم أجلسه أمامه فيما يشبه غرف التحقيق، ليقص عليه كل التفاصيل بدقة، والتي قضت على ما تبقى من نهار.

خطواته كانت سريعة، بينما تشدد قبضته على حقيبته القماشية، إنها خالية من وشاح خديجة، الذي يسكن الآن غرفة نصر، وربما سيحتفظ به بين جلده وعظامه ليحميه.

- بالتأكيد سيفعل.

همس عمار وخطواته تتسع ويبدأ في ترديد الآيات حتى وصل إلى حدود الجبل.

لم يتوقف عن الهمس، حتى وعيناه تحوم حول المكان الذي ظهر فيه العُقاب لأول مرة، تجولت نظراته المرتفعة إلى السماء لبرهة، وسرعته

تتباطأ رغماً عنه بشكل آلي، وحين أدرك ما يفعل وعاد بعينه لمراقبة الطريق أمامه شاهدها...

تجلس أعلى صخرة منخفضة، عاقدة ساعديها، وأشعة الضحى تتسلط على جبهتها فتعكس عليها مظهرًا لجنية تنبع الشمس من منتصف جبينها.

راقبها وهي تترك الصخرة قافزة بخفة الفتيان وقوة عظامهم، خطواتها ثابتة كأنَّ صخور الجبل قد طبعت على جسدها أثرًا من تجلُّدها، وفي داخله تملَّكه إحساس غريب؛ لم تعد مجرد قفزة عابرة أمامه، بل بدا له أنَّ الجبل نفسه قد بثَّ في عروقها شيئًا من صلابته، فشعر بالدهشة تتسلل إلى صدره وهو يتابعها هامسًا:

- ابنة الجبل!

- خاف عليك نصر الراوي... من الظلمة؟

- ظننتك تراقبين الغابة فقط!

قالها عمار ساخرًا، إنه منهك، وفي أشد الحاجة إلى الوصول لـ داو بصمت، هو حتى الآن لا يعي عقله هويتهم، ولا السبب الذي جعلهم يُطلقون سراحه سوى ثقتهم في العُقاب!

وفي تلك التي بدأت تفك تشابك ساعديها للتو، وترفع إصبعها في وجهه مُحذرة:

- إياك أن تكون قد أفشيت سرنا...

نظر لها مليًا مفكرًا، ماذا لو كان أستاذه في موقف مشابه، هل سيتجادل مع فتاة تبدو شرسة؟ في البداية ظن أنها عنيفة بالفعل، لكن عينها بهما دُعر يذكره بردود أفعال صديقه القديم، لمحة لم تفارق عيني «مالك» إلا بعد أن اطمئن له.

ترى... هل الأمل في النجاة يشمل مالك هو الآخر أم لا؟ يرجو ويتمنى أن يكون الوشاح علامة على نجاتهم كلهم... حتى سلطان صخر العاصي نفسه...

- تكلم...

كانت تأمره بصوتها الرفيع مما جعله يبتسم ويتجاوزها، إنه متعب للغاية ومما تعلمه من جلال الدين أن الفتيات يخترن أشد الأوقات تعبًا للرجال ليطرحن الأسئلة!

- إن فعلت سنعلم... ووقتها لا تلومن إلا نفسك.

ودعته بتلك الكلمات صائحة ليسمعها بوضوح، فأوماً برأسه موافقًا دون أن يستدير، خوفًا من أن تلقيه بحجر يدمي رأسه لو أغاظها تجاهله لها، هكذا قال جلال الدين يومًا، وهو يتحسس عضة ابنة عمه التي كانت تؤلم كفه في أثناء حصة قصائد المتنبي!

توغل في البلدة بعد أن قام بتبديل ملابسه بالجلباب الأحمر الباهت، كما هو حال سكان داو، كل شيء كما اعتاده، مرًّا بساحة الحصاد التي لم يعد أحد ينطقها باسمها القديم، بل صارت تُدعى «ساحة مولانا».

حاول أن يتفادى النظر إلى التمثال، لكن عينيه انزلقتا رغماً عنه.

شاهقٌ، ضخم، كُسيت ملامحه بالقسوة، ذراعه مرفوعة كمن يمنح البركة، التفَّ حوله جنود للحراسة، وقوفهم أقرب إلى التراخي، إذ لا أحد يجرؤ على مساسه بسوء؛ ببركته كما يُقال «انقشعت لعنة الجفاف»، وباسمه تُذبح الأضاحي!

أحس بغصة وهو يتذكر محاولاتهم الفاشلة لهدم جزء منه في الخفاء، أي جزء، لعلَّ الناس يوقنون أنه لا يضر ولا ينفع، لكن الغريب أن كل محاولة كانت تزيد من تمسُّكهم به، حتى أدركوا أن أستاذهم كان أبصر بالقلوب منهم؛ الأسياد تُهدم في النفوس أولاً.

تنفَّس الصعداء حين لاحظ غياب عجوز البركة، ساعة الظهيرة تُفرغ الساحة من أهلها؛ القيلولة فرض في داو تحت هذا الحرِّ اللاهب.

السوق بالكاد تتحرك، بائع أو اثنان يعيدون تصنيف خضراواتهم الذابلة، تلك التي كاد المطر يُفني بذورها، لم يبقَ للناس إلا صنف أو اثنان، أما موائدهم فامتلات بالحم؛ لحم الأضاحي مع اكتمال القمر أسفل قدمي التمثال، تفوح منه رائحة حامضة ثقيلة، تلتصق بالأنفاس. عدل مساره إلى طرق فرعية مظلمة، عازماً على الوصول إلى داره دون أن يثير الانتباه. هناك ينتظره رفاقه بلهفة... خاصة أنس، أكثرهم شغفاً، أصغرهم سناً، أقصرهم قامة، يتيم مثلهم جميعاً.

دفع الباب الخشبي البالي، لكنه كان موصداً من الداخل فعلم أنهم بالداخل، حمل ساعده على الطرق، فلقد كانت أطرافه مستنزفة من الجهد المتواصل.

سمع خطوات متسارعة قبل أن يُفتح الباب ويطل من خلفه أنس، بوجه نحيل تبرز فيه الوجنتان بوضوح، وعينين داكنتين متقدّتين بالفضول، شعره قصير دائماً، يقصُّه حتى يبدو كأنه حليق الرأس، فلا يزيده ذلك إلا صغراً في الملامح. قامته القصيرة وبنيته النحيلة تجعله يختفي بين الأجساد لولا اندفاعه الدائم إلى المقدّمة.

دخل عمار وهو يتمتم بذكر الله ثم ألقى السلام...

قال أنس بعد زفرة ارتياح، خرجت محملة بكل القلق الذي اعتمل بداخله طيلة الليلة الماضية:

- الحمد لله أنك بخير...

قبل أن يُنهي الجملة كان يحيى قد انتفض واقفًا، كأنما يقفز، وهتف محاولاً السيطرة على انفعاله الشديد:

- أين كنت؟

مدَّ صالح يده ليُهدئ يحيى، وقد كان جالسًا إلى جوار الباب كعادته، وجهه البياضوي وحاجباه العريضان، ونظراته الطفولية، وذاك الشارب الخفيف فوق شفتيه، كل ذلك يمنحه تناقضًا مُحببًا كلما نظرت إليه.

نهض صالح بخفَّة، جسده الرشيق يسبق كلماته، ووضع كفَّه بقوة على كتف يحيى محاولاً أن يرده إلى مقعده:

- اخفض صوتك يا يحيى... لو مرَّ أحدهم بالخارج لسمعنا.

اقترب يحيى خطوة من عمار، متجاهلاً يد صالح وقال مُعقبًا:

- لقد فقدنا صوابنا في انتظارك... كل طرق الخطر اجتاحت خيالنا حولك.

لم يكن يحيى يكبره سوى بأشهر قليلة، لكن في ملامحه خطورة وفي عينيه ذكاء يمنحانه هيبة لا يُدرى من أين استقاها.

كان عمار يبحث عن مدخل لقصته الغريبة وهو يتأمل ملامح يحيى المتحفزة، عيناه العميقتان ترقبانه بصمتٍ وعمق يشبه البئر، حاجباه الكثيفان يزيدان ملامحه صلابة، وأنفه المستقيم، وفكه الواضح يجعلان وجهه أكبر من عمره بسنوات.

عندما طال صمته تحرَّك ياسين من طرف الحصير الجالس فوقه، نحيل الجسد حتى بدت ثيابه فضفاضة تبتلعه، وجهه شاحب يعلوه

نحول ظاهر، عيناه الوادعتان تبعثان سكينة غريبة وسط التوتر. حين
تكلم بدا صوته رخيماً وهادئاً:

- اهدؤوا يا شباب... إنكم لم تتركوا له المجال ليجيب عن كل هذه
التساؤلات...

ساد صمت قصير عقب كلماته، تراجعت فيه حدة أنفاس يحيى،
وخفتت لهفة أنس، حتى يد صالح التي كانت مشدودة على كتف رفيقه
تراخت ببطء.

بدا أن حضور ياسين، برغم ضالة جسده، يملك ثقل أب غائب؛
يذكّرهم بجلال الدين في احتوائه للجميع بالرغم من أنه يكبر يحيى
بعام واحد!

زفر عمار ببطء، ثم جلس أخيراً بترخٍ على الحصير المهترئ مُستنداً
إلى أقرب جدار إليه، كفيه تتراحان على فخذه وقال بنبرة ثقيلة:

- لم أتأخر عبثاً... كان لا بد أن أسلك طرقاً لم أسلكها من قبل...
جلس أنس جواره، ومال للأمام وقال متسائلاً:

- أرايت شيئاً؟!

لم يُجبه عمار، اكتفى بتمرير نظره نحو النافذة المغلقة حيث يتسلّل
الضوء الشاحب، ثم عاد إليهم وقال:

- ما رأيته يكفي ليقلب ما نعرفه عن داو رأساً على عقب!

قاطعته ياسين وهو يسبقهم إلى الركن الذي يتخذونه دائماً للصلاة
قائلاً:

- نقيم الصلاة أولاً، ثم نستمع لما سيقول.

لم يكن يقص عليهم القصة فقط، بل كان ينفذ أفكاره بينهم بصوت مرتفع، ما يدور بين حنايا قلبه؛ هؤلاء مستحيل أن يكونوا قطاع طرق، مجموعة فتیان وعجائز يحميهم طائر كبير من أقوى الجوارح.

كانوا متحفزين صامتين، ملامحهم مثل صفحة ماء، تتماوج فيها مشاعر الدهشة والصدمة والحيرة. بشرتهم تحتقن عند ذكر البئر بالذات ووشاح خديجة، وتندفع الدماء في أوردتهم، وعمار يعلن عن أفكاره بأنه ربما يكون أملاً جديداً بأنهم أحياء.

تمسك أنس دون أن يشعر بساعد عمار، وترقرقت عينا صالح، وتبادل ياسين النظرات مع يحيى المتشكك والذي قاطعه متسائلاً:

- ألم تسألهم عن هويتهم... أو من أين جاؤوا؟

حرك عمار رأسه وهو يُغلق قارورة الماء، بعد أن جرع بعضاً منه بنهم، يمسح فمه وقد تسالت قطرات بسيطة حوله ويجيب:

- فعلت... لكن كبيرتهم أمرتني بالخروج، وعيناها تشتعل بالوعيد... ثم إنني...

تلکاً هنيهة وهو يضغط شفثيه بأسف، وعيناها متركزة على قارورة الماء. فقال ياسين على الفور بنبرة متفهمة:

- خِفْتَ على نفسك ففررت سريعاً...

أوماً عمار والخجل يساوره ويهمهم مؤكداً:

- الكهف به رهبة غريبة، حتى إنني طيلة مكوثي هناك... كنت أشعر ببرودة تتسلق ظهري وتستقر أسفل عنقي ارتجف منها جسدي كله... لم أكن أعرف نواياهم... وهناك زوايا مظلمة هناك لم أتبين ما يختبئ فيها...

أرسل تنهيدة مُتعبة وأشاح بيده معلناً:

- نعم... غلب خوفي فضولي...
- أوقفه يحيى فجأة متسائلاً وهو يحك ذقنه بتركيز:
- ماذا كانت تقصد كبيرتهم تلك عندما قالت عن الحاكم إنه لا يشيخ!
- قال ياسين بذهن شارد:
- يبدو أن المرأة تعرفه منذ زمن... لكن... لا أذكر أن الأستاذ ذكر في أي مرة من المرات أن الحاكم لا يكبر في العمر!
- أضاف صالح وهو يميل للأمام ويقول بخفوت:
- الأستاذ لم يقابل الحاكم... إلا مرات قليلة جداً.
- قال عمار ساخرًا، وهو يغمض عينيه رغمًا عنه يريد النوم:
- وأنت قابلته كم مرة يا ذكي!
- نتركك لتنام الآن، وتستكمل لنا الحكاية فيما بعد.
- قالها أنس بتعاطف وقد لاحظ أن عمار يفتح عينيه بصعوبة، لكن هذا الأخير فتح عينيه المحمرتين فجأة، كأنه قد تذكر شيئًا وقال:
- بالمناسبة... لقد قابلت الحاجة وسيلة جدة الأستاذ لأول مرة!
- أشار له يحيى أن يتابع ما حدث، فبدأ يسرد ما حدث في بيت نصر الراوي.
- عززت رؤيا نصر الراوي بداخلهم ذاك الشعور الخفي الذي بدأ يهمس لهم بأن خديجة على قيد الحياة وربما أستاذهم أيضًا. ولكن... أين هم؟ صمتوا جميعًا مفكرين فيما قصه عمار عن رؤيا نصر، وصراخ الحاجة وسيلة بحديثها الغريب، وفي تلك اللحظة همس أنس:
- لقد نام...

التفتوا نحو عمار الذي بدأ يغط في النوم وهو على جلسته تلك، مستندًا إلى الجدار.

نهض أربعتهم، بينما أتى أنس بشرشف بالٍ ووضع على كتف عمار. اتجهوا نحو النافذة واستندوا إلى حائطها، وعندما لحق بهم أنس قال له ياسين:

- اسمع يا أنس... سنتفرق الآن ونتقابل في الغد عند الظهيرة... في المدرسة.

أوما أنس موافقًا، فتابع صالح وهو يضربه بخفة على كتفه:
- لا تنس أن توقظه لصلاة العصر.

عندما غادروا وقف أنس برهة، ثم اقترب من عمار الذي انتظم صوت تنفسه، وجلس على مقربة منه يتأمل ملامحه التي تَمَلِّك الإنهاك منها والقلق، حتى في ساعات نومه القليلة.

إنه يسكن معه منذ طُمر أبواه أسفل ردم الدار في أثناء العاصفة، ونجى هو وحده، لم يكن الوحيد الذي فقد عائلته حينها، لقد كانت كارثة على الجميع، معظم الدور لم تتحمل وكلها سقطت في الليل والجميع نيام، بعد أن قضوا طيلة اليوم في تنفيذ طقوس عابد حول التمثال، عادوا وهم متأملين أن القرابين التي أقنعهم عابد بتقديمها ستحميهم، لكنها جعلتهم جميعًا يتامى؛ هو، ويحيى، وياسين وصالح.

كانوا ناقلين من أسرهم واستسلامهم للطقوس، لجؤوا إلى المدرسة اعتراضًا ونقمة، وعندما عادوا كان كل شيء قد انتهى، يذكر جيدًا عندما اجتمعوا متخفين، ومعهم ثلاث فؤوس ومطرقتان يحمل هو أحدها، الحجر والحديد، وصوت الطرق يعلو عند قاعدة تمثال جلال الدين،

بينما محمود الأصغر سنًا يراقب الطريق، وهم مطمئنين أن الكل مختبئ في بيته حتى الحراس.

كانوا مجرد فتية يافعين، يتحركون بلا تخطيط، ولقد كلفهم اندفاعهم هذا خسارة محمود؛ لقد ضحى بنفسه حتى لا ينكشف أمرهم، عندما تفاجأ بالحرس فاندفع بجراًة يصرف أنظارهم عن رفاقه، كان رجلاً حقيقياً في عين الموت، قبل أن يتم الرابعة عشر من عمره.

ظلّ صدى تلك اللحظة محفوراً في وجدان خمستهم، يطرق قلوبهم كلما اجتمعوا أو تذكروا ما فقدوه، يقف بينهم دائماً، حاضراً في غيابه، شاهداً على الطريق الذي اختاروه.

من قال أن الموت يعني الهزيمة؟!

لقد علمهم جلال الدين يوماً أن أصحاب الأخدود ماتوا كلهم، لكن عقيدتهم انتصرت، وكلما تذكروا محموداً، أدركوا أن الدماء لا تُهدر سدى إن أضاءت طريقاً لغيرها متصللاً بالسماء.

في قلب المجلس، حيث الجدران المزيّنة بالمنسوجات القديمة، ورائحة البخور العالق في الهواء، جلس آصف على مقعدٍ مرتفع قليلاً عن الباقيين، ظهره المحني لا يُنقص من حضوره، بل يزيده غرابة؛ كأن الشيخوخة لم تسر فيه إلا لتعطيه قناعاً يخفي خلفه عيون ضبع مترصّد. كان يتكئ على عصاه مُقلداً كل شيوخ الرواة سابقاً.

يكتفي بنظرات طويلة، صامته، تُربك الجالسين أكثر من أي خطبة، إلى جواره وقف ولده خاطر، متحفّز الجسد، كتفاه العريضتان مشدودتان، كمن يستعد لمعركة لا حوار، وجهه قاسٍ، جبهته مقطّبة،

عيناه تلمعان بغضب مكتوم، كل مَنْ يراه يدرك أنَّ هذا رجل لم ينسَ ما أُخذ منه.

و حين تكلَّم، جاء صوته جهوريًّا، متهورًا، يقطع الهواء كالسيف:
- إلى متى نظل نُحاور وننظر في وجوهكم الخائفة، من أراد الحماية فليخضع لقوانيننا الجديدة، ومن عاند فالأرض أولى بدمه.
سارت الهمسات الحانقة بين رجال المجلس، في حين انتفض الشيخ سُليمان هاتفًا بنبرة أنهكها المرض:

- تريد أن تفرض علينا ما لا يرضاه الله بالقوة الغاشمة يا خاطر!
احتقن وجه خاطر والتفت قبضته تلقائيًّا على قبضة خنجره الذي لا يفارق حزامه، وقال مُهددًا دون موارد:

- اسمع... اسمعوا جميعًا، لقد صبرنا عليكم خمس سنوات، جلسات تفاوض لا تنتهي، عناد ومكابرة عائلة الراوي تسير في دمائكم، وتريدون فرضها علينا حتى بعد أن انتقلت المشيخة إلينا... لكن يكفي... لن نهادنكم بعد الآن... منذ اليوم قوانيننا الجديدة ستُنفذ على رقاب الجميع.

ارتفع همس الشيوخ المتحلقين من حولهما، كلُّ يحاول أن يخفي ارتبাকে خلف لحية طويلة، أو طرف جلبابه. كان واضحًا أن القبيلة، لم تزل تنقسم بين مَنْ يخاف آصف ويتعوَّد دهاءه، وبين مَنْ يرى في خاطر الوجه الجديد للقوة الصريحة ويخافه.

خاطر لم يحتمل همسهم، خطا خطوة للأمام، وصفع كفه على المنضدة الخشبية، فارتجَّ المجلس:

- يكفي!

التفت إليه آصف ببطء، عيناه الغائرتان تلمعان ببريق خفي.

صمت برهة، حتى ظنَّ الجالسون أنه لن يتكلم بعد أن ظل صامتًا منذ بداية الجلسة، مال إلى الأمام وقال بصوتٍ رخيم، خافت، كأنما ينساب من عمق كهف وقد قرر فض الاشتباك أخيرًا:

- أرى الأمور أبسط مما تعتقدون، ببساطة... القوانين ستتغير لأن كل شيء قد تغير... في الماضي لم تكن هناك عاصفة أخذت معها كل البذور، وقضت على الكثير من الدور واقتلعت الخير في قبيلتنا... لذلك لم يضطر شيوخ الرواة إلى أن يفرضوا ضرائب... أما الآن... الحاجة تجبرنا على فرض ضرائب بسيطة... أم...؟

سكت لهنيهة يدرس ملامحهم، ثم تابع:

- أم ستقدمون ما تدخرون كله كمساهمة طيبة منكم و... لكم الأجر والثواب.

بعض الوجوه تلوّنت بالغضب، وأخرى بالشك.

كان الشيخ سليمان أول من كسر الصمت مجددًا، قال بصوت متقطع لا يخلو من العزم:

- ضرائب أم جباية؟! اليوم أنت كبير المشيخة، وغدًا تصير كحاكم داو!

ابتسم آصف ابتسامة باهتة، ولم تُفلح تجاعيده العميقة في إخفاء ما وقر في قلبه:

- سَمُّوها ما شئتم يا سليمان، لكن القبيلة لن تصمد ببطون خاوية وجيوب فارغة... نحن لا نطلب لأنفسنا... بل من أجلكم جميعًا.

- وإن رفضنا؟

اندفع خاطر صائحًا بحدة دون تفكير:

- ما زال لدينا البارود.

انتفض الشيوخ وقوفًا، بينما رَمَقه آصف بنظرة حادة، وهو يناديه ليسكت، وقد خرج عن سكونه للمرة الأولى.

الكبار من رجال الجلسة يعرفون بالفعل بوجود البارود لدى آصف، ولكنهم قد اتفقوا ضمناً منذ زمن على عدم التكلم عنه، بل نسيانه تماماً منذ يوم المقتلة الكبيرة التي دارت بينهم وبين شباب داو.

لقد أخفوه بعدها وأقسموا ألا يخرجوه إلا للدفاع عن القبيلة فقط، حتى عندما علموا أن آصف نقله من مكانه ليخفيه بطريقته، لم يبال منهم أحد، لكنهم تفاجؤوا أنهم مهددون به الآن وبكل رعونة!

تحرك الشيخ إبراهيم ببطء، حركة ثقيلة تناسب وهن جسده الضخم، وقال معاتبًا:

- أهذا ما آل إليه عهدكم يا آصف؟! أن يُهدّد كبار الرواة بسلاحٍ أقسمنا جميعًا على أن يظل مدفونًا؟

اقترب منه الرجال تأييدًا لما يقول، وقد زاغت أبصارهم بين خاطر وآصف الذي لم يعد يجد للمواربة مكانًا بينهم، وهم في لحظاتهم الحاسمة تلك، والذي أجبره ولده على خوضها باكراً جدًّا عما كان يخطط:

- ما نسيتموه أن العهد لا يُطعم جائعًا، ولا يردُّ غارةً... سنجلس الآن بهدوء ونكتب ميثاق القبيلة من جديد... ونضيف لها ما نريد مما تفرضه الظروف علينا... سواء ضرائب أو جباية كما تقولون.

تقدم خاطر كتفه بكتف أبيه، وقد أيّده أخيرًا، وقال يدّعي الحكمة:

- وعلى كل حال الكلام عن البارود ليس رجسًا.

تبادل الشيوخ النظرات الواجمة، وقد سبحت في مقلهم ذكرى لصوت نصر الراوي قبل خمس سنوات في أثناء المجلس الأخير في داره، وقد

اجتمعوا حينها لطلاق ابنته رغمًا عنها وعن زوجها، وهو يقول بنبرة مذبوحة لما يفعلوه به وبأهل بيته:

- أتاخذون بعض الكتاب وتتركون بعضًا؟! -

حينها ثاروا جميعًا عليه، لا لشيء إلا لأنه يواجههم بالحقيقة، إنهم يأخذون من الشريعة ما يوافق هواهم، ويرفضون منها ما يخالف قوانينهم.

لقد أدركوا الآن ما فعلوه بنصر الراوي وابنته، بل أدركوا ما فعلوه بجلال الدين نفسه!

ساد وجوم ثقيل، الأعين انخفضت، والأنفاس تعثرت في صدورهم، كأن المجلس تحوّل فجأة إلى محكمة يجرّم فيها كل واحد نفسه بصمت. مال آصف للخلف في مقعده متكئًا، وعيناه تلمعان برضا الظافرين، بينما خاطر شبك يده على مقبض خنجره، يمرر بصره فوق وجوه الشيوخ واحدًا واحدًا، كأنما يسجّل أسماء من سيطيع ومن سيعصي.

بينما دوى في الصمت صوت القلم، وهو يُسطر الميثاق الجديد على الرقّ العتيق، تسللت إلى نفوسهم نبوءة ثقيلة: أنهم قد وقّعوا ميثاقًا... لن يرفعوا رؤوسهم بعده!

انصرف الشيوخ، بينما بقي الشيخ فاضل على جلسته الصامته بعيدًا عن كل ما يحدث ويُقال، كأن ما يشغله أكبر من مستقبل قبيلة بكل أجيالها، وعند خروج آخرهم وقف هاتفًا بخاطر:

- أين ابنتي يا خاطر؟ -

بادله خاطر الهتاف، وهو ينهض ليجابهه بصلف:

- عندما تتأدّب سأخرجها من محبسها.

حدّق إلى فاضل، وارتفع صوته، سقطت عصاه أرضاً، وقد انفلتت منه كما فعلت أعصابه:

- إذن فما سمعته صحيح! لا تزال تضربها وتحبسها يا خاطر...
كأنها عبدة عندك!

ضاقّت ملامح خاطر، رفع رأسه متحدّياً:

- هي زوجتي، وأنا أؤدبها كما أشاء.

احتد فاضل غضباً، وهو ينظر إلى آصف طالباً العون:

- صبرُنا على طيش ابنك له نهاية يا شيخ آصف.

وقبل أن يعلو صياح خاطر مُجدداً، قاطعه آصف ليقف كل هذا العبث:

- اصعد لرؤية ابنتك يا شيخ فاضل، ولكنها لن تغادر الدار رغماً عن زوجها.

ثم نهض منادياً:

- زهرة... يا زهرة.

جاءت الفتاة مُسرعة، تهرول ممسكة بالوشاح كي لا يسقط عن رأسها، وما إن وصلت حتى وقفت بأدب مطرقة برأسها في انتظار الأمر الذي لم يتأخر، وقال لها على الفور:

- خذي الشيخ فاضل إلى حجرة ابنته.

أومأت زهرة بطاعة، وعادت تهرول للأعلى، بينما الشيخ فاضل يتبعها بخطوات متلهفة، لا يصدق أن الشيخ آصف قد استجاب لطلبه بهذه البساطة، فلقد توقع معركة وكل ما كان يرجوه أن يطمئنوه عليها فقط.

هي ليست المرة الأولى التي تأتي إليه زهرة خلسة، لتخبره أن ابنته حبيسة غرفتها أو أن زوجها قد ضربها.

في البداية كان لا يكثرث، خاصةً وهو أكثر من يعلم طباع ابنته وعنفوانها، لكن الإذلال والقهر زاد عن حده، غابت ابنته لأسبوع لا يعلم عنها شيئاً، ثم فوجئ بزهرة تأتيه خلسة برسالة من ابنته أن ينجدها.

- لم تتدخل يا أبي؟ أنا أقود قبيلة الرواة بكل شيوخها، فلا أعجز عن تربية زوجتي.

قالها خاطر بقسوة وهو يراقب أباه المتجهم، والذي همس له وهو يشير بعينه لأعلى:

- أنت لا تترك لك حليفاً واحداً يا ولدي.

- لستُ في حاجة إلى حليف.

قالها بغرور جعل والده يبتسم، وقد قرر أن يضغط جرحه القديم:

- تُرى لو كانت خديجة... كنت ستضربها؟

تحرك خاطر بتململ، يخفي التوتر الذي اجتاحه مع ذكراها، شحب وجهه وغامت عيناه وهو يتمتم مدعيًا اللامبالاة:

- ذهبت إلى خالقها... وانتهى الأمر.

محارباً غصة تشبثت بحلقه، كادت تمنعه التنفس، قال ليبعد خيالها عن عقله بعصبية توشك أن تفشي أمره:

- كنت تخبرني دوماً بأنني لا فائدة مني... رأيت كيف قطفت رؤوسهم جميعاً؟!

أغمض آصف عينيه، وقال ببطء، متشبهاً بعصاه متجهماً بطريقة أثارت ريبة خاطر:

- لا تتعجل الحصاد قبل أوانه.

ضحك ضحكةً صاخبةً أقلقَت والده؛ ضحكة مشحونة بالحزن والغطرسة، تكاد تُعلن تمرُّده على كل قيد.

منذ صغره كان يميل إلى الظهور الفج، والاندفاع الأعمى، لكنَّ أَصْف كان يرى في خبثه زحفَ ثعبانٍ يعرف متى يختبئ، ومتى يلدغ. أما الآن، فقد صار خطره أعظم؛ لم يعد يزحف في الظل، بل يندفع في العلن، لا يعبأ بغير الزعامة.



أشارت زهرة إلى غرفة في نهاية الرواق الصغير، وتقدمته وهي ترفع يديها وتقوم بفتح القفل المثبت من الخارج، زفر الشيخ فاضل وهو يحرك رأسه حانقًا، لقد كان يظن أنه يحبسها بغرفتها، لكن هذه الحجرة الصغيرة الخالية من النوافذ تبدو كسجن أُعدَّ للعقاب.

دفعت زهرة الباب الخشبي الثقيل واندفعت تبحث عن قمر، تبعها الشيخ فاضل مسرعًا، الحجرة تبدو كالجحر، جدرانها عارية من المنسوجات التي يقومون بتعليقها كعادة سكان القبيلة، اندفعت زهرة نحو الأريكة المهملة في ركن الغرفة، وجلست على الأرض جوارها وتحرك جسدها الساكن ببطء خشية أن تفزعها، وهي تنادي بخفوت:

- سيدتي... الشيخ فاضل هنا.

كررت نداءها حتى بدأ جسدها الساكن يستجيب أخيرًا، ساعدتها زهرة على الاعتدال، حتى أجلستها، اقترب فاضل منها، وجلس جوارها وهو يتأمل اللون الأزرق أسفل عينيها بغضب، تأوهاتا مع كل حركة خفيفة تقطع قلبه.

أمسك بيدها وهو يميل بحنو نحو رأسها المنخفض هامسًا:

- لا بأس عليك يا ابنتي... لا تخافي... سأخذ موقفاً معه ليتوقف عن إيذاك.

اهتز ضوء الشمعة اليتيمة المحترقة حينما حركت قمر رأسها بضعف وهمست:

- لقد أقسم... لو خرجت لطلقني.
ارتجفت يدها في قبضته، لكنه لم يتركها، بل شدّها قليلاً لتشعر بالأمان.

نظراته كانت تخترق الخوف والارتباك في عينيها، تبحث عن ابنته القديمة الحاملة، وردة الدار المفتحة على الدوام.

زهرة، واقفة بجانبهما، لم تنطق، لكنها شعرت بثقل الموقف، ومدّت يدها لتربت كتف سيدتها بحنان، عيناها الواسعتان المكحلتان مزدحمتان بالتساؤلات؛ إنها تعرف قمر منذ سنوات، لقد تربت معها في بيت واحد، عندما ماتت أمها ولم يكن لها أسرة تحميها، أخذها الشيخ فاضل ليربيها مع ابنته قمر التي تكبرها بسنوات، يتيمة الأم مثلها، تخدمها نعم، ولكن كأخت كبرى لها، تناديها سيدتي، لكنها رفيقتها كما تُردد قمر على مسامعها دوماً، تأتمنها قمر على أسرارها، حتى إنها عندما شعرت بالحب وانتابها الخجل، باحت بكل ما يحوي فؤادها لزهرة.

لكن الأخيرة ضربت على صدرها وهي تردد: «خاطر ابن الشيخ آصف... ألم تجدي في القبيلة كلها إلا خاطراً!».

صوت الشيخ فاضل أخرجها من ذكرياتها البعيدة وهو يؤنب ابنته بخفوت:

- ماذا حدث ليضربك بهذا القسوة، هل رفعت صوتك عليه مجدداً؟
حركت رأسها نفياً، فأوماً برضاً وهو يقول بحزم:

- سأجعله يفهم أن ضربك وحبسك لن يمر هذه المرة دون حساب.
تجري دموع غزيرة على وجنتيها، وهمسها لا يزال مستمرًا بينما
ترتجف شفاتها:

- ستة أشهر يا أبي، منذ أن زوجتني إيّاه، وفي كل مرة تعدني أنك
لن تدعه يؤذيني مجددًا.

تنهد وهو يحتويها برفق مربتًا كتفها قائلاً:

- يا ابنتي... تعلمين قوانين قبيلتنا... نساؤنا لا تخرج من بيت
زوجها إلا لمدفنها.

رفعت وجهها المبلل بالدموع، تأملته لثوانٍ بشroud قبل أن تُهمهم
دون وعي:

- لقد سعيتم جميعًا لطلاق ابنة الشيخ نصر... حتى هربت...

نهض فجأة كأنه قد لدغ، ضرب عصاه في الأرض غضبًا، فارتعدت
أركانها وانكمشت، تعلم أن سيرة نصر الراوي تصيبهم جميعًا بالحمى،
كما تعلم أن خديجة وُصمت بـ «منبوذة السيرة» كما وُصم جلال الدين
من قبلها؛ أي لا يُذكر في المجالس إلا بالسوء!

- زهرة... ابقِي معها واعتني بها، سأُنزل لأتفاهم مع زوجها.

أومأت زهرة بطاعة، حزينة، تسير من خلفه حتى غادر وهو يشيع
ابنته بنظرات ميتة. أغلقت الباب، وعادت إلى حيث تودعه قمر بعينيها
المتورمتين، وجلست جوارها صامدة لا تدري ما تقول.

- هل تصدقين يا زهرة أن هذا هو خاطر الذي كنتِ مُتيمة به ذات
يوم؟!

التفتت زهرة نحوها، لا تريد أن تجيبها بالحقيقة، نعم... هي تصدق، هذا هو خاطر، لكنه خاطر الحقيقي وليست النسخة المزيفة الخيالية التي أحببتها قمر يوماً ما.

- لقد ضربني بجنون لأنني تفوهت باسم خديجة.

شهقت زهرة بخفوت، لم تكن تعلم السبب ولم يكن لديها فضول المعرفة لما يحدث بينهما كل مرة، يجعله يضربها بجنون هكذا. لقد اعتادت ذلك في القبيلة، لا أحد يسأل لماذا...!

ما دام قد ضربها فهي تستحق ذلك... هذا ما نشأت عليه هي وجميع قريناتها.

لذلك كن يغرن من خديجة على الدوام، نصر الراوي كان يلقبها بابنة أبيها، لم يجروا أحد على النظر إليها ولو نظرة تجرحها. ثم تزوجت برجل ينافس أبيها على حمايتها، رجل عشقها، فلماذا لا يغرن منها بشدة؟ لماذا لا يذكرنها في المجالس بسوء؟!

ابتسامة مجروحة أطلت من بين شفتي قمر، وهي تتحسس شفرتها المكدومة، وتحدث زهرة كما تحدث نفسها هامسة:

- هل تذكرين عندما أجبرتك أن تتقربي منها، وتقومي بخدمتها هي وأبيها لتأتينني بأخبارها؟

كعادة زهرة تومئ، وشبح ابتسامة خجول يطوف بعينيها وتهمس لها... يتناجيان بأسرارهما ككل الرفيقات:

- أذكر... ولا أنكر أن ضميري كان يؤلمني لأنها كانت طيبة وحنونة للغاية معي.

تحسست قمر ضفيرتها، سارحة، حاولت رفع كتفها لكنها ألمتها فتوقفت وغمغمت:

- أعرف... لكنني كنت أخشى أن توافق على الطلاق... كنت أتابع نظرات خاطر نحوها في الأعراس وغيرته من جلال الدين... أعلمه لم يكن ليفوت الفرصة.

كادت أن تهتف وهي تساندها وتقول بفخر:

- لو كان رأيك لأحبك، أنت أجمل منها وأخف.

ضيق قمر عينيها وقالت ساخرة:

- ألم أخبرك من قبل أنه قال بكل وضوح إنني دمية، وإنه قبل الزواج بي لأن المصلحة كانت تقتضي أن يتم هذا الزواج!

نهضت زهرة منفعة، ودون حساب هتفت:

- وماذا نفعل له إن كان أعمى القلب والنظر!

أمسكتها قمر من يدها، فانتبعت لهتفاها فشهقت، جلست تحتضن ركبتيها خشية من أن يكون صوتها تسلل خارج تلك الجلسة النسائية باقتدار.

لا أحد بقادر على أن يجعل قمر تنتقل من حالة الحزن والتعاسة إلى السخرية والابتسام سوى زهرة، تلك الفتاة التي تسبق عمرها بمراحل، حتى أنه يهياً لقمر أحياناً أنها امرأة ناضجة منذ أن كانت طفلة صغيرة نحيلة، ضفيرتها أطول منها، عينيها متسعيتين دوماً بدهشة، إخلاصها أعمى.

الغلطة الوحيدة التي ارتكبتها، هي أنها لم تستطع السيطرة على نبرة صوتها وهي تنقل لها خبر استعداد خديجة للهرب من بيت أبيها، مما جعل والدها يستمع إليهما ويستعد للخروج إلى دار آصف ليبلغه، ولولا تشبثها به حينها؛ لربما لحقوا بخديجة قبل أن تبتعد.

- بالمناسبة...

همست زهرة، وهي تفك تشابك يديها، وتنزل قدميها أرضًا، كأنها قد تذكرت للتو خبرًا ما كان لينتظر كل هذا الوقت لتخبرها به، قمر تعرف تلك النظرة؛ وراؤها دومًا مصيبة ما، نظرت إليها بانتباه فأسرت زهرة لها:

- اليوم في المجلس تكلموا عن شيء كنا نظنه اندثر... وخاطر قال إنه يملكه...

انتبهت حواس قمر، وهي تشير لها أن تتابع، بدأت زهرة تحكي لها كل ما سمعته يدور في المجلس، تشنجت ملامح قمر، نظرت إليها في ترقب، وكل كلمة تهوي على قلبها كالصخرة.

أكثر ما أزعجها أن الشيوخ أنفسهم قد رضخوا، إن كان خاطر قد أخافهم وهم الشيوخ، فكيف سيكون حالها معه بعد كل هذا الجبروت؟

النعيم

- خديجة، خديجة!

كان يربت وجنتيها منادياً إيّاها لعلها تستجيب وتفتح عينيها، ولكن كل ما حصل عليه هو أنينها المتقطع، الجبال هي كل ما يستطيع رؤيته من موضعه هذا، منذ أن فتح عينيه يتلفت حوله بين الفينة والأخرى، بينما لا يمل من محاولات إفاقتها.

كلما شعر بالوهن وهاجمته آلام الرأس المقيتة رمى بجسده مستلقياً فوق الرمال مغمضاً عينيه، ملابسه ممزقة كأنه خرج لتوه من قتال عنيف، استطالت لحيته وشعره أكثر مما يذكر بكثير جداً، بطريقة أنبأته بأن وقتاً طويلاً قد مر، لا يعلم كيف ولا أين، بينما خديجة غطت غرتها عينيها، وقد تمكن الذبول من ملامحها الشاحبة كالأموات، وتلك الندبة على يمين جبهتها والأخرى، جوار فمها ظاهرة لكنها لا تنزف، حال جلبابها ليس بأفضل من حاله، يحمد الله بأن التمزق قد طال الجرجار الذي تلبسه فوق جلبابها، ذيل الجلباب فقط هو من طاله الاهتراء.

أين يذهب ومعه زوجته فاقدة للوعي، في أرض غريبة يطلأها لأول مرة، حتى السماء من فوق تبدو أغرب ما يكون، السحب تغطيها تماماً كما لو كانت تنذر بالسيول وبالرغم من ذلك يشعر بالاختناق كأن

الشمس تدنو من رأسه، يحدث نفسه كل لحظة محاولاً إنعاش ذاكرته
لكن ألم رأسه يضربه كالمطرقة بلا رحمة!
- آآه...

عادت تتن، التفت نحوها ببطء، فحركة عينيه وحدها كفيلاً بزيادة
تلك المطارق الحادة التي تنهش عظام جمجمته، استند إلى أحد مرفقيه
بحرص، لقد انفرجا جفناها ببطء، وتحركت شفتاها الجافتان بصعوبة
تنادي باسمه:

- جلال... جلال.

فرت دمعة سريعة قافزة من عينه، دمعة فرح تشوبها غصة، بينما
يجيبها بتمهل ممرراً كفه بين غرتها ليباعدها عن عينيها نزولاً إلى
وجنتها:

- أنا هنا يا حُب.

رفعت عينيها إليه للمرة الأولى، شهقت فعلم أنها لم تعرفه، حاولت
النهوض لكن من أين لها بقوة تُنهضها الآن! تهاوى جسدها فلم يتركها
لخوفها ولو للحظة واحدة، قال على الفور دون أن يلمسها:

- أنا جلال الدين يا خديجة... تأملي ملامحي.

ولما فعلت بدأ خوفها يتلاشى، إنه هناك، خلف اللحية الطويلة،
والشعر المبعثر المموج حول وجهه، همست بتعب:

- ماذا حدث لنا...؟!

أشار إلى الجبال المرتفعة من حولهم يجيبها:

- أنا مثلك لا أذكر أي شيء!

- حلقي يؤلمني.

كانت تخبره بعطشها الشديد، بينما هو أشد منها حاجة إلى قطرة ماء واحدة، وللمرة التي لا يعلم عددها وقد فقد القدرة على العد؛ نهض، ومجددًا يرسم خطأً على الأرض بغصنٍ يابس وجده هناك حتى لا يفقد طريقه، فهو لم يعد يثق بقدراته، ولا بعينيه المشوشة، وتحرك مبتعدًا قائلًا لها:

- سأبحث من جديد عن أي مصدر للماء هنا.

لو كان بيده لأخذها معه، لو كانت لديه قوة لحملها على كتفيه، لكنها لا تستطيع حتى النهوض، وهو خائر العزيمة، يمتلكه الشعور بالضيق بين كل هذا الجذب، الغريب أنه في كل محاولة يشعر باختلاف؛ الصخور تتغير أبعادها، المرتفعات تتبدل أطوالها، الأرض تبدو كأنها لها روح وعقل، كأنها لها إرادة خاصة بها!

هل هذه همسات ضاحكة؟!

الهمس نابع من اللامكان:

- صاحب الأمواج... النبوءة.

ماذا سيفيد التلفت سوى إهدار ما تبقى من قواه، يتجاهل، يكفي بنظرات جانبية هنا وهناك بنصف أجفان مفتوحة، ييدي اللامبالاة.

همسات لا تمنحه شعورًا بالخوف، هي فقط تُربكه:

- الجبل... على اليمين!

الجبل على يمينه! إنه أقصر الجبال طولًا، يبدو ممهدًا أكثر مما يجب في الحقيقة، راودته نفسه مرارًا على صعوده لكن لا، لن يترك خديجة وحدها في هذا المكان الموحش، استدار عائدًا يتبع خطوطه التي رسمها، لكن قلبه رفرف مأخوذًا عندما لفت نظره سرب حمامٍ يتجه يمينًا حيث الجبل الممهد!

شعر بقوة مفاجئة تتدفق إلى جسده، واشتعل عقله بالأمل، لا بد وأن هناك ماءً.

لن يتأخر، سيذهب ويحضر ما يجد، ثم يعود إليها سريعاً، بالتأكيد هي نائمة الآن كما حدث له حين استفاق أول مرة.

استخدم الغصن متكاً، الجبل بدا مظهره خادعاً، مُمهّداً من بعيد، لكن كلما اقترب أحس بوعورته، وُعُورَة يعرفُها، وظلام بين حناياه يشبهه!

يقفز ويتسلق، يحني جذعه قليلاً ليمشي بين الممرات الضيقة صعوداً حتى ألمه ظهره، وقد بلغ صخرة كبيرة، فاختار أن يرتاح مستنداً للحظات، لكن وقبل أن يلمس ظهره الصخرة بوغت بمن يخرجون من خلفها ويحيطون به، وقبل أن يندهش حتى أمسكوه من ذراعيه وحملوه حملاً، ودون أن ينطقوا بكلمة وجد شريطاً من القماش يلتف حول عينيه يمنعه الرؤية... وساد الظلام.

إنهم أقوىاء بحق، يعرفون ماذا يفعلون كأنهم تدريبوا عليه طيلة أعمارهم، وقّع أقدامهم أنبأه بمدى خفة تحركاتهم وسرعتها وهم يقودونه أمامهم بسلاسة معصوب العينين.

جمع شتات أفكاره منذ أن أحاطوا به، وحتى اللحظة ليستطيع حفظ الطريق والمنحنيات الصخرية والممرات لكنه في النهاية فشل؛ تبدو كخريطة متعرجة لا يفهمها سواهم.

قبل قليل هدأت خطواتهم فعلم أنهم أوشكوا على الوصول، توتر جسده وهو يستعد لما هو أسوأ، توقع أن يزيلوا العُصاب عن عينيه عندما توقفوا، لكنهم لم يفعلوا.

أحدهم يقترب منه ببطء، وسمع رجلاً يقول بهدوء لكن بنبرة ساخرة:

- جاسوس جديد؟!

رجل عن يمينه أجاب السؤال الذي لم يكن موجهاً له من الأساس،
قائلاً للذي يبدو أنه زعيمهم:

- وجدناه مختبئاً عند الصخرة ألف.

قال زعيمهم ملقياً أوامره بجدية وصرامة:

- مشطوا المنطقة ألف وما حولها، بالتأكيد ستجدون شركاءه.

خفق قلب جلال الدين وقد أضاع عقله بصورة خديجة الفاقدة للوعي
هناك، ماذا لو وجدوها، حانقاً تحرك بينما الحبل السميك الذي يقيد
كفيه خلف ظهره يكاد يُمزق نسيج جلده.

ملاً السعال فراغات كلماته وهو يصيح بانفعال زائد:

- لم أكن... مختبئاً، كنت... أرتاح.

ماذا يجري له؟ لم تخنقه تلك الغصة فيخرج صوته غريباً مختنقاً،
وقد زاد السعال من غرابته كأنه يغرق!

تلك العصبية اللعينة التي يختفي تحتها جزء من جبهته، نزولاً إلى
عينيه ومعظم أنفه، مما يجعل تنفسه يضطرب ويتخبط بحركات رعناء.
دفعوه أرضاً... وسقط يلهث، ما هذا الضعف؟ من هؤلاء الأوغاد؟
كيف سيحميها إن جاؤوا بها مُكبلة؟ إنه حتى لا يستطيع النطق بجملته
مفيدة من شدة السعال الذي ينتابه كلما حاول فتح فمه!

سمع جلبة بالخارج، وأصوات ركض لأقدام تدهس الحصى، وصوت
يقترب منادياً:

- هجوم هجوم.

وعلى الفور هتف الزعيم:

- فلننسحب الآن.

تفرقت الخطوات من حوله بطريقة منظمة، وأخذت تتباعد وتخفت، لكن الصمت لم يمنحه الكثير من الوقت، قبل أن تهب عاصفة أقدام أخرى تغزو الكهف الضيق.

شعر بنفسه يرتفع عن الأرض، والعصاة السوداء ترتفع عن عينيه بغتة... وصوت صارم يهتف:

- هل أنت بخير يا مولانا؟

ما كل هذا الجنون، ومن هؤلاء أيضًا!

وجد نفسه يقف في المنتصف، بين مجموعة رجال يحملون السلاح، ويرتدون زيًا موحدًا، إنهم مثل جيش صغير يحتشد بداخل الكهف، مجموعة تقف من حوله، والبقية يبحثون في الممرات الضيقة المتشعبة، ويصيحون موجهين حديثهم نحو قائدهم الذي أزال العصابة عن عينيه:

- كالعادة... هربوا كالفئران.

زفر قائدهم براحة وهو يستدير برأسه تجاه جلال الدين قائلاً بابتسامة كبيرة:

- فليذهبوا إلى الجحيم، المهم أن مولانا بخير، ولم يمسه بسوء.
من مولاهم هذا؟ لماذا يتحدث قائدهم كأنه يعرفه؟ هل وقع في حفرة متخمة بالمجانين؟!

شعر بنصل بارد يتحرك بين كفيه، انقطع الحبل وتحررت يداه، تحسس معصم يسراه المكدومة متألمًا.

تراجع للخلف وقد قرر العودة للبحث عن زوجته، لكن القائد اقترب منه بود، تناول قنينة ماء معلقة بحزامه وقدمها له بحبور قائلاً:

- تفضل يا مولانا، اشرب هذه حتى تستعيد عافيتك، وتعود معنا إلى القصر.

تعلقت عيناه بالقنينة والمياه بداخلها تتأرجح، تدل وتناديه، وتنسيه كلمة مولانا التي يرددونها، وكل ما هو غريب حوله.

بلل شفثيه الجافة بلسانه الأشد جفافاً وهو يتناولها ممسكاً بها، كأنه وقع على كنز ثمين، رفعها نحو فمه وهو يذكر نفسه بأن يُبقي نصفها لخديجة.

تساقطت بعض القطرات حول شفثيه منزلقة فوق عنقه تنعش جلده كما تُحيي عروقه.

لو كان أحد من قبل قد أقسم له بأن جرعة ماء ستضعه في حرب نفسية لما صدق! إلا أنه يُعايش ذلك الآن، وهو يجبر نفسه على إنزال القنينة عن فمه ولم يكن قد ارتوى بعد!

العجيب أن العطش تملكه أكثر من ذي قبل، بينما روحه تكاد تقفز من عينيه إلى داخل الزجاجاة لتسبح هناك تمتلئ عن آخرها بمذاقها الممتع! الآن فقط يجزم أن للمياه مذاقاً حلواً مُسكرًا، وليس كمان كان يظن طيلة حياته أنها بلا طعم ولا لون ولا رائحة!

الأكثر غرابة أنه عندما أغلقها مُنهيًا تلك الحرب الضروس، وجد الجميع يحدقون إليه بصمت مهيب، كأنهم يلاحقون أفكاره ورغباته المتعادلة، يحبسون أنفاسهم، وينتظرون هدف الفوز في الثانية الأخيرة لمن سيكون!

كانت أعينهم محدقة إليه عندما أغلق الزجاجاة دون أن يمس نصيب خديجة منها، وانطلقت زفرات كانت مُقيضة بصدورهم يشوبها الإحباط. سيفكر في كل هذا الجنون لاحقًا، الآن يجب أن يعود إليها، لكنهم لحقوا به بهدوء، لم يتحدث إليهم حتى خرج من الكهف، ووقف باحثًا عن طريق ممهد للهبوط، فقال قائد الجُند على الفور:

- سنأخذك إليها من أقصر الطرق.

اتسعت عيناه في حذرٍ وتوجُّس، وصوته يخرج مترددًا كمن يخشى أن يسمع الجواب:

- من هي؟

- زوجتك!

توحشت ملامح جلال الدين مقتربًا من الرجل الذي هتف سريعًا:

- لقد مررنا بها في طريقنا فوجدناها تقف فوق تلة مرتفعة، وعندما

اقتربنا منها، قالت إنها تبحث عن زوجها وأشارت إلى الجبل هنا،

فعلمنا أنك بين يدي قطاع الطرق لأن هنا إحدى جحورهم.

انتهى الرجل وقد أوشك على اللهاث، مما زادت التساؤلات في رأسه،

لماذا يخافون غضبه بهذا الشكل؟ هل لهذا علاقة بكلمة مولانا التي

ينادونه بها؟

حرك رأسه نافضًا كل هذا الهراء عنه، قال متعجلًا:

- دلني فقط على طريق الهبوط.

أومأوا له في حركة آلية، واستبقه بعضهم يرشدونه إلى ممر آمن،

بينما الآخرون على إثره يتبعون خطواته.

وعندما لم يمر بالصخرة الكبيرة نفسها التي حاول الاستراحة أسفلها

في البداية، علم أنه طريق آخر وربما أقصر مما صعدته مع قطاع الطرق،

كما سماهم قائد الجُند، في طريقه للنزول، كان يبحث عن التلة بعينيته،

وبسهولة شديدة وجدها، لكنها لم تكون وحيدة!

كان إلى جوارها رجلٌ ما، يقف على مسافةٍ آمنةٍ منها، لا يرتدي زيَّ

الجند الموحد، غير أنَّ ذلك لم يشغل باله، فكل ما رآه أن ملامحها تبدو

بخيرٍ أكثر مما ظن.

وما إن وقعت عينها عليه من بعيد، حتى تحرّكت تهبط التلّة بخطواتٍ حذرة، تتّجه نحوه مباشرة.

تسارعت خطواتهما حتى تلاقا، أحاطها بذراعيه بحماية تلقائية، ونظراته تلاحق الرجل الذي كان بصحبته.

كان شيخاً كبيراً بالعمر، يقترب ببطء يتوكأ على عصاته الشبيهة بالجدع، ولكن مع اقترابه تهلل وجهه عن فرح بالغ هاتفاً:

- مولانا... حمداً لله على سلامتكَ.

تبادل النظر مع خديجة وهو يناولها المياه، فقالت تعيدها إليه، بينما تنزع قنينة أخرى كانت تعلقها في حزامها التي تربط به خصر عباءتها:

- لقد منحني هذا العجوز زجاجة مياه... تركت لك نصفها.

ربت وجنتها يبادلها الهمس:

- اشربي ما تبقى منها.

قالت وهي ترقب هذا الكم من الجند المحيطين بهما:

- ماذا يحدث؟!

قربها منها أكثر يبيثها الطمأنينة، وقد اشتدت نبرته كما اشتدت ذراعه حولها:

- لا أفهم... لكن لا تخافي.

- هل نحمل مولانا وزوجته إلى القصر الآن؟

- مولانا؟!

كررتها خديجة وهي تلتفت إلى العجوز، والذي تابع حديثه وحركات يديه المتهللة:

- كل سكان الجزيرة في انتظار ظهورك يا صاحب الحكمة.

خيم الصمت للحظات، قبل أن يرتفع صوت صرخة حادة متقطعة.
رفعوا رؤوسهم إلى السماء وتمتم العجوز بخوف:
- العُقَاب.

كان يخلق على مسافة مرتفعة منهم، رمادي داكن، ضخم للغاية،
طول جناحيه قد يصل إلى مترين أو أكثر، يشق الهواء ويدور بقوة،
بسيادة، بتحذير، ك ملك وجد غرباء في مملكته فيطلق صرخات تهديد
منذرة.
- لنرحل.

قالها قائد الجند، وهو يتحرك بالفعل مع جنوده، واضطر جلال
الدين إلى اتباع إرشاداتهم؛ فالمكان هنا غير آمن على ما يبدو.
كان الجبل من خلفه صامتاً، كساحة حرب أنهكت في ضراوة حروب
دارت من زمن قديم، الغبار لا يهدأ، كما هدأت صرخات العُقَاب.
الحصى تحت قدميه صار أكثر طراوة، وبعد مسافة أخرى لاحظ
زهرة صغيرة تنمو وحيدة تطل برأسها البنفسجية بين شقوق حافة
طريق جديد.

خطا فوقه للتو هو وخديجة التي همست وهي تراقب الزهرة:
- كأنها في أرض غريبة عليها.

استدار جلال الدين إلى الخلف، فبدا الجبل بعيداً أكثر مما يجب،
كأنه يتلاشى وهمس دون وعي لما يقول:

- أو أنها حية في أرض اعتادت الموت!

شهقت خديجة وقد سمعت تعقيبته بوضوح متسائلة:

- لماذا تقول هذا؟!

انتابته الحيرة، هو نفسه لا يعرف، كل ما يعرفه أن ذاكرته ليست بخير، شيء ما ضائع بين تلافيف عقله.

وهنا لاح ذاك السور الحجري الضخم الشاهق، ونادى الجند لمن هم خلفه يحرسون بوابته الحديدية:

- افتحوا.

فتحت نافذة حديدية صغيرة، وأطلت من خلفها عينين حادتين قبل أن تغلق مجددًا، ويرتفع صرير البوابة الكبيرة، تظهر الأشجار من خلفها تلوح بأغصانها الوارفة.

أُخذت خديجة بما تراه، اتسعت عيناها بروعة المشهد، تمسكت بمرفق زوجها وقدماهما تنحدر بنعومة على العشب الندي من تحتها، خرير ماء يجري آتٍ من بعيد، يتسلل إلى أذنيها يداعبها برقته، مذهولة قالت:

- هل نحن في حلم؟ تشبه حكايات ألف ليلة وليلة!

لم يجبها، هو أيضًا كان مأخوذًا مثلها، الأرض العشبية تتفتح أمامه كصفحة من كتاب لم يُفتح من قبل، فهناك كانت حديقة تنتظره كحقيقة أخيرة!

في بدايتها شجرة ضخمة قديمة نُقش عليها بحروف بارزة كبيرة كلمة واحدة

«النعيم».

توقفا عندها يحدقان إليها ويهمسان بها مرددين:

- النعيم؟!

نظرت إليه متممة بوجل:

- هل متنا!

ظهرت أسنان العجوز الصفراء وهو يستدير نحوهما مبتسمًا ويحرك رأسه نفيًا، رافعًا ما تبقى من حاجبيه مدهوشًا دون رد.

خطواتهما ثقيلة؛ لا من الدهشة، ولا من التعب، بل من ثقل الأسئلة التي لا تنتهي، عقله يعمل كالجحيم، لكن الضباب الكثيف المحيط بذكرياته لا يترك منها سوى ذرات كذرات الغبار العالقة بملابسه.

توغلا وسط الركب، بين تلك الأشجار الباسقة التي تبدو كأنها تعانق السماء، تتشابك أغصانها لتصنع ممرات من الظلال الناعمة، رائحة ثمار طازجة غريبة، لكن ليس بغرابة الثمار نفسها، كأنها تتدفق من بين الأغصان لا تنمو فوقها، إنها مُدلة لهما، دانية منهما، نظيفة جاهزة للأكل، كأنها تدعوها لقطفها بمجرد لمسها دون مجهود يُذكر!

وعلى بُعد أمتار قليلة، انبثق نبعٌ صغير، صفاؤه يشي بأنه لم يُمس قط، كأنه يخرج لتوه من قلب الأرض.

معدتهما تقرر طلبًا لها، مد جلال الدين أنامله نحو ثمرة منهم، فسقطت في راحته طوعًا، التفتت خديجة نحوه في اللحظة التي قضم منها أولى قضماته، فقالت موبخة بنبرة منخفضة:

- ماذا تفعل! نحن لا نعلم لمن هذه الثمار.

توقفت نظراته فوق وجهها يفكر، لكن فمه ما زال يعمل لا إراديًا، حتى أنهاها عن آخرها متلذذًا، ثم قال كأنه لم سمعها:

- شهية، عسلها مُسكر!

كادت أن تنهره مجددًا، لكنه تبعها بثانية وثالثة، هو لا يستطيع التوقف، كأن جوعًا قديمًا استيقظ فيه مع كل قضة، مما أصابها بالذهول، هذا ليس جلال الدين الذي تعرفه، لقد تغير مع القضة الأولى!

لكنها لم تتوقف عن هزه ليستفيق ويتوقف:

- جلال... ما بك؟ توقف!

وبعد أن كانت غير قادرة على العد، أمسك رأسه وقد لفه الدوار
وبعينين زائغتين وصوت مُخدر قال:

- ها... الأرض تقترب!

وقفت تسنده مصدرة شهقة خافتة أوقفت حركة العجوز، وجعلته
يلتفت وبابتسامة غامضة أشار نحو بئر تجثو بمهابة وحيدة بين دائرة
من الشجيرات القصيرة، والتي تستريح أغصانها فوق حوافه المرتفعة
قائلاً:

- فلنجلسه هنا قليلاً.

ساعدته في الوصول إلى حافة البئر، أجلسه ببطء، لاحظت لأول مرة
وبرغم الأشجار والمياه أنه لم يصل إلى سمعها تغريد عصفور واحد!

ترى، لماذا تهجر العصافير والطيور تلك الجنة!

تسرب إلى قلبها شعور خفي، كل ما في هذه الحديقة صامت أكثر
مما يجب، ساكن أكثر مما ينبغي. كل ما في هذا النعيم حي. لكنه لا
يتنفس!

ودون كلمة واحدة، قدم لها العجوز كوباً فضياً أنيقاً ممتلئاً بالماء،
فمنحته لابن عمها الذي شرب على مهل، ثم استند إلى كتفها.

ناولها العجوز كوباً آخر فرفضت أن تأخذه على شدة عطشها، كما
رفضت أن تأكل من تلك الثمار، رغم تلوي معدتها طلباً ولو لثمرة واحدة!

مال العجوز نحو أذن جلال الدين هامساً له بأن يحث السير من خلفه،
فلم يتبَّق الكثير من الوقت، ثم أمسك بساعده لينهض، ويستعد للمغادرة
بصحبه، وخديجة تسند ذراعه الأخرى على كتفها، وتلف ساعدها حول
خصره، بضع خطوات واستعاد وعيه كاملاً، واستقام ظهره.

حَثَّ الثلاثةُ الخطى خلف الجند الذين راحت خطواتهم تزداد سرعةً شيئاً فشيئاً، حتى كاد وقع أقدامهم يختلط بصوت الريح بين الأشجار. لاحظت خديجة أنهم مرُّوا بمبنى ما، يبدو من هيئته الضبابية أنه قصر، غير أن الضباب الكثيف وتداخل الأغصان حالا دون أن تتبيَّن ملامحه، ومع ذلك خالجها شعور غامض بأنها تعرف هذا المكان. لكن العجوز الذي يقودهم لم يمنحها فرصةً للتأمل، إذ كان يندفع إلى الأمام بخفةٍ لا تليق بسنّه.

العشب تحت أقدامهم لم يعد لِيناً ندياً كما كان عند بدء الطريق، بل غدا خشناً جافاً كأنه يخبرهم أن النعيم قد انتهى هنا! عبروا جوار شجرة ضخمة أخرى، لكنها بلا ثمار على الإطلاق، استند العجوز إليها كأنه يربط عليها مواسياً، وكان بجوارها صفّان من الأشجار الجافة، ثم ظهر من خلفها سور آخر، كالذي عبروا من خلاله قبل دخولهم إلى الحديقة.

نفس الارتفاع والأسلاك المدببة تقف بتهديد أعلاه، باب حديدي آخر يصدر صريراً مرتفعاً مزعجاً، وحراس مدججون بالسلاح سمحوا لهم بالمرور خارجه، كأنها أرض أخرى، جرداء، غير مُمهدة، دور بسيطة من طابق واحد، متناثرة هنا وهناك حول الساحة، وجوه مُكفَّهة تحديق إليه بنظرات لا تبرحه يملؤها الأمل والفرحة... والخشوع!

يلتف الجميع بصمت مهيب في عدة صفوف متفرقة، وما جعل جلال الدين يبادلهم التحديق، كانوا جميعاً يرتدون عباءات حمراء، ذيولها مهترئة، مُتربة وأغطية رأس مختلفة في طريقة ارتدائها، لكنها بنفس اللون الأحمر القاني وتمتم:

- هذا يبدو... مألوفاً!

خرج من الجمع الغفير مُسن دأكن البشرة ذو لحية بيضاء، واقترب على مهل من جلال الدين، وقف يتأمله هُنيهة، قبل أن يرفع يده نحو جبهته، مباعداً بين خصلات شعره المتناثرة هناك، متلمساً الجرح وهتف بصوتٍ باكٍ:

- لقد خرج أخيراً.

فجأة بدأت صيحات تتقاذف من حناجرهم، واحدة تلو الأخرى، كأن كل صيحة تُشعل التي تليها كأعواد الثقاب.

- النبوءة... النبوءة.

هتفت خديجة بهلع وهي تتمسك به:

- ماذا يحدث!

أما هو فلم يتحرك، كما لو أن الصيحات لم تفاجئه، كأنه سمعها من قبل في حلم قديم!

تحرك الحُرّاس وصنعوا دائرة حولهما، وبدؤوا بالسير تجاه القصر، فابتعد الناس إلى الخلف بتلقائية وقد اختلطت الصيحات بالهمهمات السرية حول المرأة المتمسكة بمرفق مولانا على الدوام، النبوءة لم تتحدث عن رفيقة!

القصر نفسه مألوف له، لكن طلاءه الأبيض اللامع حوَّله إلى جبلٍ من الثلج الجاثم فوق أرض مرتفعة، يطوّقه سور شاهق، مدبب الحواف، كأنما هو أسنانٌ فمٍ وحشٍ أسطوري ينتظر أن يبتلع من يدخله.

قال العجوز بأنفاسٍ متقطعة، وهو لا يزال يخطو معهم صعوداً:

- قصر الحكمة الأبيض... حيث تُدار شؤون النعيم.

رفعا رأسيهما، حيث قبة القصر المصمتة، تتوسطها مساحة رمادية داكنة، نقش فوقها بحروف كبيرة واضحة، وبارزة بكلمات انسابت بداخل جلال الدين وهو يهمس بها:

«في دائرة أبدية... يخرج الإنسان صاحب الحكمة من بين الأمواج... أشج الجبين يقود البشرية إلى النعيم».

لم ينتهِ السكون... لكنه تغيّر، صار أكثر ثِقَلًا، كأن الهواء نفسه توقف ليسمع، ثم... تحرك شيءٌ في الجدار، خط رفيع من النور شقَّ المساحة الرمادية أسفل النقش، كأن النبوءة حين نطقها اكتملت، كأن الجدار نفسه قد فهم.

دوى صرير حاد، انفتح باب القصر على إثره، خطا إلى الداخل، تبعته خديجة بعد تردد، ثم العجوز.

أغلق الباب خلفهم كما يُغلق جفن على حلم لا يريد أن يُروى.

حين انغلق الباب خلفهم، لم يجدوا جدارًا، ولا ممرًا، بل... ضوءًا! ضوءٌ ناعم، لا يؤلم، كانت الأرض خضراء... لكن ليس خضارًا عاديًا، اللون نفسه بدا كأنه لا يُشبه أي خُصرة عرفوها، أشجار بأوراق زجاجية الحواف، تتمايل بلا ريح، وأغصان تنحني برفق كلما مرُّوا، كأنها تعرفهم. السماء فوقهم لم تكن سماء، بل قبة من ضوء ذهبي شفاف، تُسقط أشعة لا مصدر لها، لكنها تُضيء كل شيء كأنها تعرف مكانه، وسط البستان جداول صغيرة تجري بنعومة، مياهها شفافة حدَّ أن الأرض تحتها تبدو أقرب من أقدامهم، كانت الألوان نقية، صامتة، كأن كل زهرة تعرف وقتها للتفتح، وكل حجر في الأرض يعرف موضعه ولا يحيد.

وقف العجوز، وقال بهدوء:

- هذا أحد بساتين النعيم.

قالت خديجة تُحدث نفسها:

- لا أشعر بطمأنينة.

اقترب منها العجوز، لم يلمسها، ولم ينظر في عينيها، بل قال بنبرة
حيادية:

- لأن النعيم لا يخصُّ العابرين.

سألته دون أن تلتفت:

- هل أنا عابرة؟

قال بعد صمتٍ ثقيل:

- أنتِ تتبعينه...

شعرت بشيء يضغط على صدرها، كأن كل الخطوات التي مشتها
لم تكن لها، كأنها ما دخلت القصر إلا لتراه هو يدخل، نظرت إلى جلال
الدين، كان يقف بعيداً، ينظر إلى زهرةٍ تشعُّ من بين شجرتين، لم يشعر
بوجودها.

فقالت بهدوء، أقرب إلى الحزم:

- إن كان هذا هو النعيم... فأين مكاني فيه؟

لم يُجبها أحد، همست لنفسها لتوقظها من شرودها وهي تسير خلفه
بخطوات ليست واثقة لكنها مُصممة، صادقة:

- سأتبعه...

لكنَّ الريح في البستان تغيَّرت نبرتها؛ لم تعد النسمة الرطبة التي
تداعب الأوراق، بل هبت بصفيرٍ حاد، يحمل في طيّاته نذيراً غامضاً.

وفي تلك اللحظة، انفتح الباب الداخلي للقصر على مصراعيه، فانشقَّ المشهد عن حارسين ضخمين يقفان كتمثالين من ليلٍ متجسد، يكتسيان ملابس حربية سوداء قاتمة، تتدلى منها شرائط من الجلد اليابس.

كانت خوذتهما الحديديتان تخفيان جلَّ ملامحهما، سوى عينيْن جامدتين، باردتين بلا حياة!

البهو الرخامي الفسيح، والفارغ إلا من مقعد وثير ضخم هناك عند المدفأة الخامدة، التي تراكم الرماد بجوفها منذ زمن، يقابله طاولة مستديرة، تبدو ثقيلة للغاية يعلوها رقعة شطرنج مُبعثرة الأحجار، كأنما واجهت وحدها خاسراً كبيراً لم يرضَ بالهزيمة، فأطاح بها وبالقطع التي يبدو أنها تمردت عليه!

الأعمدة الملساء تعكس رنين خطواتهم، الجدران مزدانة بنقوش تملأها النجوم والأعين المفتوحة!

اقترب جلال ببطء، حتى وقف أمام الطاولة فلمسها بتدقيق، والتقطت عيناه البیدق ساقطاً أرضاً منكفاً، انحنى يسحبه بين أنامله، وللحظة شعر بالمياه تتدفق بداخل فمه، فشقق وهو يتراجع للخلف، مما جعل خديجة تُسرع نحوه، نظر إليها بدهشة وقد عادت أنفاسه تنتظم، يشير برأسه أن لا شيء!

- الحاكم في انتظارك.

غمغم العجوز، بينما يتقدمهما في تودة يمنحهما كل الوقت اللازم، قبل أن يتبعاه في صمت شارد لعدة خطوات، حتى بلغا نهاية الرواق الفسيح، وظهر درج ينحدر إلى الأسفل بنعومة دون تعب لمدى قرب المسافة بين كل سلمة وأخرى.

كان في استقبالهم ممر معلقة على جانبيه المشاعل المتوهجة،
والتي تمنحه رهبة خفية جعلت الخوف يتسلل إلى قلب خديجة عنوة،
هذا طريق نهايته قيود وأصفاد لا لقاء حاكم!

تساءلت بما يعتمل بداخلها بهمس سمعه زوجها:

- كيف يسكن الحاكم هنا؟ دعنا نعد يا جلال الدين.

قال العجوز على الفور:

- ستنتظرين مولانا هنا حتى يعود، هو فقط المسموح له ببقاء
الحاكم.

تمسك جلال الدين بها يضمها بحماية، وتوقف عن السير قاطعاً كل
كلام سيُقال:

- لن أتركها وحدها.

توقف العجوز مستديراً نحوهما، شارحاً ما لم يفهماه بعد:

- في نهاية الممر تقطن غرفة الحاكم، إنه منذ عام كامل لا يقابل
أحدًا على الإطلاق، لأسباب ستعرفانها فيما بعد... ما كان لأحد أن
يدلف إليه إلا صاحب النبوءة فقط!

قال جلال الدين بنفاد صبر وقد أوشك على التراجع بها:

- لست مضطراً إلى ترك زوجتي وحدها لأي سبب كان.

نهاية الممر كانت وشيكة، الأجواء خانقة، ودبيب الخوف صار طبولاً
ضاربة، عندما سمعا صوتاً يأتي من داخل الغرفة المقصودة، صوتاً
كصدى طرق على حديد صدئ، أجش، مُشوه، لا يشبه أصوات البشر،
ولا حتى شيطان... قال:

- تقدم وحدك ولا تخف.

خفت ضوء المشاعل، كأن شيئاً ما قد ابتلع الضوء، كأن الريح مرت
عبر كهف مفتوح منذ أول لعنة على الأرض! حتى العجوز تراجع خطوة،
يبدو ظهره انحنى أكثر مما كان، والعصا في يده ترجف وهو يهمس:
- إن كنتَ تخشى عليها... تقدم وحدك.

لا يبدو الأمر اختياريًا، لقد خشي عليها من مجرد الصوت، فكيف
بصاحبه القابع بالظلام! أما هي، فقد جمعت ذراعيها حولها تحتضن
ارتجاف قلبها، وتودعه بعينيها. قديمًا كانت لا تخشى عليه من السحر،
أما الآن فقد حدث شيء ما، لقد أكل من الشجرة، ويبدو أن الثمرة الأولى
قد انتزعت منه خياراته، وفرضت عليه خوض كل هذا الخوف.



telegram @
yasmeenbook

الفصل الثاني

الجبيل

اعتاد عمار وأنس أن يتخذا طرقًا فرعية نحو المدرسة القديمة، التي لم يتركها الناس على حالها كذكرى بعيدة لنور قد أطفأه الأسياد، فبعد أن تهدمت بيوتهم أخذوا ما استطاعوا من خشبها وأبوابها، حتى المقاعد الطويلة التي طالما جلسوا عليها صارت أثرًا باقيًا في ذاكرتهم لا أكثر، الجدران وحدها بقيت عارية، ملساء باردة، تتجاوب مع أصواتهم بصدى غريب كأنها تذكرهم بالخواء.

حين دفع عمار الباب الصدئ الذي أصدر صريرًا غليظًا مزعجًا، استقبله هو ورفيقه المشهد المألوف رغم كل شيء؛ يحيى جالس على حجر وضعوه كبديل لمقعد، يحرك الحصى أمامه المرصوص أرضًا في صفوف تنتهي عند العدد مئة.

صالح وياسين عن يمينه ويساره وقد بدا أنهما قد انتهيا للتو من أورادهما.

رفع صالح رأسه بمجرد أن لمحهما يدخلان تباغًا، وقال مبتسمًا:

- تأخرتما كالعادة.

أجاب عمار وهو يضع نفسه بينهم هو وأنس على الأرض، حيث افترشوا قطعة قماش قديمة:

- من قال لكم إن المجلس يكتمل من دوننا؟

ضحكوا، ضحكة قصيرة لكنها أثارت فيهم شيئاً من الدفء وسط برودة المكان، يعرفون أن المدرسة لم تعد مدرسة منذ غياب معلمهم، بل مجرد أطلال، لكنها بالنسبة لهم ما تزال ملاذاً لا ينتزع.

ابتسم صالح ولكن عينيه ظللتا محتفظتين بحزنهما، قال مماًزحاً:

- أتذكر يا عمار حينما كان يسحب يحيى المقعد عند جلوسك فتقع.
بادله عمار الابتسام وشاركه الذكرى وقال وهو يحك رأسه:

- المقعد نفسه سرقوه...

تبادلوا الابتسام، ثم ساد صمت ثقيل، قطعه يحيى وهو يغمغم وعيناه لا تفارقان النافذة الخربة:

- ما ذهب كان أهون مما هو آتٍ.

- هل أتممت وردك يا عمار أنت وأنس؟

قالها ياسين وهو يشير لهم أن يقتربوا من بعضهم البعض قليلاً؛
لُيغلِقوا الدائرة أكثر ويخفِضوا أصواتهم، همهم أنس بخفوت:

- نعم فعلنا قبل أن نخرج من الدار.

نظر ياسين نحو عمار وقال بجدية:

- لقد اتفقنا فيما بيننا قبل حضورك أن في زيارتك القادمة للقبيلة...
سنكون معك.

تغضنت ملامح عمار رفضاً، وقال على الفور:

- تكلمنا في هذا الموضوع كثيراً يا ياسين... وأنهيناها.

رد ياسين موضحًا، وقد بدا صوته متهدجًا لكنه ثابت:

- لن نذهب معك إلى القبيلة؛ إن كنت تخشى لفت الأنظار... نحن فقط نريد الجبل.

أضاف صالح وهو يقترب مؤكدًا بهدوء:

- هذا الجبل يريدنا أن نكتشف أسرارهِ التي يخبئها، وإلا لما دلك العقاب على البئر، ثم الكهف.

كان أنس يحرك حصى بين يديه ينقلها من اليمنى إلى اليسرى والعكس، ويقول بتفكير:

- أنا أؤيدهم، من المستحيل أن يكون ما حدث معك عبثًا.

أخذ عمار نفسًا عميقًا، ثم قال ببطء كأنه يزن كل كلمة:

- لقد هددتني كبيرتهم يا رفاق، سيعتقدون أنني قد كشفت سرهم... لا أستطيع توقع ردة فعلهم حينها!

مسح يحيى على رأسه كعادته حين تتملكه فكرة لا يعرف الفكاك منها، وقال:

- نحن نؤمن أن ما يحدث معك له معنى، وهذا يكفينا لنكون جزءًا منه... أيًا كانت المخاطر.

ظل عمار صامتًا، عيناه تنتقلان بينهم، كأنه يفتش عن شيء يمنحه اليقين، مرور يده على وجهه وقال بنبرة متعبة:

- أخشى أن تدفعوا ثمنًا لا طاقة لكم به...

ابتسم صالح ابتسامة خفيفة، وهو يهز رأسه، يتبادل النظرات مع أنس المتحفز بشغف وقال:

- وهل نحن في أمان هنا يا عمار! في كل مرة نحاول دعوة الناس لترك طقوس عابد، نُهدد بكشف أمرنا، ونهايتنا معروفة، ضربة سيف وينتهي كل شيء.

أطرق عمار برهة مفكرًا، يخاف أن يفقدهم، إنهم كل ما تبقى له في هذه الحياة، لقد فكر بالفعل للعودة للجبل، ولكنه لم يخطط بأن يصطحبهم معه.

قرأ يحيى بسهولة ما يدور بداخله، ملامحه المتغضنة تشي بمعركة طاحنة في صدره، لكنه لا يعرف أنهم اتخذوا هذا القرار ليس فقط لمعرفة السر الساكن في الجبل، ولكن لحمايته، فإن لما يفعلوه ثمنًا... فلماذا يدفعه وحده؟!

سمعوا زفرة حارة تغادر صدره أخيرًا، ثم قال مستسلمًا:

- ما الذي تفكرون فيه إذن؟ لا يكفي أن نذهب هكذا بلا خطة.

أجاب ياسين بثقة وهو يشبك يديه:

- أولًا، نحدد الموضع الذي ظهر لك فيه العُقاب، والطريق الذي سحبك منه إلى البئر، سنرسم الطريق على رقعة...

قال أنس، وهو لا يزال يعبث بالحصى بين كفيه:

- ونحمل معنا بعض الزاد تحسبًا لأي طارئ.

أضاف صالح بصوت منخفض، كأنه يكشف سرًا:

- وحبال ومصابيح، نريد أن نفهم سر هذه البئر بأي طريقة كانت.

ظل عمار صامتًا لحظة يستمع إليهم ثم قال بحذر:

- حسنًا... أماننا أيام قليلة نعد فيها ما نحتاج، وأدعو الله ألا نجرّ على أنفسنا ما لا طاقة لنا به.

ابتسم ياسين ابتسامة جادة وهو يضع يده على كتف عمار:

- إن كان الباب سيفتح لا محالة، فليُفتح ونحن معًا.

لمعت عينا أنس بذكرى حضرت في عقله فلم يصبر عليها كعادته وقال بنبرة حماسية:

- ولماذا لا نفتح نحن... أم أنك نسيت ما فعلناه حتى قبل أن نتوقف الأمطار وكنا مجرد صبية وقتها؟

ابتسم عمار وهو يدرك ما يقصده، تلك الليلة التي تسللوا فيها خلصةً من الباب الخلفي لقصر صقر القاسم، حيث كان مالك يخبئ المؤونة في القبو قبل الغرق، وحين أعلن الحاكم بعد غرق القارب أن القصر وغابته قد صارا ملكًا له، وأنه سيبيعهما لرجلٍ من -السادة الجدد- القادمين إلى الجزيرة.

اشتعل في صدورهم الغضب، ولم يحتملوا فكرة أن يمدَّ الحاكم يده إلى رزقٍ جمعه بسواعدهم خلال عام كامل بصحبة مالك.

ووضع يحيى خطته المحكمة، وببراعةٍ تسلَّلوا كما علَّمهم مالك، دخلوا، نالوا ما أرادوا، وخرجوا دون أن يشعر بهم أحد.

قال عمار مبتسمًا وهو يلتفت إلى أنس:

- كان حجمك يومها يسمح لك بالاختباء داخل جوال طحين!

تبادلوا الابتسامات، والذكرى تمرُّ بينهم كنسمةٍ دافئة، تبتُّ في أرواحهم حماسة المغامرة من جديد، ولكن هذه المرة في قلب الجبل.

في تلك اللحظة، هبَّت ريح باردة عبر النافذة العتيقة، فأصدرت صفيرًا خافتًا تسللت إلى أعماقهم كأن الريح ذاتها جاءت تحمل خبر معركة لم تبدأ بعد.

التقت العيون في صمت، حتى بدا أن ما يجمعهم صار أثقل من الكلام، عهد لا يحتاج إلى قسم، ولا يترك لصاحبه مخرجًا.

كانت سوق داو هذا الصباح رمادية خانقة، يغلي بالضجر لا بالحياة.
دخل ياسين عبر زقاقه الجنوبي، يتلفت بين الدكاكين المتهالكة التي
لا يملؤها إلا الغبار ورائحة الدخان.

الخضراوات قليلة، ذابلة كأنها نُزعت من تربتها عنوة، أما الأكياس
فملائة بالعدس والطحين، تُعرض بفتورٍ على أمل أن يشتريها من لا
يملك سواها.

كان ياسين يمر ببطء، عيناه تتفحصان الوجوه بقلقي، يريد أن يلقاها
لمرة قبل أن يغادر إلى الجبل.

وأخيرًا لمحها عند باب دكانٍ صغير، يقف أمامه بائعٌ يرصُّ أجولة
الطحين.

لم تشعر به في البداية، حتى ناداها بصوتٍ منخفضٍ خافتٍ كالدعاء:
- صفية!

التفتت، عينان متعبتان من السهر والخوف، لكن ما إن رآته حتى
تهدجت أنفاسها، كأن الغبار المتناثر صار خفيفًا فجأة.
قالت بلهفةٍ مكتومة:

- ياسين.

نظرت حولها بحذر، ثم همست بسرعة:

- هل نذهب من هنا؟

أومأ ياسين دون كلمة مصطحبًا إيّاها بعيدًا عن سمع صاحب الدكان،
ثم قال بعتب:

- ما هذا الوشاح يا صفية... أين حجابك؟

قالت بخجل وهي تفرك كفيها دون أن تكف عن الالتفات:

- أُمي يا ياسين... إنها كما تعلم...

كلماتها كانت متعثرة مُرتبكة، لكنه فهم ما وراءها.

زوجة عمه غاضبة منه على الدوام، من كلامه حول التمثال وما يُقدَّم له من ذبائح، ومنذ وفاة عمه، ازداد غضبها وتصلُّبها، كأنها تخبئ وحدتها وخوفها من الناس في ثوب عنفوانٍ رافضٍ لكل شيءٍ قد يجرُّ عليها المتاعب، هي وابنتها الوحيدة.

حتى ما هو مباح، كغطاء الرأس، تخشاه، وتُفضل أن ترتدي صفيحة مثل باقي فتيات داو، بلا تميزٍ ولا شبهة.

قال وهو يتنهد بأسى:

- بهذه الطريقة لن أفلح في حمايتكِ يا صفية.

ثم تابع بصوت متهدج وقد اشتعل قلقه عليها:

- من الواضح أنكِ ما زلتِ تعانين الأرق!

أومأت برأسها وهمست:

- الكوابيس تهاجمني ليل نهار كما حكيت لك المرة السابقة... فلا أستطيع النوم إلا دقائق متفرقة.

نظر إليها طويلاً، يحاول أن يخفي اضطرابه خلف نبرة هادئة:

- لماذا لا تحصنين نفسك كما علمتك قبل أن تنامي؟!

ترددت، ثم تمتمت بنبرة مرتعشة خافتة:

- أنتَ لا تعلم كيف تغيرت أُمي يا ياسين... إنها تراقبني على الدوام... حتى التمتمة تسألني عنها وتمنعني منها... لا أستطيع أن أتوضأ أو أصلي أمامها... إنها مرتعبة طيلة الوقت وتقسم أن أفكارنا مُراقبة!

كلماتها صفعت شيئاً دفيناً في صدره، كأنها أيقظت وجعاً كان نائماً منذ خمس سنوات، ليست أمها وحدها التي أصابها هوس الخوف من كل شيء، الهواء نفسه في داو صار يخاف أن يتحرَّك بلا إذن. وفجأة، اخترق السكون نداءً أجش من خلفهم:

- صفية... لماذا تقفين معه؟

كانت أمها تقف غير بعيد، عيناها تقدحان شرراً، وملامحها متيبسة من الغضب والهلع معاً، تحمل سلة نصف ملانة بالعدس، تترنح يدها من شدة الارتجاف.

- كم مرة نبهتكِ ألا تتحدثي معه؟!

كانت تتحدث وهي تقترب بخطوات سريعة، وتمسك بمرفقها بقوة، ثم التفتت إلى ياسين، حدّقت إليه طويلاً بنظرة تجمع الاشمئزاز والريبة: - وأنت... ألا تخجل؟ لقد أخبرتك مراراً أنها لم تعد خطيبتك... لكنك لا تتوقف عن بث سمومك برأسها... ستجلب علينا الهلاك.

حاول ياسين أن يتمالك صوته وهو يقول بهدوءٍ متماسكٍ كأنما يقاتل ارتعاش قلبه وهو يرى ارتجاف صفية وهي تتلفت خوفاً من أن يستمع إليهم المارة:

- لو كان هذا الخوف لله، يا زوجة عمي، لما آل بنا الحال إلى ما نحن فيه...

أومأت المرأة بوجه شاحب، ثم اندفعت تقول بصوت مبحوح متقطع: - لا تتلاعب بالكلام معي أيضاً، ومهما قلت فلن أدعك تفسد عقلها بكلامك عن تمثال مولانا!

ابتسم ياسين ابتسامة ساخرة حزينة، وأطرق برأسه يحركها بيأس كمن جُرّب معه الجدال ألف مرة.

خمس سنواتٍ وهو يعيد ويكرّر أن مولا هم هذا ما هو إلا أستاذهم، جلال الدين، الذي ضحّى بنفسه وخرج من مخبئه في القصر حين علم بأمر التمثال لينهاهم عنه.

لكن «عابد» جعلهم يرمونه وهو يصرخ في وجوههم أنه شيطانٌ متجسّدٌ في صورة جلال الدين، وأن جلال الدين الحقيقي قد ذهب في رحلةٍ إلى الرب، وسيعود ليخلّصهم من آثامهم، ويقودهم إلى النعيم! رفع رأسه إليها، في عينيه مزيج من الألم والمرارة، وقبل أن يتكلم رآها تتنفس بعسرٍ، كأن الهواء يخنقها وتقول:

- لا أريد الجدل... دعنا وشأننا.

ثم أمسكت بيد صفية بعصبيةٍ، تسحبها من أمامه وهي تهمس دون أن تنظر إليه:

- لا تتعرض لابنتي مجددًا... وإلا شكوتك.

وقف ياسين مكانه، يراقب ابتعادهما، وشيء ما في صدره كان يغلي بصمتٍ، الريح مرت حاملةً معها رائحةً قديمة، رائحة اليوم الذي رُجم فيه الرجل الذي حاول أن يقول الحقيقة.

تفاجأ نصر الراوي بزيارة لم تخطر له على بال، مستحيلة حتى في الخيال، حتى بعد أن أدخلهم المضيف مرحبًا وجلس بينهم ينتظر التعرف على سبب الزيارة الغريبة، يترقب ما وراء وجوههم التي لا تبشر بخير.

الشيخ سليمان ومعه ثلّة من كبار العائلات، جميعهم أبناء عمومته عبر أجيال متعاقبة، يبدو كأن عقاد المجالس قديماً، لولا غياب البعض، وعلى رأسهم الشيخ فاضل صهر خاطر بن آصف.

تبادلوا معه عبارات المجاملة والاطمئنان على أحواله هو والحاجة وسيلة، وبعد أن وُضعت أكواب الشاي بين أياديهم، تولى الشيخ سليمان زمام المبادرة وقال مُقرّاً:

- اسمع يا شيخ نصر... كل ابن آدم خطّاء... ونحن أخطأنا في حقك وحق ابنتك.

غدا الصمت أبلغ من كل الأصوات، وأشدّ وقعاً من الضجيج.

شعر نصر بأن صحته رُدّت إليه دفعة واحدة، انسكبت الحياة في عروقه مجدداً، فاستقام ظهره باعتداد، وشدت قبضته على رأس عصاته كمن يستحضر هيبة أصحابها القدامى، أكل هذا يحدث لمجرد عبارة واحدة؟

لهذه الدرجة رد المظالم شفاءً للسقم، قوة للظهر... ضوءٌ يتدفق في الأوردة!

وكعادة نصر يسكت كثيراً بتأنٍ ليُربك من يتكلم، ويجعله يفرغ كل ما في جعبته دون مجهود يذكر، لم يعلق واكتفى بنظرات ثابتة في انتظار المزيد، ولم يتأخروا، قال الشيخ سليمان معترفاً:

- نريد أن نُعيدك إلى مشيخة قبيلة الرواة.

ارتفعت العيون تلومه، لقد اتفقوا أن يطلبوا السماح منه أولاً حتى يرضى، لكن يبدو أن سليمان قد أربكته روح الهيبة التي احتلت عيني نصر وتقاسيمه للتو.

نطق الشيخ الجالس عن يمينه محاولاً إعادة الخطة لمسارها، قال:

- بدايةً نطلب السماح منك لما بدر مِنَّا... نعلم أن الوجيعة فادحة... لكن مجلس الراوي الكبير لا يرد ضيوفه.
- يبدو أنكم قد نسيتم أنكم قد استوليتم على بيت المشيخة ومجلسها الذي لا يرد ضيوفه يا شيخ.
- سنرد لك كل ما أخذ منك.
- موافق بشرط.

تسارعت أنفاسهم في انتظار ما سيقول، اشتعلت النيران في نظراته وقال ونبرته بدت لهم كالهسيس:

- تضعون أيديكم في البحيرة وتُخرجون منها ابنتي وابن أخي أحياء يرزقون.

سرت رجفة في صدورهم، وظهرت جليلة على صوت سليمان الذي راودته نفسه ليغيب وجهه عنه خجلاً في تلك اللحظة وغمغم:

- صدقني لو كان بيدنا لفديناهما بأبنائنا... لكن ما فات فات يا شيخ نصر.

نهض نصر بعزم وقد اكتفى، وقبل أن يطردهم، وقد تملك الغضب محياه، ضرب سليمان الأرض بعصاه يوقفه وقال هاتفاً:

- وهل ترضى الهوان والمذلة لقبيلتك يا ابن الراوي؟

تسلل الرضا بين جنباته، ابتسامة ساخرة رسمت ظلها على وجهه دون عينية:

- ادفعوا له إذن الجباية... وإلا لضحيتم بأبنائكم حقاً.

لمعت أعين كبار المجلس بإدراك، لقد انتشر أمر الضرائب هم يعرفون ذلك، لكن نصر لا يقصد الضرائب فقط، نصر يعرف بتهديد خاطر لهم بالبارود!

قال الشيخ سليمان متسائلاً، وقد فهم ما وصل إليهم للتو من معنى خاصةً وملامح نصر تشي بذلك:

- كيف عرفت بتهديده لنا؟!

لقد أحب نصر ما يفعله بهم للغاية، جلس باسترخاء واضحاً كلتا يديه فوق بعضهما بعضاً على رأس العصا وقال بهدوء:

- كلنا في المجلس كنا نعلم أن البارود عنده، ولا أرى سبباً لقدمكم اليوم... إلا لأنه وضعكم بين المطرقة والسندان.

ونظر في أعينهم بثبات، وقال عارفاً بما يدور في عقولهم:

- ولأنكم لم تستطيعوا مجابته قررتم البحث عن كبش فداء.

ساد الصمت وجلس سليمان وقد نفذت حيله، لقد ظنوا أن نصر قد فقد صفات الذئب التي كانوا يعرفونها فيه، لكن يبدو أنه يوشك أن يستعيد غرائزه ويبدأ بالتهامهم.

تقدم نحوه حتى جلس بجواره، مال نحوه مقترباً ليشرح موقفهم:

- لقد جئنا إليك لأنك ابن عمومنا الأقرب... وما ستطلبه لإثبات حسن نيتنا سنفعله ولو على رقابنا.

أوماً نصر موافقاً وهو يحرك رأسه قائلاً:

- حسناً... لدي طلب واحد.

وعندما أرهفوا السمع، كأن على رؤوسهم الطير قال ببطء مقصود:

- تجمعون الناس في السوق... وتقرن بخطئكم في حق ابنتي وزوجها.

سارت الهمهمات الراضية بينهم، وتسلفت رائحة البخور من النافذة المواربة حتى أن أعينهم دمعت من قوتها رغماً عنهم.

ابتلع سليمان ريقه وقد أوشك على الانحناء وهو يميل نحو نصر:
- هذا لم يحدث في القبيلة قط يا شيخ نصر... إنه يخالف قوانيننا
التي...

قاطع نصر ناهضاً وهو يعلم أنهم لن يفعلوا، وقال:

- انتهى الحديث يا شيخ سليمان... أستمحيكم عذراً.

توجه نحو الباب ومع كل خطوة يخطوها يضرب الأرض بعصاه،
ضربته الأخيرة على الأرض بدت كأنها أيقظت أرواح الأسلاف من سباتها.

لحق به الشيخ سليمان عند العتبة... صوته متهدج لكنه مصمم:

- سنأتيك ثانية يا شيخ نصر ولن نياس.

غادر نصر بابتسامة ذئب استعداد أنيابه، وترك خلفه وقع عصاه
يتردد في المكان، يذكّرهم بأن للغدر ظلاً لن تُمحي.

كان على علم بأنها في إحدى لحظاتها النادرة، تلك التي يعود إليها
فيها رشداه وتفيق؛ قد أنبأه بخورها الذي تطلقه بغزارة وامتلات به
حجرة المجلس.

- أُمي.

ناداها بحنو وهو يدخل حجرتها ويشاهدها وهي تجلس على طرف
فراشها، فقط تحاول تحريك كاحليها كأقصى ما تستطيع.

ابتسمت دون أن تلتفت، جلّ تركيزها النادر كان منصباً على المبخرة
الفخارية الأثيرة التي تضعها جوار فراشها، وتستخدمها كلما عاد إليها
رشداه ولو قليلاً:

- تعال يا نصر.

انضم إليها جالسًا على طرف الفراش يطمئن على صحتها ويتسامر معها قليلًا قبل أن تشرد مجددًا، لحظات نادرة لن يفهمها إلا من يُحرم منها...

سعل نصر مرات متتالية محاربًا الدخان الكثيف ومدهوشًا من عدم تأثرها به!

سألته بصوت واهن:

- أين كنت؟

- كنت في مجلس الرجال.

كانت تحرك دخان البخور بكفها وتحديثه، كأنها لم تدخل في غيبوبة قط.

أما هو فقد احمرَّ وجهه من كثرة السعال، نهض وحاول فتح ولو فُرجة بسيطة من النافذة ليتنفس.

وقف جوار النافذة يعبئ رئتيه بالهواء النقي، فتضحك هي وتعلق بنبرة متهدجة:

- أنتَ مثل أبيك لا تتحمل بخوري الثقيل... أما شمس...

نظر إليها عاجزًا، لقد ظنها تحسنت لكن يبدو أن حالتها المتقلبة لا تزال تشرق وتغرب كقرص الشمس الذي تحبه، ولأجله أصرت على أن تسمي أكبر أولادها شمس الدين.

- أين ولده الوقح؟

ارتفع حاجبا نصر الراوي، مشاعره تتداخل دومًا وهو يجالس أمه، فهي تتلاعب به كريشة في مهب الريح، تخلط السعادة بالحزن والابتسامة بالدموع، خلطة سرية لا يتذوقها إلا من عايش حالة الحاجة

وسيلة، لكنهم منذ زمن اتفقوا بلا كلمات ألا ينقلوا إليها أخبارًا سيئة، وكل ما يفعلوه أن يهادنوها حتى تنسى.

- هو مع زوجته يا أمي.

- خديجة!

قالتا بتساؤل وهي تنظر حولها باحثة عن أحدهم، فاقترب منها محاولاً معرفة ماذا تريد كي لا تتعب.

- خديجة ليست هنا يا أمي... أخبرتك أنها مع زوجها.

لقد قاوم، قاوم بشدة حتى لا تشعر بذاك الفقد في صوته.

رفعت عينيها إليه تراقب تعابيريه، وأشارت له ليجلس بجوارها ففعل بهدوء.

مالت نحوه وقال هامسة:

- أخبرك سرًا.

أومأ، وأنصت مهتمًا فأخفضت صوتها أكثر، وقالت بخبث:

- لقد رأيته يقبل رأس ابنتك عند المرأة.

- أماه!

التفت نحوها بدهشة هاتفاً، إنه بالكاد يحافظ على عقله في تلك القبيلة بينما أمه لا تساعد على الإطلاق! أضحك الآن أم يبكي! تعجب من نفسه وقد استشاطت غيخته غضبًا، وصوت بداخله يتوعد جلال الدين... لو عاد!

ما هذا الجنون!

أخرجته من تلاطم مشاعره وعادت تهمس:

- هل وضعت طفلها الأول؟

كان ينظر إليها وقد قرر ألا يتفاعل معها حتى لا يُجن وأجاب:
- لا.

انشرح وجهها وقالت تحذره:

- حين يأتي موعد الولادة... لا تجعل عابد يأتي بالقابلة عكرة الوجه
التي سحرت ابن شمس.

عقد نصر حاجبيه وهو يذكر نفسه بطبيعة أمه التي تخلط الذكريات
بالحاضر، نهض ووقف أمام النافذة مجددًا، أمه لم تكن يومًا مخرفة،
هي فقط تخلط الذكريات لكنها لا تصطنعها، ولا تتكلم بما لم تعايشه
بالفعل.

خفت دخان البخور وتسرب كله للخارج، لكن نصر اقترب منها،
وقف قبالتها وانحنى قليلًا متكئًا على عصاه وسألها باهتمام:
- كيف سحرته؟!

اتسعت عيناها، وظلت تدور بين أركان الحجرة، وارتعش صوتها
خوفًا:

- لقد أخبرتكم أنها جرحت إصبع قدمه... ومسحت دمه في
وشاحها... حاولت منعها... نفثت في وجهي... وسقطت مريضة.
- لا تخافي يا أماه ربما جُرح دون قصد وهي مسحت الدم فقط.
- لا.

حركت رأسها نفيًا، ورفعت كلتا يديها تتشبث بجلبابه وقد زاغت
نظراتها:

- زوجة شمس ولدي كانت مسحورة... سحرتها القابلة، أنا... أنا
رأيت الوشم على سُرتها.

أمسك يديها لتهداً، لكنها نفضت يديه، واستندت إلى ظهر فراشها وهي تهذي وترتعش:

- لقد أقعدوني... لأنني عرفت.

مسح على رأسها وأخذ يطمئننها بذكر الله حتى أسبلت جفنيها، واستسلمت لسباتها، لا يعرف طريقة أخرى لتهداً وتنام، لقد اقشعر جسده وهو يسمعها، فظل واقفاً عند النافذة يتأمل كيف يتلاشى الدخان إلى الخارج، تاركاً قلبه مُعلقاً بسؤال شارد يطرق رأسه؛ هل تفاقمت حالة أمه وباتت تتوهم أم تخبره بحقيقة مرعبة؟

الليل في أنفاسه الأخيرة، والظلام ينسحب ببطء أمام شحوب الفجر. تحركوا متفرقين كما خططوا، كأنهم ظلال هاربة بين طرقات داو النائمة، يجمعهم الاتفاق على اللقاء عند أطراف الجبل.

كان لا بد أن يمروا من خلف بيت سلطان صخر العاصي، آخر ساحر بالجزيرة، ذاك الذي انتهى به السحر عند قمة جبل داو ساقطاً من هناك، قبل أن تتم خطة الحاكم، ويحاول المارد قضم رأسه!

لقد هُدم البيت في العاصفة، بعد أن حرقته الأسياذ ليعاقبوه، والتهمت النيران ولديه بالداخل.

لم يرفع أحدهم الركام المتفحم كأنهم تركوه شاهداً حياً، وذكرى مخيفة لكل من تُسَوَّل له نفسه تحدي الأسياذ مرة أخرى، كان بيت سلطان أقرب البيوت للغابة سابقاً والسور حالياً، لذا كان لزاماً عليهم أن يمروا به، مُحاذين السور حتى ينتهي، ويُطلُّ لهم طريق الجبال.

الرماد المتفحم ما زال يفوح منه رائحة خانقة رغم مرور السنين، كأن النار لم تنطفئ بعد، كأن مطر عام كامل لم يستطع تطهير دنسه.

الخطـة المتفق عليها أن ينتظر عمار عند الضفاف هو وأنس، ويتحركا من هناك وحدهما، ثم يلحق بهما يحيى وياسين وصالح، متفرقين من خلف بيت سلطان حتى لا تُرصد تحركاتهم، لقد أخذوا بكل الأسباب الممكنة حتى لا ينكشف أمرهم، ففي داو أي تجمعات خارج قصر الحاكم وساحة الطقوس والسوق تُرصد فوراً!

المشكلة أنهم حتى هذه اللحظة لا يعلمون تحديداً كيف يتم هذا الرصد، بل إن كل الشعائر التي علمهم إيّاها جلال الدين في الماضي كل ما يعلمون عنها أنها لحمايتهم من هذا الرصد، ولكن كيف يفعل الحاكم ذلك، خاصةً بعد إعلان سقوط السحر والشياطين، واستبدالهم بعباد وليلى والطقوس التي تُقدم مع كل اكتمال للقمر؟!

توقف ياسين فجأة، عندما بدت له الساحة من بعيد عن يسارهم، تلك الأرض المفتوحة المجهزة دوماً لاستقبال كل اللعنات. كان مرورهم بمحاذاة الساحة يشبه عبورهم على جرح مفتوح.

كل واحد منهم حاول أن يخفض رأسه، ويمرُّ سريعاً كأنه لا يرى، لكن العيون رغماً عنها، رفعت للحظة خاطفة نحو التمثال، كأن قوة خفية أجبرتهم على النظر، رفع ياسين رأسه نحوها، ففعل يحيى وصالح مثله، يظهر لهم من بين الظلمة جانب من التمثال الكبير، وأسفله أعمدة حجرية سوداء، يتصاعد منها دخان أزرق، ومن بينها وقفت امرأة ينسدل شعرها كسيل معتم، ترفع بين يديها مبخرة يتصاعد منها دخان أسود ملتفٌ حول جسدها.

لم تتكلم، ولم تلتفت، لكن الدخان انساب عبر الريح حتى لامس وجوههم، فشعر كل منهم أن اسمه نُطق في داخله بصوت أنثوي رخيم. انعقدت أنفاسهم... إنها ليلي.

لا ترتدي العباءة البيضاء التي تطوف بها داو مع عابد ليلاً بعد الغروب، والتي لم تعد تُرى سوى بها، والعمامة الخضراء التي لا تفارق رأسيهما أبداً، والمسبحة المعلقة حول عنق كلٍّ منهما.

يعرف سكان داو أنها باتت تابعة لعابد بعد نبذها لزوجها الساحر، وبعد أن كانت تستقبل الذين يأتون إلى بيت سلطان، وترتب لهم موعداً معه.

أصبحت تفعل الشيء نفسه ولكن مع عابد! عابد الطيب الذي أنقذهم من الشياطين، ورسم لهم طريقاً جديداً ينتهي بتمثال مولانا!

لأول مرة يرونها -وقد أوشك الليل أن يذوب في أول خيوط الفجر- ترتدي تلك العباءة الداكنة التي يركد ذيلها خلفها بسكون، كظلٍّ حي! مدَّ ياسين يديه ليقبض على ذراعَي يحيى وصالح، لكن صالح لم يتحرك، بينما كان وجيب قلب يحيى يرتفع، حتى شعر بالألم، وظهر ذلك على وجهه بوضوح.

لم يكن أمام ياسين في تلك اللحظة إلا أن يبدأ بالتمتمة بآية الكرسي، وظل يكررها حتى أطلق يحيى آهة متألماً، وتحرك صالح من وقفته المتجمدة أخيراً، مغمضاً عينيه.

جذبهما ياسين معه ليباعدوا، ويسيروا بخطوات واسعة، متمنياً ألا تكون ليلي قد كشفت أمرهم. مدرّكاً أن الخفاء الذي احتموا به لم يعد ملكهم وحدهم.

خطواتهم حذرة سريعة رغم تعثرهم بالحجارة المُبعثرة تحت أقدامهم خاصةً بعد أن انتهى السور، وتوغلوا أكثر في الصحراء حتى لآخ لهم الجبل الذهبي المائل للحمرة ينهض شامخاً ككتلة من الظلال، وعند سفحه، كان عمار وأنس في انتظارهم، لم يتبادلوا كلمة واحدة، فقط أنفاس متقطعة وصدى خطواتهم على الصخور.

اندفع عمار نحوهم مشحوناً بالقلق هاتفاً:

- لقد تأخرتم...!

تبادل الثلاثة النظرات، كان دخان ليلي الأسود ما زال عالقاً بأنوفهم، كأنه يتغلغل في صدورهم، حدق إليهم عمار، عيناه تنضح بالخوف الذي استشعره وهو يظن أن مكروهاً ما أصابهم.

تنحنح ياسين يجلي حلقه، وقال وهو يشير إلى الأفق:

- لندرك الفجر قبل أن ينقضي وقته.

اصطفوا خلف عمار بعد أن أقام أنس الصلاة بصوت خفيض، أيديهم ترتجف لكن أصواتهم حين نطقوا بالتكبير بدت أثقل من الجبل ذاته.

انسكبت تكبيرتهم الأولى في أرجاء الوادي، فردّت الصخور صداها كأنها تردّد معهم، ركعوا فشعروا جميعاً بأنهم مراقبون من الجهات الأربعة، خاصةً حينما هبت رياح تذر الرمال في أعينهم فأغمضوها على الفور.

عند السجدة الأخيرة سرت في الأرض رجفة خافتة بداخلهم، للمرة الأولى يسجدون في العراء، فقط الصخرة التي كان يجلس عمار فوقها تحمي ظهورهم، يقاتلون خيالهم ليمحوا منه صورة ليلي وهي تتمازج مع الدخان الأسود، وعند التسليمة الثانية دوى صوت أشبه بجرسٍ غائر في الأعماق، أعقبه هبوب رياح باردة مرت بينهم، تخللت ثيابهم

وأطفأت ما بقي من دفة، حين سلموا رفعوا رؤوسهم للأعلى حيث مصدر الصوت، لا شيء... تبادلوا النظرات وأشار لهم عمار أن يستندوا بظهورهم إلى الصخرة ففعلوا.

دقائق من الصمت يرددون بهمس الأذكار التي يحفظوها عن ظهر قلب، وعندما انتهوا همس صالح وهو يتلفت حوله:

- لقد رأينا ليلي عند الساحة...

نظر إليه عمار بدهشة متسائلًا:

- أين؟ هل حدثتكم؟

حرك رأسه نفيًا، وبدأ يثرثر محاولًا التخلص من التوتر الذي انتابه منذ رآها وحتى اللحظة، ويروي له تفاصيل ما شاهدوه مصادفة بالقرب من الساحة، وما حدث لهم! قاطعه عمار وصوته يشي بالضيق:

- ألم نتفق أن تتلوا آيات التحصين قبل أن تبلغوا بيت سلطان؟

أطرق يحيى خجلًا، لقد نسي تمامًا وانشغل بالتزام الطريق والمراقبة، ويبدو أن صالح كان شاردًا هو الآخر!

تدخل أنس محاولًا امتصاص حدة الموقف برفق:

- لا وقت للعتاب يا عمار... نريد أن نصعد الجبل بعد الشروق ولا يزال أمامنا ورد يجب أن ننهه... لن نصعد هكذا دون حماية.

لا أحد منهم جرؤ على الرد، فالصمتُ بدا أبلغ من أيّ تبرير، كانوا يعرفون أن في صدر عمار حربًا لا تهدأ، وأنّ الجبل بما ينتظرهم بقلب الجبل يلتهم أعصابه أكثر من أيّ مواجهة.

قصتهم بأكملها على المحك، وكل الاحتمالات تتنازعهم؛ إمّا السير حتى النهاية في طريقٍ مظلم لا رجوع منه، وإمّا البقاء يتخبّطون

ويختبئون إلى الأبد في مكانٍ أهلك فيه خيرةُ سكَّانه ولا يزال فاعراً فاه
لابتلاع المزيد.

ملاً عمار رثتيه بالهواء عميقاً، ثم قال بصوتٍ حازم:

- فلنتم وِردنا... لن نترك ثغرة يدخل منها ما نخشاه.

فأومأوا جميعاً، كأن كلماته أعادت إليهم بعض الثبات، واجتمعوا على
الصخرة ذاتها، يتلون ما يحفظونه بصوتٍ يعلو ويخفت مع ارتجاف
أنفاسهم، في حين الفجر يمدُّ خيوطه الشاحبة على الجبل، حتى إذا
ما ختموا أطبقت عليهم لحظةٌ من السكون العجيب، كأنَّ الجبل نفسه
أصغى إليهم.

فتح عمار عينيه ببطء، وحدَّق إلى القمة التي بدأ نور الشمس يزحف
نحوها، ثم نهض وقال بحزم:

- فلنتحرك وفقاً للطريق الذي رسمناه على الرقعة...

تنهد وهو يرقب كل موضع حوله قبل أن يتخذ خطواته الأولى قفزاً
بينما عيناه تبحث عنها؛ ابنة الجبل، والذي يتوقع أن تظهر أمامه في أي
لحظة فهي منتشرة في كل مكان كالحصى.

جمعوا ما تبقى من قوتهم، وما ألقوه على أكتافهم القوية، وتقدَّموا
خلفه خطوةً تلو أخرى، كان الطريق صعوداً يزداد وعورةً مع كل خطوة،
والرياح الباردة تلفح وجوههم برذاذٍ خفيف، كأنَّ الجبل يختبر صبرهم
قبل أن يأذن لهم بالمرور.

تحت أقدامهم تناثرت أحجار حادة تجرح الصمت، بينما صار
الصمت نفسه رفيقهم الوحيد، لم يبقَ في الأجواء سوى أنين أنفاسهم
المتقطعة، ووقع الحجارة المتدحرجة وهي تنحدر في الفراغ.

كانوا يحسبون خطواتهم بدقّة وبطء، وكلُّ منهم يستحضر في ذهنه معالم الصخور، وكلما توقفوا لالتقاط الأنفاس يُخرجون الرسم، ويتأكدون من أنهم في الطريق الصحيح لكن ما إن تجاوزوا عدة أمتار، حتى وجدوا أنفسهم فجأةً عند الصخرة ذاتها التي استندوا إليها قبل قليل، تجمّدوا في أماكنهم، والدهشة تتناوب على وجوههم.

همس صالح بذهول:

- هذا... نفس الموضع!

خفق قلب عمار في صدره، وانحنى يتفحص الأرض بعينين متوجّستين؛ لا أثر لخطاهم السابقة، كأنّ الجبل قد محاها عمداً.

قال أنس وهو يرمش متعجباً، محاولاً الفهم:

- لا يُعقل... لا يمكن أن نكون عدنا من حيث بدأنا.

ردّ ياسين بنبرة متوترة، وهو يتأمل الصخور محدقاً:

- نحن لم نغادر أصلاً... الجبل يعبث بنا.

شعر صالح بعرق بارد ينزلق على رقبتة، فشدّ على حقيبته القماشية المعلقة بكتفه، قطّب عمار جبينه، وبطرف قميصه أخذ يجفف عرقاً غزيراً انساب من منابت شعره، بينما كلمات المرأة العجوز تتردد بداخله تذكره بأن العقاب هو من أوصله إليهم، لكن ماذا يفعل الآن؟ هو تائه مثلهم بينما هم ينتظرون قراره بصفته قائدهم ولأنه توغل في الجبل من قبل، ورسم الطريق على الرقعة بمهارة، وأخيراً اتخذ قراراً لا بديل عنه، قال وصوته هذه المرّة خرج حادّاً قاطعاً:

- سنحاول من جديد... ولكن بتركيز أكبر.

أعادوا ترتيب خطواتهم هذه المرة بدقّة أشد، يتأكد كل واحد من موضع قدميه كأنهم يسرون فوق خيوط رفيعة، ولكن بعد أمتار قليلة أخرى عادوا ثانية للصخرة نفسها، ماثلة أمامهم كأنها تسخر منهم.

ضرب يحيى الأرض بقدمه بعنف وهو يلهث، فتناثرت حبات الحصى الصغير بين الصخور:

- نحن ندور في حلقة مفرغة.

ارتعشت أصابع صالح وهو يتمتم بالاستعاذة، ويشير إلى آثارهم التي تختفي:

- انظروا! آثارنا تُمحي وحدها!

انزلق ياسين جالسًا القرفصاء من شدة التعب وهو يغمغم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله... ماذا سنفعل!

ساد صمت ثقيل، قلوبهم تخفق بوجل، لن يستسلموا ويعودوا أدراجهم بهذه البساطة، كرروا المحاولة مرة ثالثة، ورابعة، وفي كل مرة النتيجة نفسها، يجدون أنفسهم عند نفس الصخرة التي بدأ من عندها كل شيء وأشعة الشمس أصبحت عمودية فوق رؤوسهم.

قال عمار بصوت مبحوح، وقد غمره اليأس:

- فلنعد...

جلس أنس القرفصاء كما فعل رفيقه، ثم تبعه صالح ويحيى، وأخيرًا عمار الذي أمسك بحبل حقيبته وفتحها متناولًا قارورة الماء، جرع منها القليل محافظًا على ما فيها من ماء، فعلوا مثله كأنه ذكرهم للتو بأن العطش قد استبدّ بهم وهم لا يشعرون.

تناول كل منهم كسرة خبز يابسة، وتراصوا عند الصخرة ليحتموا من أشعة الشمس، لم يكن قرارهم معلناً، لكنهم جميعاً استسلموا للسكون، كأنَّ الصمت صار ملجأهم الأخير!

انحنى رؤوسهم وحرارة الشمس تزداد قسوة، وأجسادهم مثنكة تلتصق بالصخرة كأنها صارت جزءاً منها.

- عمار...!

همس صالح وهو مغمض العينين، ولم ينتظر أن يجيبه، بلل شفثيه بلسانه وغمغم:

- ماذا لو كان كل هذا وهمًا؟ ربما لا يوجد عُقاب، ولا كهف، ولا عجائز، وكل ما مررت به في رحلتك لم يحدث أصلاً!

ارتفع جانب وجه يحيى بابتسامة ساخرة دون أن يفتح عينيه، وضحك أنس دون توقف حتى أوشك على الاختناق، مما أجبر ياسين على الضحك وهو يحرك رأسه مدهوشًا من غرابة الموقف وردود أفعالهم!

ضرب عمار أنس على رأسه بخفة ليكفَّ عن الضحك، سرت ريح باردة مُتسللة من بين الصخور رغم سخونة الجبل منحتهم شيئاً من المؤازرة.

وعندما هدأ أنس أخيراً قال مُقترحًا مازحًا:

- لنذهب إلى الشيخ نصر... ونسأله عن الوشاح، لو كان معه بالفعل، عرفنا أن عمار لم يكن يتوهم ونعد إلى الجبل مرة أخرى.

نظروا إليه جميعاً في نفس اللحظة، فوضع كفه على فمه معتذراً وقال يحيى بجدية مفكراً:

- لو كانت حساباتنا صحيحة، والعُقاب يريد أن يدلنا على شيء... فلماذا نتوه الآن؟

- التفت إليه ياسين وقد أدرك أن يحيى لا يسأل، وإنما كالعادة يناقشهم أفكاره للوصول إلى حل لهذا اللغز:
- ربما المقصود هو عمار فقط.
- عقب عمار مؤكداً:
- هذا ما أخبرتني به كبيرتهم... لقد أخبرتكم.
- قضم صالح كسرة خبز، وتساءل مُتبرماً وهو يلوكها بصعوبة:
- ولكن لماذا؟ هل لأنه كان أقربنا إلى الأستاذ؟!
- زم يحيى شفثيه وقال مُتبرماً يجاري نبرة صالح الساخرة:
- نعم، لذلك تخطاني وجعله القائد... كله بالوساطة!
- ابتسم عمار رغماً عنه والحنين يغزو قلبه وعينه، ويتحكم بنبرة صوته وهو يقول:
- لا تظلم الأستاذ... أنا من كنت مُلتصقاً به حيثما ذهب.
- أراح ياسين ذراعه على كتف يحيى وهو يميل نحوه، قائلاً بتأنيب مصطنع:
- وأنت آخر من يلوم على الوساطة.
- اندفع أنس كعادته يقول وهو يميل إلى الأمام في جلسته، يشير بإصبع الاتهام نحو يحيى مماًزحاً:
- لقد طلبت القيادة فقط لأن خالتك كانت زوجة الحاكم.
- أطرق يحيى باسمًا وهو يتمتم:
- رحمهما الله.
- تابع أنس بنفس الاندفاع متسائلاً:
- هل لا تزال تحتفظ بالريشة التي أهدتك إياها؟

أوماً يحيى خجلاً وهو يخرج حبلاً من الصوف ملتقاً حول رقبته كعقد، يتدلى منه ريشة كبيرة ذات لون نحاسي لامع أعادها داخل قميصه على الفور وهو يستمع إلى تعقيب عمار المتسائل:

- لماذا تُعلقها حول عنقك يا يحيى؟!

يحك ذقنه النابتة محاولاً إخفاء ارتباكها، رفع كتفيه وأخفضهما مُدعياً اللامبالاة:

- بالأمس جمعت كل أغراضي من المدرسة ولم أشأ أن أتركها هناك... من يدري متى سنعود من الجبل.

أغمض عينيه كأنه ينأى بنفسه عنهم، بينما الأفكار باتت كالسيل لا يستطيع إيقافها، شفتاه مطبقتان كخط رفيع قاسٍ لكن صفحة وجهه هادئة خالية من المعارك.

هذه الريشة هي آخر ما تبقى له من عائلته كلها، سمع الحكاية من أمه عشرات المرات حتى حفظها؛ خالته الكبرى جاءت لتزورهم بعد ولادتها له، وكانت قد انقطعت عن العائلة أشهر طويلة ولم تعد تخرج من القصر.

كانت تُرى فقط في نافذتها العلوية شاردة ساهمة، لا ترد النداء ولا حتى تلتفت كأنها في عالم آخر تماماً، حتى جاء اليوم وقَدِمَت لزيارة أختها الصغرى التي وضعت ولداً الأصغر يحيى، عندما قربته منها واحتضنته، هطلت دموعها غزيرة بصمت بينما نظراتها ذاهلة ضائعة، بكى يحيى بقوة، وأخذ يصرخ كأنما ينطق بما حُبِس في حلق خالته، وعندما حاولت أمه أخذه لترضعه وتهدهه، صرخت أختها بينما تقبض كف يحيى الصغيرة كالكلابة على خصلة من شعر خالته، فسقطت من بين ضفيرتها الغليظة ريشة نحاسية لامعة.

قالت له أمه إنها لم ترَ تلك الريشة من قبل بين خصلات أختها حتى أنها لم ترها عندما جلست قبالتها، وعندما حملت يحيى بين ذراعيها كأنها كانت مدفونة بجديلتها، ولا تعرف كيف التقطتها قبضة طفلها الرضيع وتشبث بها.

كل ما تعرفه أن أختها انتبعت فجأة وصرخت، ثم نظرت إليهم بذهول كأنها تراهم للمرة الأولى، دقت النظر فيها وفي يحيى وركزت نظرها على الريشة المستقرة بين أصابعه الصغيرة، كل ما قالته حينها «لا تدعيه يتركها»... ثم انصرفت مهرولة وانقطعت أخبارها ثانية، حتى شاع في داو خبر مرضها هي وزوجها حاكم داو، ولم يسمحوا لأحد بزيارتهم حتى خرج خبر موتها خارج جدران القصر، وأصبح للجزيرة حاكم جديد ولُقّب بعظيم داو.

صرخة جديدة شقت عنان السماء، وظل مهيب مرّ من فوق رؤوسهم بسرعة كبيرة ارتفعت له أعناقهم بخوف وهمّ عمار بوجل:

- العُقاب!

كانوا لا يزالون يتنفسون ثقل المحاولة الأخيرة، أجسادهم مُنهكة وعيونهم شاحبة، لكن الشرارة كانت في عينيّ عمار، كانت عيناه تشعان بوميض مختلف، خليط بين الإصرار والرغبة العميقة في ألا تنتهي رحلتهم هنا.

قال على الفور وهو ينهض محاولاً الحفاظ على انحناء خفيفة، مراقباً تحركات العُقاب:

- يريدنا أن نتبعه.

قال يحيى وهو يراقب بتحفز جناحي الطائر يمتدان في الأفق:

- هذه فرصتنا الأخيرة...

هز أنس رأسه يوافقهما بصمت، وشد صالح على قبضته، وثبت ياسين الحقيبة على كتفه وهو يُضيق عينيه يراقب الطائر متوجسًا، وتساءل:

- هل نبقى منخفضين أم ماذا؟

أشار لهم عمار بأن يتبعوه ففعلوا وقد اندفعت الدماء في أوردتهم، كأنهم لم يعانون العطش والتعب والتهيه منذ قليل، لم يكن الطريق الذي قادهم إليه العقاب طريقًا بالمعنى الذي يألفه البشر، بل متاهة متكسرة من صخور ذهبية داكنة بدت كأنها بقايا مخلوق حجري ضخم تحلل منذ دهور، نتوءاتها الحادة برزت مثل أنياب مُتربّصة، فيما كانت الأرض في بعض المواضع ملساء وزلقة، كأن سيولًا قديمة مرّت من هنا، ثم اختفت تاركة أثرها كجرحٍ قديم لم يلتئم.

شقوق الجبل كانت تتلوى حولهم، تتسع فجأة لتكشف عن هاويات سحيقة لا يرى قاعها، تهبُّ منها ريح حارٌّ لافح، كأنها أنفاس العالم السفلي تتصاعد لملاقاتهم.

كل بضع خطوات، كانت أعين عمار تقع على نباتات شوكية غريبة من بين الصخور، سيقانها رمادية، وأشواكها اللامعة تعكس وهج الشمس مثل خناجر صغيرة، الهواء يحمل صفيّرًا متقطعًا كأنين بعيد، حتى خيل لهم أن الجبل نفسه يئن، يراقبهم بعين خفية ويضيق عليهم الدرب.

أما العقاب، فكان سيد هذا الطريق؛ يهبط فجأة بجناحيه العريضين فيثير دوامات من الغبار تخنق الأنفاس وتلسع العيون، ثم يحلّق في حركة استفزازية، كأنه يختبر صبرهم، يجبرهم على ملاحقته خطوة بخطوة.

ومع كل منعطف يفصح الجبل عن ممر أضيق، حتى كاد عمار يلتصق بجدرانه الصخرية وهم خلفه يحذون حذوه يشعرون بأن

قلوبهم ستهبط فجأة بين أرجلهم، وعندما اختنقت أنفاسهم، وظنوا أنهم قد بلغوا نهاية مسدودة، تجلّى أمامهم منحنى ضيق.

فجأة هبت من داخله نسيمات باردة محمّلة برائحة طين قديم وماء راكد، كأنها إشارة سرّية تدلّهم على وجود البئر الذي وصفه لهم عمار من قبل.

البئر التي لم يكن الوصول إليها إلا بداية مواجهة أعظم.

وحين توغلوا في الممر الضيق، شعروا بأنهم قد تركوا العالم الذين يعرفوه خلف ظهورهم، ثقلت أنفاسهم وهم يراقبون العروق الحجرية المتدلية من الأعلى كأنها أنياب أسطورية، أما في الأسفل كان البئر، فُوّهة مظلمة كعينٍ عمياء تحدّق إلى الداخل إلى من يجرؤ على الاقتراب منها.

اقترب عمار بخطوات مترددة وهم في أثره، لم يروا ماءً، فقط ظلاماً كثيفاً لا يخترقه ضوء، يبتلع الشعاع القادم من نهاية الممر كأنما يرفضه. مدّ ياسين يده ليلمس الحجر، فإذا بالبرودة تتسرب إلى عروقه بسرعة غريبة تجمّد أصابعه وتبتّ في صدره رعشة لم يعرف لها سبباً. وقف العقاب عند نهاية الممر، هذه المرة لم يذهب، ظل واقفاً كأنه يخبرهم بأن هناك المزيد!

ركع عمار تجاه البئر، ففعلوا مثله والدهشة تلوكهم والشغف يطحنهم، حتى أطلوا برؤوسهم إلى الداخل بعيون متسعة.

- الماء يتدفق!

هتف عمار وهو يبالغ في الانحناء للأسفل، هو يعرف هذه العلامة، تدافع المياه للأعلى بهذه السرعة هي العلامة التي كان ينتظرها!

ثم انبثق من أعماق السواد تيار ماء يعلو ثم يندفع بعنف، متناثرًا
برذاذ بارد على وجوههم، أنس ارتجف، مسح الماء عن عينيه وقال
بدهشة:

- كأنه ينبوع...

يحيى مد يده بحذر، لكن جسده تراجع قليلًا أمام قوة الدفع قائلاً:

- شيء... شيء غريب يحدث هنا!

حدق صالح حوله بعينين متسعيتين، ثم همس مأخوذاً:

- لم أرَ شيئاً كهذا من قبل.

وفي قلب الدوامة، ظهر بريق معدني، يلمع وسط الماء كأن قوة غير
مرئية ترفعه إلى الأعلى.

- إنها قلادة!

قالها يحيى وهو يمد يده داخل البئر، ويحاول الوصول إليها
والإمساك بها بين أصابعه. كان ياسين متشبهاً بكتفه ظناً منه أنه يسقط
لشدة انحنائه.

تراجع يحيى للخلف وهو يحرك القلادة بين أصابعه، بينما يقترب
منه عمار الذي سحبها من بين أصابعه ببطء وأخذ يتأملها، سلسلة
نحاسية تتدلي منها قلادة تأخذ شكل عين كبيرة زرقاء.

اقترب أنس يلامس القلادة، قال محاولاً التذكر:

- لقد رأيت هذه القلادة العجيبة من قبل.

أوماً صالح وهو يتحسس العين:

- تبدو مألوفة لي أنا أيضاً.

همس عمار وقد لمعت عيناه متذكراً:

- قلادة سلام!

تبادل يحيى النظرات معهم، وأخذها مرة أخرى وهو يلامس جزءًا بارزًا على حواف العين وبدأ يحركه وهو يضغطة قائلًا:

- لو كانت هي...

وقبل أن يتم كلامه دارت العين بسهولة، وظهرت الوريقة الصغيرة المضغوطة بالداخل.

هتف أنس:

- إنها تخص سلام بالفعل... لقد جعلتنا نشاهدها من قبل... وقالت إن والدها هو من وضع هذه الوريقة بالداخل لتحميها.

- هذا صحيح...

قالها عمار وهو يفتح الوريقة، الكلمات باهتة قليلًا، لكنه قرأها من قبل ويستطيع تمييزها الآن بسهولة وقال بتسلية:

- سلام كانت تغار من استحواذنا على مالك... فتجلس بجانبنا وتثرثر كثيرًا ومن بين ما كانت تحكيه أن والدها أخبرها أن هذه الوريقة ستحميها ويجب ألا تخرجها من القلادة أبدًا.

وبينما كان يحيى يجوب بعينه في الممر، قال ياسين وقد ساهمت ابتسامة عمار في منحه بعض الهدوء، وقال:

- نعم... كل ما كانت تعلمه أنها آية الكرسي... وأنها لم تكن تفهم معناها.

عقب صالح وقد قفزت تلك الليلة إلى عقله مع ذكرهم لتفاصيلها:

- هل تذكرون كيف تعجّب مالك عندما قالت إنها كانت تظنها تعويذة!

قال يحيى وقد تذكر هو الآخر ما دار في تلك الجلسة، والحبط
مشتعل في منتصف الدائرة يدفءون على ناره المشتعلة، وطرقات
المطر في الخارج تنهمر على الأعشاب اليابسة:

- نعم تذكرت!

نظروا جميعاً نحوه، فقال ببطء:

- إن كان هذا يعني أنها على قيد الحياة... فما المفترض بنا أن نفعل
الآن؟!

- الجدة في انتظاركم.

التفتوا تجاه مصدر الصوت الذي صدح فجأة عند مخرج لم ينتبهوا
له.

قد حكى لهم عمار عنها، عرفوها فوراً بسبب نظراتها العدائية.

زم عمار شفتيه، وقال باستسلام:

- يبدو أنه قد تحدد لكم موعداً ما.

تحركوا ببطء وهدوء خلفه، لماذا يبدو الطريق سهلاً هذه المرة،
كأنها تأخذهم في رحلة يحفظون تفاصيلها جيداً؟

كانت الجدة في انتظارهم، لا بد أن أحداً قد أخبرها بقدمهم، حتى
وهم لا يزالون عالقين في أعماق المتاهة.

جلست تترقب خطواتهم بوقار، وهم يبادلونها النظرات متأملين
الكهف والمشاعل الخافتة الموزعة على جدرانها، تخفي أكثر مما تُظهر.
أشارت لهم بالجلوس، ففعلوا، بينما عيونهم لا تكف عن التحديق إلى
الأركان المظلمة، خلفهم كانت الفتاة واقفة تنتظر إشارة الجدة.

وما إن لمحت تلك النظرة الحاسمة حتى انسحبت إلى صخرتها
المفضلة، قفزت فوقها وجلست تراقبهم في صمت.

- ضيق يحيى بين عينيه وهو يتفحصها، امرأة عجوز ملامحها تشي بالهيبة، نظراتها قوية ثابتة كأنها تخترق عقولهم... قال عمار مُعرِّفًا:
- هؤلاء رفقتي... عائلتي.
- ماذا وجدت هذه المرة؟
- انتبه عمار إلى تغيُّر نبرتها، يبدو صوتها أكثر مودة من المرة السابقة، وحتى ابنة الجبل لم يبدُ عليها العداء كما في المرتين السابقتين.
- كان الأمر غريبًا، فالفتية الذين رأهم من قبل لم يظهر لهم أثر! كررت الجدة سؤالها بنبرة حاسمة، فأخرج عمار ما كان يخفيه في قبضته وبسط كفيه أمامها.
- حدّقت إليه مليًا، ثم التقطته بين أصابعها قائلة بثقة:
- دافئ... كأنه فارق عنق صاحبه للتو.
- تبادلوا النظرات الجانبية بحذر، تاركين لعمار زمام الحديث بصفته قائدَهم.
- قال عمار مستفهمًا:
- نحتاج إلى أن نفهم.
- أملت رأسها جانبًا ببطء، بينما نظراتها لا تفارق القلادة والعين المتدلية منها، همهمت بإدراك:
- أهل داو يستعينون بها لدفع الشؤم.
- عقب يحيى بنبرة يشوبها الغضب:
- أهل داو يستعينون بكل شيء إلا الله!
- رفعت المرأة عينيها نحوه في سكون، فقال عمار:
- إنه يحيى...

غامت عينا الجدة بسحب من حنين قديم، وقالت بصوت مفعم
بالشجن كأنها تتذوق الاسم:

- يحيى... يا له من اسم قريب من قلبي!

وبينما لا تزال كلمات الجدة تتردد في صدورهم، دوى صوت جناحين
مباغتاً في أرجاء الكهف، فارتفع الجميع برؤوسهم بتوجس، فإذا هم
يرون بومة ضخمة انطلقت من عتمة الأركان، عيناها تلمعان كجمرتين
في الظلام.

حلّت ببطء فوق رؤوسهم قبل أن تستقر على ساعد الفتى الذي
اقتحم الكهف للتو هاتفاً بغضب موجهاً حديثه نحو عمار، ناظراً إليهم
وعيناها ليست بأقل حدة من عيني بومته مزمجرًا:

- قد حذرناك... لكن يبدو أنك تريد أن تُدفن هنا.

يبدو أن صياح الجدة قد تأخر للحظات فلقد كان يحيى أقربهم إليه،
ويحيى يمتلك رادارًا داخليًا يلتقط شحنات الغضب عن بُعد، اعترض
طريقه قبل وصوله إلى عمار، وفي لحظة حدث الصدام.

الفتى أصغر وأقصر من يحيى لكنه ربيب الجبل؛ عندما كانت الأطفال
تتسلق أقدام أمهاتهم لعبًا، كان هو عالقًا بين الصخور يطارد أرنبًا بريًا
ليقتنصه، وإلا نام جائعًا.

قفزت الفتاة من فوق الصخرة نحوهم تجذب أخاها، واجتمع عمار
وياسين يحاولان التفريق بينهما، بينما أنس وصالح اكتفيا بتبادل دهشة
متلعثمة والتمتمة لبعضهما بعضًا:

- من هذا الفتى؟

- يبدو أحد سكان الكهف.

- يحيى سيلكمه بالتأكيد لو لم يترك قميصه.

- لقد انقطع الحبل!

وأخيرًا جاء هتافها الزاجر يأمرهم بالتوقف فورًا، فتجمد الموقف،
وحين بدأت القبضات تلين وتبتعد، جذب عمار رفيقه الغاضب للخلف،
بينما هدرت الجدة وعيناها يتطاير منها الشرر:

- اجلسوا جميعًا أمامي... هنا.

فعلوا ما أمرتهم بينما صدورهم تنهت من فرط الانفعال، مررت
نظراتها بينهم فخفضوا نظراتهم أو يشيحون بعيدًا.

استرعى انتباهها أصابع يحيى وهو يعيد ترتيب قميصه بحركات
عصبية، ويجمع حبلًا صوفيًا قصيرًا بداخل قبضته، يبدو أنه انفصل عن
عنقه في أثناء الشجار.

دققت النظر في ذلك الشيء البارز من بين أصابعه، هل كان يعلق
في عنقه ريشة طائر ما!

وقالت وهي تومئ برأسها إلى مكان شاغر بجانبها:

- اقترب...

نظر له عمار فوجده ينهض بتردد، ويدور من خلفهم حتى وصل إلى
حيث أشارت، جلس أرضًا متربعا كما يفعلون، فقالت بغموض:

- ما تلك الريشة التي تعلقها حول عنقك؟ هل تؤمن بالتمائم يا ولد؟!

حرك رأسه نفياً بقوة، وقال وهو يدفع التهمة عن نفسه:

- لا... نحن لا نستعين إلا بالله.

شبح ابتسامة حام على طرفي شفثيها، وهي تعاود سؤاله بغموض:

- هل أنت غاضب على الدوام هكذا؟!

كل العيون تحولت نحو يحيى الذي عقد الحبل الصوفي بسرعة،
وقام بوضعه حول رقبته، والريشة تأخذ عيني الجدة معها أينما تحركت
حتى أخفاها تحت قميصه ويهمهم بحزم:
- لستُ غاضباً.

أنهى كلماته القليلة، وشبك أصابعه في انتظار ما ستقوله، لكنها
أطالت النظر إليه وساد السكون، حتى البومة على كتف الفتى توقفت
عن تحريك رأسها.

- من أي دار أنت يا ولد؟

يا ولد! نظر إليها يحيى باستياء، إنه لا يحب هذه الكلمة لكن... ماذا
سيفعل أمام كل هذا الشيب، حتى حاجبيها مشتعلين به، حتى العصاة
المتكئة عليها مخيفة مثلها، تنحنح وأجاب أخيراً مخفياً تأثره:
- العاصفة أكلت الدار وما تبقى من أهلها.

قال عمار متسائلاً:

- أتعرفين كل أهل داو؟

التفتت نحوه متفاجئة كأنها قد نسيت وجوده، وقالت ببطء ثقيل
لشدة ثقل الذكرى داخل قلبها:

- كنت أعرف كل من عاش فيها... قبل خروج الصعلوك علينا من
البحيرة.

انعقد حاجبا عمار بحيرة، في لقائهما السابق سألته عن الحاكم،
تفتح باباً آخر مليء بالغموض قبل أن تغلق الأول!

لم يستطع كبح جماح نفسه، فقال على الفور:

- أي صعلوك وأي بحيرة... فسري لنا؟

نظرت الجدة إلى الفتى صاحب البومة، وقالت مؤنبة:

- ألن تقدم ما أحضرت معك لضيوفنا... أهكذا إكرام الضيف!

زفر الفتى حانقًا، إنه غاضب من كل ما يحدث، لكنه استسلم في النهاية، إنها كبيرتهم التي لم يستطع يومًا أن يخالف أمرها مهما بدى غير مقتنع.

نهض يبحث عن حقيبته القماشية التي أسقطها قبل الاشتباك معهم، حملها عن الأرض، وعاد يجلس حيث كان، أخرج منها صرة قماش منتفخة، وبدأ في فك العقدة التي صنعها بأطرافها الأربعة.

حين انتهى وضعها في المنتصف كاشفًا عما تحويه بداخلها، ظهرت بداخلها حبات تمر تلمع، وقال وهو ينظر نحو الجدة معتذرًا:

- لم أستطع الحصول إلا على هذا...

قالت برضا تطمئنه:

- وهذا كثير.

تبادل عمار ورفقته نظرات الدهشة، وهتف أنس فجأة:

- تمر! لم نَرَ التمر منذ غرق البذور... من أين جئتم به؟

أجابه الفتى وهو يرفع ساعده القوي بزهو:

- إنه من عمل يدي.

تدافع صالح وأنس ليكررا نفس السؤال:

- أين وجدته؟!

نظر الفتى صاحب البومة إلى الجدة، فأومأت له بالموافقة، فقال:

- أعمل لدى أحد شيوخ قبيلة الرواة وأتقاضى أجري تمرًا.

- القبيلة!

همس عمار وقد تراكت الأسئلة في عقله وازدحمت بها عيناه،
وعندها نطقت الفتاة لأول مرة، صوتها بارد لكن عينيها معلقتان بالجنة،
وقالت تجيبه:

- جميعنا نعمل مقابل الطعام.

ألقي ياسين نظرة خاطفة إلى رفقته، فارتبكت أياديهم قبل أن تلمس
حبّات التمر وأعادوها إلى مواضعها بخجل، فقال بحرج:

- لا تشغلوا بالكم... لقد تزودنا بما يكفيننا قبل أن نخرج من داو.

راقبت الجدة نظراتهم المترددة إلى حبّات التمر، عيونهم تلمع كأنهم
يرون جواهر نادرة تذكّره بموائد اندثرت منذ زمن.

حتى أنس الذي لم يجلس هادئاً أبداً منذ رأته، يجلس الآن واجماً وهو
يحدّق إلى الحبّات الداكنة بعينين تلمعان.

أهؤلاء من كانت تخشاهم؟! فتية في أوّل الشباب يزدردون ريقهم
من أجل حبّات تمر، مجرد رفقة بالكاد تجاوز أكبرهم عمراً العشرين
من عمره، لا يختلفون عن فتية الكهف كثيراً، متشابهون للغاية، يتامى
جائعون، هزيلو الجسد نعم، لكن ليسوا بضعفاء على الإطلاق، خاصةً
ذاك الفتى يحيى، صاحب الحاجبين المنعقدين على الدوام، الفداء يكمن
في عروقه يكاد يُرى، سحبت الصرة من طرفها بيدٍ ثابتة حتى استقرت
أمامها مباشرة، وأخذت تلتقط حبة حبة وتقذف بها في حجورهم، بدءاً
بأنس وانتهت بيحيى وهي تقول بنبرة ودودة:

- لا تردوا هدايا الجدة.

لم ينتظر أنس نظرة ياسين أو كلمة عمار، وضع حبة التمر في فمه
على الفور وأبقاها هناك، لم يلوكها، أغمض عينيّه وأخذ يستمتع بذاك

الطعم السكري الذي نسيته حاسة تذوقه لسنوات، كأنه لوهلة عاد مجرد طفل سعيد.

لم يكن يعلم أنهم يراقبونه، لم يدرك أنه انتزع من أعين الجدة ابتسامة غُيبت عنها منذ أن اتخذت من الجبل مسكنًا لها.

كانت حقًا راضية، بل مطمئنة، نظرت إلى الفتاة ففهمت الأمر دون كلمات وجمعت ما بقى من حبات قليلة، ونهضت إلى أحد الأركان البعيدة عن النور والأحداث.

لكنها لم تكن بعيدة عن عيني عمار الذي راقبها حتى اختفت هناك، ترك رفقته يستمتعون بتمورهم، ولسبب ما لم يكن مثلهم، لقد احتلت أفكاره عقله وقضت على شهيته.

عمار منذ الغرق لم يعد يشتهي شيئًا، الطعام بالنسبة له مجرد أشياء توضع في الفم تقوي جسده، تساوت عنده الطعوم كلها حتى السكري منها.

كان يلوك تمرته ببطء شارد الذهن في ذلك الركن المظلم، خاصة بعد أن خرجت منه همسات بنبرات واهنة، يبدو أنهم العجائز الذين شاهدتهم في زيارته السابقة للكهف.

- إنهم مرضى.

انتشلته الجدة من شروده بكلمتين فقط، قفز السؤال على لسانه:

- من أنتم يا جدة؟

سؤاله كان مباشرًا صريحًا مثله تمامًا، قامت الجدة بتقييمه بنظرات مُقدرة، صاحب كلمة واحدة، لا يجيد المواربة، فضولي باتزان.

- حدثني أنت عنكم أولاً... وسأجيبك.

كان يستحق صراحة منها تشبه استقامة كلماته التي لم تتأخر إلا عندما نظر إليه ياسين ليتروى، فقال صاحب البومة بضجر:

- لا داعي لكل هذا الحرص... نحن نعرف عنكم الكثير بالفعل.

التفت يحيى إليه وقد تملكته الدهشة:

- ورغم ذلك تهاجمنا بهذا العداء؟ إذًا فوجهتنا ليست واحدة كما ظننت!

قالت الجدة على الفور... صوتها حادُّ كأنه يريد الإمساك بزمام الحوار قبل أن ينفلت:

- وما هي وجهتكم يا يحيى؟

- وتقولون بأنكم تعرفون عنا الكثير!

- اهدأ يا ولدي.

شعر الفتى بالدهشة، فهذا النداء خاص بهم فقط، إنها مختلفة هذه المرة، لقد كانت حريصة المرة السابقة أن تُخيف عمار حتى لا يعود برغم علمها أن العقاب لا يأتي إليهم إلا بمن هم يشبهونهم، يسرون في نفس طريقهم، أو يهربون من الوحش، أيًا كان اسمه، أيًا كانت صفته... ككل من في هذا الكهف!

ارتجف ظل الشعلة فوق الصخور الداكنة، والهواء الدافئ أخذ يدور بينهم كأنما يسرُّ سرًّا لا يريد أن يُقال، أدركوا جميعًا أن الحديث لم يعد جدًّا عابرًا، بل اقترابًا من حافة الحقيقة، عندها أطرقت الجدة برأسها، وعيناها تحملان ذلك الوميض الذي يسبق الاعتراف الكبير.

- البحيرة كانت المأوى الأول للصعلوك... منذ خرج علينا منها وكل شيء تغير في أرض داو... البذور تقل مع الوقت والزرع يموت وبدأت مياه البحيرة تنخفض ببطء... جبل داو كان مجرد جبل

ترعى عنده الغنم... لكن في ليلة سوداء تصاعدت منه نار عظيمة
وانطفأت وحدها... وفي اليوم التالي ظهر عجوز البركة جوار
بركته العفنة.

سأل عمار مدهوشاً:

- عجوز البركة الذي نعرفه؟

غمغم ياسين بوجل:

- ومن غيره!

تابعت الجدة وقد بدت الذكرى في عمق عينيها مشتعلة:

- لم نكن نفهم ماذا يحدث لجزيرتنا... حتى طرقها اختلفت... باتت
مخيفة... تعوي بها الكلاب ليل نهار وانتشرت الثعابين... وقلَّ
المطر!

عمار كان يبتلع الحروف مع أنفاسه، كأنه يخشى أن يضيع أي جزء
من هذه الحكاية. قال بنبرة مترددة:

- من الصعلوك؟

صوتها صار أخفض، كأنها تخشى أن تسمع الصخور نفسها ما
تقول:

- في إحدى الليالي عادت النار ترتفع من قمة جبل داو... وقبل أن
تنتهي الليلة خرج الحاكم من قصره وحده ولم يعد إلا قرب الفجر
شارداً... اليوم التالي مباشرة وجدنا الصعلوك وزيراً مقرباً وتمت
إقالة كل الوزراء واحداً تلو الآخر وإقصائهم إلى تخوم داو.

نظرت إليهم تتأمل سكونهم ووجوههم الشاحبة، كأنهم يخشون
المقاطعة، لكن اللمعة في أعينهم أنبأتها بأنهم قد فهموا بقية الحكاية
وحدهم، فتابعوا كأنها تضع الخاتمة:

- الحاكم لم يعد كما كان منذ تلك الليلة...

تقدمت الفتاة ببطء حتى جلست جوارها تمامًا، وضعت أناملها فوق كف الجدة كأنها تؤازرها بصمت.

ارتجف صوت أنس وهو يهمس غير مصدق:

- هل وقع تحت سلطانه؟!

لم تجب الجدة مباشرة، بل رفعت بصرها إلى سقف الكهف حيث تتدلى النتوءات الصخرية، وقالت كمن يستعيد مشهدًا لنهاية بطل:

- كان قويًا... ولا يضعف... نور وجهه يردع أي باغٍ... لكن بعد النار... صار شاحبًا... صامتًا... يوقع القرارات دون أن يقرأها... ويجلس في مجالس داو كأنه غريب عنها.

توقفت لحظة، ثم أضافت بصوتٍ متكسر:

- منذ ذلك الحين لم نعد نعرف من يحكم داو حقًا!

تبادل الرفاق النظرات المضطربة، حتى رفع ياسين رأسه وقال ببطء:

- الصعلوك ليس مجرد دخيل... بل أصبح هو داو نفسها!

عينًا عمار كانتا أصدق من الكلمات؛ كان يرى في نبرة الجدة وارتعاش صوتها صدقًا لا يحتمل الجدل، همس بصوتٍ خافت:

- يبدو أن كل ما عشناه لم يكن سوى صدى لما حدث تلك الليلة.

ظل ياسين ساكنًا، عيناه غائرتان في الظلام، كأن عقله يحسب شيئًا لا يريد أن يبوح، وأخيرًا قال:

- إن كان ما تقولينه حقًا... فهو شيطان!

طوى يحيى إحدى ساقيه تحته وجذب الأخرى نحو صدره، يضع كفه على ركبته ويده الأخرى يستند بها إلى الأرض وقال بإدراك:
- هذا يفسر كل شيء.

تذكر صالح حكايات أمه عن ساحر البلدة القديم صخر العاصي وشياطينه ليناموا باكراً، فقال بفضول لم يستطع إسكاته:

- لكن صخر العاصي كان موجوداً بالفعل قبل كل هذا... هل هو من أتى بهم؟

حركت رأسها جانباً تريحه قليلاً وقالت ساخرة بحزن:

- نعم كان موجوداً قبل كل هذا... كان مجرد دجال آخر انضم إلى قافلة خدمهم.

نظر عمار إلى الجدة مباشرة، كأنه يبحث عن الجواب الأخير:

- من أنتِ إذن؟ شاهدة؟ ناجية؟ أم أسيرة شيء ما لم تفصحي عنه بعد؟

أغمضت الجدة عينيها لهنيهة تستجمع أنفاسها... ارتجفت كفها الخشنة أسفل أنامل الفتاة، ثم فتحت عينيها فيهما انكسار لا تخطئه عين، وقالت بصوت متهدج يحمل مرارة الغربة:

- نحن من تخلوا عن الأمل في النجاة... واكتفوا بالاختباء من عين الوحش.

قال عمار وهو ينقل بصره بين الفتاة وأخيها:

- قد أصبحت خبيراً في تمييز ملامح أبناء قبيلة الرواة.

رفعت الجدة كفها توقفه عن الاستمرار وقالت حاسمة:

- لا تسأل... حكايات أهل الكهف تخصهم وحدهم.

نظر عمار إلى الفتاة وقال رافعاً حاجبيه وهو يشير إليها:

- ولماذا كان أهل الكهف يراقبوننا إذن؟

طوت الفتاة كلتا ساقيهما تحتها، ونصبت ظهرها وهي تقول له بحدة:

- لأنكم تمرّون من أرضنا.

قال ببرود أغاظها:

- الغابة ليست أرضكم... فعلياً هي أرض عائلة القاسم.

هتفت دون تفكير:

- نحن جزء منها.

- وصال؟

هتف الفتى ليوقفها، وصرخة البومة اخترقت الظلام فجأة وهي تطير مبتعدة عن كتفه، ارتد صداها حاداً غليظاً متردداً، كأنها تحمل وعيداً خفياً تردده الصخور كنذير، تراجع أنس بجذعه للخلف، وقد خُيل له أنه ليس صوتاً واحداً بل جوقة من الأصوات تُطلق نحيباً يائساً! ساد صمتٌ مشحون، لا يُسمع فيه سوى رفرفة جناح البومة وهي تعيد ترتيب وقفتها فوق الصخرة.

أطبق الفتى على ذراع أخته بحدة كأنه يعيدها إلى حدود قد اتفقا ألا تتخطاها منذ زمن، حدّقت الجدة إلى العتمة بعينين متوجستين، بينما أتاها صوت خشن أنهكه المرض من حيث الركن المظلم وبنبرة ممطوطة:

- وصال... عاصف.

نهضا على الفور مسرعين إلى حيث مصدر الصوت، وقال ياسين معتذراً:

- نرجو ألا نكون قد تسببنا بمشكلة ما.

أنهى كلماته، ونهض واقفاً وهو يردف قائلاً:

- كيف نتفقد الشمس هنا.

تبعه يحيى وصالح، ثم أنس الذي لم يفوت الفرصة، لكز عمار بخفة لينتزع عينيه عن الركن المظلم ليتبع البقية، وأجابت الجدة بإعجاب:

- تريدون الصلاة؟

أوماً لها موافقاً فقالت بهدوء:

- أمهلونا دقائق فقط.

كانت دقائق قليلة كما قالت، نهضت متكئة على العصاة، سارت بتثاقل لكن مستقيمة الظهر، ابتلعها الركن المظلم كأنها تبخرت هناك، ثم عادت تتبعها عجوز دقق عمار بها وعرفها، لقد شاهدها من قبل عندما فضت اشتباك كاد أن يحدث بين الفتى الغاضب وأخته... وصال! تتمم يكرر اسمها بخفوت استمع إليه أنس الملتصق به على الدوام، فعاد يلكره خفية، التفت له عمار بدهشة من حدة حاسة السمع لديه!

كانت العجوز منحنية وتتكئ على كتف وصال وأخيها من الجهتين، وتتقدم ببطء لا يصدر عنها سوى الأنين الخافت وزحف الخفين العالقين بقدميها، تتبعها ثلاث نساء يتحركن بإعياء مماثل.

هذه المرة ظهرت وصال ترتدي جلباباً يبدو لأمرها، بينما أخوها لا يزال يرقب عمار بحدة.

زفر عمار وهو يشيح بوجهه مستغفراً لتجنب صدام آخر، لكن الجدة أعادته إليهم مجدداً وهي تقول:

- لقد اعتدنا أن يؤمنا عاصف فهو أكبر الفتية هنا.

تتمم صالح بعفوية:

- ياسين أكبرنا سنًا وأحفظنا لكلام الله.

نظر إليه ياسين نظرة جانبية، وقال بنبرة بطيئة يعرفها صالح:

- هم أصحاب المكان يا صالح.

ابتلع صالح تعليقه وصمت، لكن الجدة قالت بوجه منشرح:

- حقًا؟ فليفعل إذن.

حين اصطفوا، وقبل أن يرفع ياسين كفيه للتكبير جاء صوت الجدة من الصف الخلفي تنبههم:

- لا تلتفتوا للخلف مهما سمعتم.

ظن ياسين ورفقته أنها تقصد ألا يلتفتوا للخلف لأن هناك نساء فتعجب، من الذي سيلتفت للنساء وهو يصلي!

لكنهم تجاوزوا الجملة وبدؤوا في صلاتهم.

لوهلة استمعوا إلى التكبيرة تتردد بين تجاويف الكهف عميقًا متداخلًا منسجمًا، حتى خيّل إليهم أن هناك أصواتًا أخرى تكبر معهم!

خفض الرجال والنساء رؤوسهم بخشوع، وسكنت البومة، عيناها نصف مغمضتين كأنها تُصغي هي الأخرى.

أنفاس خفية ثقيلة شاركتهم الركوع والتسبيح، حين سجدوا، تزلزلت قلوبهم بإحساس غامض، السجود لم يكن سجودهم وحدهم، هناك قوى أخرى شاركتهم الخضوع في صمتٍ مهيب.

أصوات لا تشبه أي صوتٍ عرفوه من قبل، تسبيحٌ لا يُدرَك مصدره، كأنه يجيء من عمقٍ سحيق... من زمنٍ قديم، أقدم من الصخور أسفل جباههم.

وحين انتهوا جلسوا لختم الصلاة، جلودهم تعاني قشعريرة حد الارتجاف!

كان عاصف يراقب أنامل صالح وهو يُسبح بخفوت، لقد امتصت الصلاة غضبه وتركته هادئاً متأثراً بنبرة ياسين كلما كَبَّرَ في ركوع وسجود، وأخذ يتساءل بداخله فكيف به في تلاوة جهرية بذلك الصوت الرخيم!

شعر بتلك اليد التي توضع برفق على ساعده، وصوت صالح الجالس بجواره يقول بود:

- اسمي صالح.

قالها وهو يمد كفه ليصافحه بضحكة ودودة، مما جعل عاصف يشعر بالحرص وصافحه وهو يومئ برأسه بترحيب، فتفاجأ به يعتدل ويتوجه إليه بجسده كله متربعا وهو يتساءل بحماس:

- هل تعلم لقد كنت أربي ببغاء في داو، وبسبب ذلك كان رفقتي ينظرون إليَّ بانبهار... أرسل تنهيدة وتابع مازحاً:

- لقد أصبح موقفي حرجاً منذ أن شاهدوا البومة خاصتك... لن أستطيع إبهارهم بعد الآن!

ولأول مرة يبتسم عاصف، ويرتاح في جلسته، بينما يطرق برأسه ليخفي بسمته عن الأنظار، بينما يشعر بتجاوب مع شخصية صالح التي تجذبه بعفوية إلى دائرتهم الآمنة من عزلة الجبال.

وأردف صالح بنبرة دافئة:

- هل تعرفت إلى أنس؟

قالها بصوت مسموع فاستجاب أنس على الفور، وزحف مقترباً منهما، ومد يده لمصافحة صادقة كمصافحة صالح وهو يبتسم له قائلاً:

- أنا هو أنس... أصغرهم سنًا وأوسمهم كما ترى.

انفلتت ضحكة قصيرة منه رغمًا عنه جعلته يرفع كفه نحو فمه
خجلًا، كأنه ارتكب جرمًا، ولو أن ضحكته القصيرة تلك اختفت بين
ضحكاتها المكتومة لفرَّ هاربًا من نفسه ومنهم!

كانت وصال على جلستها المتسمة ترقبهم من طرف خفي، لا
تصدق أن الضحكات الخافتة التي سمعتها خرجت بالفعل من صدر
أخيها الصلب المتيقظ!

تملكتها الدهشة أولًا، ثم غصة اجتاحتها وهي تختبر شعور الغيرة
للمرة الأولى؛ غيرة خفية ربما لأنهم استطاعوا ببساطة وفي جلسة واحدة
الوصول إلى ما لم تستطع هي أن تصل إليه يومًا.

تسللت أصابع أمها إلى كتفها، فمالت نحوها مطرقة، لكنها وجدت
شاردة تراقب عاصف أيضًا والارتياح يغزو وجهها كما يحتل قلبها فرحًا،
وهمست لها قرب أذنها:

- لا تخبريه أنكِ شاهدته.

ابتسمت وصال رغمًا عنها، وعدلت وشاح رأسها لتخفي ابتسامتها
وهي تفكر، أليس هذا غريبًا! لم تولد ابتسامة ولا ضحكة في هذا الكهف
منذ وعت، ثم يأتيهم خمسة غرباء، وفي خلال ساعة أو أكثر قليلًا تخرج
ضحكة عاصف وتبتسم هي وأمها، أما الجدة فما زال مشكوًا في
أمرها... هل طاف شبح ابتسامة حول شفثيها أم شبّه لهم!

همس عمار وهو يميل نحو ياسين ويحيى، ويشير إليهما بعينه
جانبًا:

- لماذا لا نتمتع بمفعول سحري مثلهما؟

ابتسما وقال ياسين بخفوت:

- هل نقترّب نحن أيضًا؟

قال يحيى بجدية:

- نحن لم نتفق... ما هي الخطوة القادمة ومتى سنغادر؟

زَمَّ عمار شفّتيه وقال مفكراً:

- حتى اللحظة لم نفهم ما جئنا من أجله...

غمغم ياسين:

- البئر.

أوماً يحيى وهو ينظر إلى عمار منتظراً اقتراحه، الجدة تخفي بعض التفاصيل ولا مفر من سؤالها مباشرة فالتفت إلى يحيى قائلاً:

- سنذهب إليها وستتولى أنت سؤالها هذه المرة.

تقدم ثلاثتهم بهدوء نحوها حيث الركن الذي اتخذته تسبح هامسة، وهي تتابع خطواتهم نحوها.

استأذنوا في الجلوس، فأشارت لهم موافقة برأسها، وقال يحيى على الفور:

- نريد أن نعرف عن البئر لنحدد خطواتنا القادمة.

- البئر إحدى أسرار هذا الجبل.

- كيف خرج منها الوشاح والقلادة... ونحن على ثقة بأن هذه الأشياء كانت معهم قبل أن نتركهم في القارب!

نظرت إليه بتمعن، كأنها تفكر، فقال عمار على الفور:

- كل ما نريده هو معرفة هل هم أحياء أم لا.

أرسلت تنهيدة مُتعبة من صدرها، وقالت:

- كل ما أعرفه عن البئر أنها مصدر مياه عذبة نعتمد عليه هنا...

قاطعها عمار متسائلاً:

- والعُقاب؟

صمتت ثم أشاحت بوجهها، لكنهم لم يتركوا الصمت يسود هذه المرة، ليست لديهم رفاهية الوقت، فكرر يحيى سؤال عمار ولكن بشكل آخر:

- العُقاب هو من دلَّ عمار على البئر، واليوم أخذنا إليها... هناك شيء ما في هذه البئر يريدنا أن نعرفه.
همس ياسين بتأثر:

- ربما أستاذنا على قيد الحياة ويريد مساعدتنا.

- ربما...

همست الجدة مُطرقة للحظات قبل أن ترفع عينيها إليهم وقد حسمت أمرها:

- أنا لا أعرف الكثير كما تظنون، كل ما أعرفه أن العُقاب دلني قبلكم على الطريق إلى الكهف... وقد فعل ذلك مع كل من تجدونهم هنا... كما دلنا على البئر حتى لا نهلك عطشًا، ومنذ ذلك الحين وهو يحمينا ولا يسمح لأحد بالاقتراب منّا.

- هو ليس مجرد طائر... أليس كذلك؟

غمغم عمار بنبرة مأخوذة خافتة وهو ينصت باهتمام شديد، فأجابه يحيى نيابة عنها:

- إنه كغراب الحصاد.

رفعت يدها توقفه بحزم:

- لا... لا يمكن أن تشبهه بتلك الشياطين...

اكتسى وجهها بالحزن فجأة وهي تردف وقد خفتت أنفاسها، وارتخت ملامحها:

- لقد وجدته وهو صغير، يرتجف تحت صخرة ملساء، جناحه مكسور... اعتنيت به... ولقد ارتبط مصيره بي منذ الليلة التي هربت فيها من داو.

غمغم يحيى وهو يشعر باندفاع الدماء في أورده:

- ماذا حدث تلك الليلة؟

قلبت كفها تنظر في خطوطها، نظرات بعيدة كأن خطوط كفها تعرض لها صورًا من الماضي وهي تقول بنبرة تشبه الأنين:

- استخدم الصعلوك ريش العقاب وربطنا معًا بسحر أسود جعلني ذاهلة جُل يومي عن كل من حولي... وفي تلك الليلة وصلني خبر عن أختي الصغرى بأنها وضعت وليدها الأصغر... فأرغمت نفسي على الحركة... حتى إنني أضعت الطريق مرتين... لكنني في النهاية وصلت...

نهض يحيى واقفًا وقال بجمود:

- جذب الطفل الريشة من بين ضفائرك فأفقت من غفوتك الطويلة. دارت رؤوس الجميع ينظرون إلى يحيى الواقف أمام الجدة بلامح جامدة، لقد سمعوا ما قال، نهض صالح، وتبعه أنس الذي سأل بفضول:

- أي ريشة؟!

- هذه يا أنس؟

قال وهو يخلع الحبل الصوفي عن عنقه، ويرفعه أمام نظرات الجدة التي حدقت إلى الريشة المتدلّية، والدمع يترقرق في عينيها غزيرًا، وينسدل على وجنتيها كستائر مرمرية تلمع.

ارتفعت نظراتها حتى استقرت على عينيها، وابتسمت من بين دموعها وتحرك رأسها برضا:

- يبدو أن أمك قد نفذت كلامي المجنون حرفياً.

وحين شعر باتزان مشاعره عاود الجلوس أمامها، وكل ما فعله أنه أمسك بكفها وانحنى يُقبلها وترك شفثيه هناك بين تجاعيد كفها للحظات، إنها لا تشبه أمه إلا في لمحة بسيطة من عينيها، وطريقة نطقها لاسمه، إنها تتذوق حروفه مثلها تماماً.

- خالتي راوية!

همس يحيى، وهو يجبر شفثيه على ترك مذاق كف أمه فيها، ورائحتها.

بيدها الأخرى مسحت على شعره ببطء في اللحظة التي التفت فيها صالح الباكي من شدة تأثره نحو أنس الذي تهطل عبراته بغزارة فيمسحها بظهر كفها.

قاوم ياسين الدمع بكل ما يملك من قوة متأسياً بعمار الشارد، يعلم أنه في تلك اللحظة يذكر أمه، بالرغم من قسوتها معه منذ طفولته، ومطاردته كلما خرج من الدار ليلحق بجلال الدين في ساحة ترويض الخيول، وضربه بعنف وهي تسحبه من بينهم حتى لا يكررها.

كان يكره أن تناديه بالقرد أمامهم، لكنه الآن يتمنى لو يسمعها منها ولو مرة واحدة فقط ولو كان في ساحة داو نفسها.

لكزه ياسين بخفة حتى يفيق من حزنه البادي على وجهه بوضوح، فرمش للحظات، وتنحنح ليصرف ألمه بعيداً، بينما شعور أنه مراقب يلح عليه لينظر نحو وصال!

كانت تراقبه بالفعل، لكنها التفتت للاتجاه الآخر بمجرد أن التقت نظراتهما.

عَلَّتْ أصوات قادمة من مدخل الكهف الذي ولج منه للتو ثلاثة فتيان
في نفس عمر عاصف تقريباً، وحين وقعت أعينهم على ما يحدث في
الداخل تبادلوا النظرات ببلاهة!

وغمغم عمار الذي قابلهم في المرة السابقة هامساً بملل:
- لا... لن نحكي من البداية!

النعيم

هي ليست نائمة كما تبدو للوهلة الأولى، إنها فقط لا تجرؤ على فتح عينيها للمرة الثانية بعد ما شاهدته في الأولى، فهمت أنها تقبع في نفق ما تحت الأرض، ووقع أقدام تقترب منها، لكن منذ ذلك الحين لم يحاول أحد التحدث إليها أو حتى لمسها، إلى متى ستظل ساكنة مكانها مطبقة جفنيها بقوة!

لا تزال الأقدام تجوب النفق، وممراته المتشعبة هنا وهناك، كأنها خلية نحل، يصاحبها ضحكات منخفضة قريبة، وبكاء بعيد، وصراخ مرتفع من مكان ما، يجعل قلبها يسقط بين قدميها من شدته، أصوات فتيات وفتية تصلها من كل صوب، يبدو أنها في المنتصف تمامًا، حيث تلتقي كل الممرات!

أين هي ومن هؤلاء القوم، سؤال مرتعش مثلها، يغمرها بعدما غمرتها المياه، ساحبة إيّاها للقاء.

ترى ماذا فعل البقية؟ هل نجوا؟ هل نجا مالك، وسلطان؟ هل شعر أصلاً بأنه يغرق، أم أنقذته شياطينه؟

لا بد وأن جلال الدين قد غرق مع خديجة، فلقد كان يحتضنها ولم يتركها لحظة، حتى بعد أن تحطم القارب، وارتفعت الأمواج، وبسط البحر رداء الموت الأسود كجناحي غراب فوق رؤوسهم جميعًا.

خفت قرع النعال رويدًا رويدًا، حتى اختفى، هدأت الأصوات وشعرت
بمن يجثو جوارها:

- أعلم أنك مستيقظة... كُفي عن ادعاء فقدان الوعي... انهضي الآن!
فتحت سلام عينيها لترى المرأة المشرفة عليها من فوقها، تزجرها
وهي تتابع:

- إن لم تعلمي... فلن تأكلي لقد طفح الكيل.
اضطربت أمعائها، وقد أيقظت المرأة كل مشاعر الحاجة إلى الطعام
والشراب دفعة واحدة.

ذكرى القصر المسكون والغرفة المظلمة وطبق التفاح تداهما
بضراوة، وهي تتمعن بوجه المرأة الجالسة القرفصاء جوارها، جلبابها
الأحمر، والوشاح المعلق بشعرها يظهر جزءًا من غرتها القصيرة على
جانب من جبينها، بينما الضفيرة الطويلة تتدلى من أسفله إلى الخلف،
ذات ملامح تشوبها القسوة والجدية، عاقدة حاجبيها، يملأ النفور والسأم
وجهها المستدير هاتفة وهي تنغز كتفها:

- لا تضيعي وقتي... تحركي.
اضطرت إلى النهوض ببطء، فعظامها تتن، وخاصةً كتفيها، تشعر
كأنهما انضغطتا في أنبوب ضيق، وخرجت منه بشق الأنفس.

صدرت طقطقة عن كل مفصل من مفاصلها وهي تعتدل بجسدها
واقفة، بينما المرأة تلوي فمها بعدم رضى وتشير إلى ملابسها الرثة،
قائلة بامتعاض:

- هيئتكِ هذه لا تصلح إلا للتسول، عودي إلى داركِ وأصلحي من
مظهركِ أولاً.

ثم تابعت وهي تصدر تنهيدة طويلة تشرح معاناتها مع الفتيات من مثيلاتها:

- لا تقلقي سأحجز لكِ دورًا... ما هذه النظرة البلهاء؟!

هتفت المرأة بها متأففة، ترى علامات البلاهة تملأ وجه سلام، مما جعلها تنتفض وتومئ برأسها موافقة على حديثها الذي لم تفقه منه كلمة واحدة!

ردة فعلها جعلت المرأة تهدأ، وتناظرها بتمعن أكبر متسائلة:

- لم أركِ من قبل... أول مرة لكِ في النعيم؟

النعيم؟! كررتها سلام بدهشة، تلعثمت، وقبل أن تجيبها، اقتربت فتاة مليحة منهما، تمشي بحركات راقصة، وتهتف بحماس، وهي تلحق شففتيها المحمرتين بتلذذ كبير:

- خالتي سعادة... لقد حصلت على ثمرة فراولة اليوم.

ثم طبعت قبلة على خد سعادة التي استدارت إليها بحبور، وهي تتخصر بثقة قائلة:

- رأييت؟ خالتكِ سعادة تعرف ماذا تفعل.

تبادلا الضحكات قبل أن تغادر الفتاة متابعة خطواتها الراقصة سعيدة، حتى اختفت عند ممر آخر.

استعادت المرأة نبرتها الجادة وهي تعود إلى سلام متابعة:

- انتظريني هنا سأعود سريعًا.

غادرت سعادة إلى ممرٍ ثالث، تمشي كجندي، قدها ممتلئ قليلاً فيضيف عليها هيبة وشموخ.

ألصقت سلام ظهرها بالجدار الأملس من خلفها في صمت مهيب، ولم تمر لحظات حتى انتفضت، وقد ملأ المكان صراخ فتاة، آتٍ من ممر ينتصف ممرات الجهة اليسرى!

- ماذا يحدث هنا؟

همست وهي تتحرك بعفوية تجاه مصدر الصوت، بينما تتلفت حولها من خوف مجهول، عميق بداخلها، سارت بحذر حتى عبرت منتصف الممر، ولم تتوقف حتى وصلت إلى قرب نهايته.

وهناك، لم تر سوى ضوء مُسلط على فتاة تعتلي منصة مرتفعة قليلاً، بالكاد تكفي لشخص واحد.

كانت الفتاة تقف بمواجهة ظلٍّ ما يجلس في منطقة لا تظهر تفاصيله، وتصرخ.

تتحرك، تجلس القرفصاء، تسجد، تنتحب... ثم تصرخ!

تعتدل ناهضة، وتبكي بكاء يكاد يقطع كبدها، وتتبع كل ذلك بصراخ جعل سلام تضع كلتا يديها فوق أذنيها من شدة الصوت، والذي لم يتوقف إلا عندما بدأت الفتاة تسعل وتبصق دمًا!

حينها، وحينها فقط، ويا للعجب! أُلقيت إليها ثمرة تفاح حمراء، من نفس اتجاه الظل الجالس هناك في الأعلى.

اتسعت عينا سلام، ترى الفتاة تنحني مُلتقطعة الثمرة، ثم تجلس مُتربعة، وتبدأ بأكلها كلها على عدة قضمات سريعة، مُتلهفة بنهم شديد، حتى وصلت إلى البذور فقامت بإخراجها من فمها كما هو القانون، ووضعتها فوق المنصة، وهبطت تجري مبتسمة تترنح من النشوة... أكلت تفاحة كاملة وحدها!

اختض جسدها حين شعرت بيد خشنة على كتفها، التفتت لتجده يقف خلفها ويسحبها للخلف لتتبعه، شاب مليح بلون القمح، يجرها من طرف كُمها، بينما صوته الغامض يقول بشغف:

- لديّ فكرة لمشهد عبقرى، فقط أحتاج إلى شريكة.

عندما وصل بها إلى بداية الممر حيث كانت تقف أول مرة، تركها وأردف بنبرة تجمع بين الجدية والعبث:

- ركزي معي، أملك أداءً سيُبهرُك للغاية، ستكونين أختي، ستصرخين بوجهي، وسأصفعك بقوة، يجب عليك حينها أن تسقطي أرضاً وتبكي و...

- عاصف...!

كانت هذه الخالة سعادة، تقطع عليه استرساله في شرح المشهد، وقد جاءت تبحث عن سلام، عندها لم تجدها حيث تركتها، لكنها بمجرد أن شاهدت عاصف علمت بأنه يمارس عمله في خداع الحمقاوات، ويقوم بتوريطهن في شيء ما! اقتربت منهما ووجهت اللوم نحوه، قائلة:

- دع الفتاة وشأنها على الأقل حتى تعتاد... إنها جديدة في النعيم على ما يبدو.

- أنتم مجموعة من المجانين... أخرجوني من هنا.

كان زعرها قد وصل إلى حد الاكتفاء، دفعتها ومرت من بينهما بنظرات مذهولة، ضائعة بين الممرات الكثيرة، مما جعل سعادة تهتف بغیظ منه:

- الحق بها ستؤذي نفسها.

اضطر عاصف إلى السيطرة على تخطيطها بين الممرات؛ بأن كبّلها من الخلف بيد ومكّمًا فمها الصارخ باليد الأخرى، جرها تجاه سعادة مجددًا، والتي أمسكتها من كتفيها، تهتف بها بصرامة:

- أنتِ لست حبيسة هنا يا بلهاء... سيدلّك عاصف على طريق الخروج، حتى لا تتأذي.

عاودت سلام التملص، كأنها لم تسمع حرفًا صائحة:

- اتركوني...

صفعتها سعادة لتسكتها، وأمسكت بوجهها بقسوة، وقالت وهي تضغط أضراسها:

- هذه الممرات خطيرة... من يدخلها دون إذن يدفع حياته ثمناً لتهوره.

همس عاصف، وقد قرر إنهاء العراك غير المتكافئ:

- سأخرج وسأخذها معي يا خالة.

كانت تضع كفها على خدها المصفوع مصدومة، تنقل بصرها بينهما، رأتها تومئ برأسها موافقة على اقتراحه، فتركها على الفور، وأمرها بأن تتبعه دون أن تفتح فمها من جديد، إنها كارثة متحركة، تتصرف كما لو أنها ثور حبيس ينتظر لحظة خروجه إلى ساحة العرض!

أشار لها أن تتبعه ففعلت بتوجس، تراقبه هو والجدران الصماء من حولها، تعجبت حين وجدته يسير في أحد الممرات المواجهة، حيث فتحت عينيها لأول مرة، كان ممراً قصيراً للغاية، في نهايته درج طويل يصعد للأعلى، تسلقه عاصف أمام عينيها فصعدت من خلفه، وعند آخر سلمة منها دفع الباب الحديدي بيد واحدة، فانفتح بكل سهولة.

بالفعل لم تكن حبيسة كما قالت سعادة، كان الباب دائماً قريباً منها، لكنها منذ وعت على الدنيا وقد اعتادت أن تكون سجينة شيء ما. استدار يبسط كفه في محاولة لمساعدتها لكنها رفضت، خرجت من الباب فاصطدمت بأشعة الشمس فوق رأسها، شعرت بالدوار وهي تغلق عينيها متألمة، الحرارة تحرقها كأنها لم تتعرض لها منذ زمن بعيد. سمعته يسألها بحرص:

- هل أنتِ بخير؟

همهمت وهي تحاول البحث حولها عن أي شجرة تستظل بظلها لكنها لم تجد. أرض ترابية ممتدة، ومن بعيد سور قصير لم تتبين بماذا يُحيط، لكن كل شيء حولها يخبرها بأن هذا المكان غير مأهول. لماذا تقفان هكذا؟!

التفت كلاهما على وقع نهيق الحمار المدمدم وهو يجرُّ العربة الخشبية، حيث جلست المرأة السمراء تمسك باللجام بيدها الممتلئة، بينما أسندت يدها الأخرى إلى حافة المقعد الخشبي. مالت بجذعها إلى الأمام قليلاً لتفحصهما بعين خبيرة، كأنها تقرأ ما وراء ملامحهما منتظرة إجابة سؤالها.

قال عاصف بغموض:

- كنا في نفق النعيم.

حولت المرأة نظراتها المتفحصة إلى سلام، تُعاینها وهي ترفع يديها لتزيد من شد وثاق وشاحها الأسود خلف رأسها وتربطه بعزم، بينما تُدقق بعينيها الزرقاوين وتسألها:

- من أي بيت أنتِ يا فتاة؟

نظرت سلام إلى الوشم الذي تدقه المرأة أسفل شفتيها، وإلى طريقة جلستها بينما جسدها الممتلئ يميل بجذعه صوب اليمين قليلاً، كأنها لا تستطيع الجلوس باستقامة دون أن تستند هنا وهناك.

هل المرأة تترنح أم هي التي... تسقط!
صاحت المرأة وهي تشير إلى سلام التي دار رأسها وفقدت الوعي فجأة:

- من هذه الحمقاء يا عاصف!

لم تعرف كم مرَّ من الوقت، لكن حين فتحت عينيها وجدت نفسها في كوخ خشبي ضيق، جدرانه ألواح متشققة تتسلَّل منها خيوط ضوء هزيلة، فتترك الغرفة نصف غارق في العتمة ونصف يرتجف بوميض خافت.

رائحة الأعشاب المعلّقة في عناقيد عند السقف منحت المكان دفئاً مألوفاً، غير أن دخان موقد الفحم في الركن نسج غلالة غامضة، كأن كل نفس هواء يخفي سرّاً غامضاً لا يريد أن يُفصح عنه.

كانت ممددة على فراش من قش مُغطى بقطعة قماش خشنة، وإلى جوارها دلو خشبي نصفه ماء، ارتجفت وهي تحاول النهوض، يتنازعها خوف مبهم وفضول يجزُّها لاكتشاف ما حولها.

فجأة، ارتسمت عند العتبة هيبة جسد المرأة السمراء، تستند بيدها إلى خصرها، وعيناها تلمعان بنظرة أمرة يصعب تفسيرها.

صاحت بصرامة هادئة:

- اجلسي مكانك يا فتاة... ما زال رأسك يدور...

تقدمت بخطوات وثيدة، يئن الخشب تحت ثقلها، والضوء المتسلل يرسم ظللاً متكسرة على وجهها، للحظة بدت ملامحها قاسية، لكن في بريق عينيها واهتزاز صوتها خيط رفيع من عطف لا يمكن إنكاره.

توقفت قرب الفراش، ثم انحنت قليلاً، وغَمست يدها في الدلو، تساقطت قطرات الماء على الأرض الخشبية قبل أن ترفع كفها، وتضعها فوق جبين الفتاة، كانت اللمسة باردة كنسمة ليلٍ تخترق العظم، فأثارت في جسدها قشعريرة، لكنها في الوقت نفسه أزاحت عنها وهج الحمى، فاستسلمت لشعور مريب بين الراحة والارتياح.

قالت القابلة بصوت يمزج بين التحذير والرعاية:

- لا تخافي... هذا كوشي، وأنا أكون القابلة.

شعرت سلام بانقباض قلبها، كأن جسدها يشكر اللمسة في حين عقلها يصرخ بالتحذير، أرادت أن تسأل، لكن لسانها انعقد، وظلَّت عيناها تراقبان المرأة، تترصّدان كل حركة من يديها، كل التفاتة من رأسها.

كانت الأسئلة تتصارع في صدرها مع الخوف، كيف تسأل عن أولئك الذين غرق قاربهم في رحلة هروب يائسة؟ أترى تعرف القابلة شيئاً عنهم أم أن مجرد ذكرهم قد يعرضها لخطر أشد؟

لمحت القابلة الاضطراب في عينيها، فابتسمت ابتسامة خافتة لم تدرِ أهي سخرية أم شفقة، ثم همست:

- عيناك تتحدثان أكثر من لسانك...

أطرقت سلام للحظة، ثم تمتمت بصوت مبحوح، وقد قررت عدم المخاطرة:

- أنا... لا أتكلم لأنني لا أتذكر شيئاً.

ارتفع حاجبا القابلة قليلاً، وبقيت تحدّق إليها بصمتٍ ثقيل، كأنها تزن صدق كلماتها، ثم أمالت رأسها وقالت ببطء، بنبرة غامضة:

- ربما... النسيان نعمة.

ثم استدارت بخطواتها نحو الموقد، رفعت غطاء إناء فانبثق بخار نفاذ، تفوح منه رائحة أعشاب ممزوجة بحبوب لم تستطع سلام تمييزها. وسكبت شيئاً في وعاء فخاري صغير، ثم التفتت إليها قائلة:

- حرارتك مرتفعة قليلاً... ستأكلين أولاً وبعدها يمكنك البقاء هنا معي... حتى تستعيدي ما ضاع منك.

كان أشدّ ما تخشاه حين فتحت عينيها في الليل أن تعود إليها تلك الحالة القديمة؛ أن تستيقظ لتجد قدميها عاجزتين عن الحركة، كما كان يحدث لها كلما اجتاحتها الخوف حتى يُشل جسدها مؤقتاً.

مدّت أطرافها بحذر، فإذا بها تتحرك بخير، فتنفّست بارتياح التفتت نحو النافذة الصغيرة للكوخ، فوجدتها غارقة في السواد؛ أدركت أنها أفاقت في قلب الليل، بعد أن نال جسدها قسطاً كافياً من الراحة.

لكن ما إن همست الكلمة في ذهنها -الراحة- حتى انقضّ عليها السؤال المفزع؛ ماذا كانت تفعل قبل أن يعود لها وعيها في الأنفاق؟! أم أنّ الغرق هو الذي سلبها ذاكرتها بالفعل؟

عند الركن البعيد من الكوخ، أبصرت القابلة ممدّدة على حصير آخر، تغطي نصف جسدها فرش بالية، وصدرها يعلو ويهبط ببطء مع أنفاس نوم عميق، ظلّ ضوء القمر المتسلل من شقوق الألواح الخشبية، يرسم خطوطاً باهتة على وجهها المسترخي.

نهضت ببطء من فوق الفراش، تتحسس الأرضية الخشبية التي أصدرت أزيزًا خافتًا تحت قدميها، ألقت نظرة سريعة نحو القابلة النائمة في الركن ثم مدّت يدها تدفع الباب الخشبي المتداعي بحذر.

صريره الخافت كاد يوقظها، فترددت لحظة، لكن فضولها تغلب على الخوف، انفرج الباب لتجد نفسها في الخارج، هواء الليل يلفح وجهها برطوبة باردة، ورائحة التراب المبتلّ تعبق في المكان.

لم يكن حولها سوى صمت كثيف يخترقه بين حين وآخر نقيق ضفادع بعيدة، يبدو أن هذه الأرض مليئة بالبرك! قفز عجوز البركة فجأة إلى أفكارها فنفضت رأسها لتبعده عن عقلها، تحتاج الآن إلى أن تفهم، لا وقت للذكريات الحزينة المرعبة.

الكوخ خلفها غارق في ظلام ساكن خطت إلى الأمام بوجل، تبحث بعينيها عن أي أثر يدلّها، أين هي بالضبط؟ وما الذي يختبئ وراء هذا السور القصير الذي لمحت أطرافه من بعيد قبل أن تسقط فاقدة للوعي! في البداية كانت خطواتها بطيئة حذرة، كأنها تختبر الأرض تحت قدميها، لكن سرعان ما أخذت تتسارع مع انجذابها نحو السور القريب. كلما اقتربت، أخذت رائحة خانقة تشتدّ وتندفع بعنف إلى رئتيها، حتى كادت تسعل من شدّتها، الباب كان مُشرعًا أمامها، فتسللت منه في ارتباك، غير مدركة ما ينتظرها بالداخل.

وحين خطت أولى خطواتها، أدركت الحقيقة؛ طبيعة الرائحة التي غمرت صدرها لم تكن سوى رائحة الموت، أمامها انتصبت شواهد القبور في صفوف صامتة، مترصّة تحت ضوء القمر الباهت، كأنهم حراس أبديون يسدّون الطريق أمامها.

هذه ليست مدافن داو، هي أكثر من يعرف، لا تعرف عدد المرات التي زارت فيها قبر أبيها وأمها، تلقي السلام على أمها سريعاً ثم تمضي بقية وقتها تتحدث إليه، تخبره أنها بخير.

حتى الليلة التي سبقت اختيار الغراب لها، ذهبت إليه قبل أن تذهب إلى العجوز وأخبرته أنها بخير وأنها ستبقى محتفظة بقلادته، كانت على يقين من أن قلادته ستحفظها لأنه فقط أخبرها بذلك يوماً ما، لكنها لم تفعل، لم تحفظها؛ اختارها الغراب، حُبست في غرفة الأسياد، ثم بقيت في قصر مهجور، وأخيراً غرقت بين أمواج هادرة، فانتزعتها بنفسها وألقتها كأنها لا تريد الموت وهي ترتديها، تصرف طفولي لكنه يشبهها.

لم تكن تُدرك أنها لا تزال تسير بين شواهد القبور، حتى أثار انتباهها جدارٌ مبنيٌّ حول مدفن ما، كأنه قبر اقتُلِع من داو وزُرع هنا، مدفن خاص له سور خاص به، وعندما دققت النظر، أصابتها الدهشة، لماذا يتركون الباب مفتوحاً هكذا؟!

دفعت الباب بخفة، وقبل أن تنظر في الداخل أحست بلفحة هواء بارد لامس عنقها، همهمة واهنة ارتدت من الجوف المظلم، كأن أحدهم يناديها باسمها في سرٍّ دفين.

في اللحظة نفسها دوى نعيق غراب فوق رأسها، وانقض على كتفها، فصرخت... ثم شعرت بيد تجذبها للخلف بقوة، وصوت القابلة يهتف بها بغضب:

- ماذا تفعلين هنا؟!

استدارت صوب المرأة، وإذا بالغراب قد اختفى كأن لم يكن.

أشارت سلام إلى الباب، تقول مُتلعثمة:

- أضعت طريقي... وكان الباب مُشرعًا.

لكن عينيها المتسعيتين خوفًا اصطدمتا بالباب المغلق بإحكام،
سلسال حديدي وقفل ثقيل يشدان أطرافه!

ارتجفت أصابعها، وظلت تتلعثم وهي تشير للباب تارة وللسماء
تارة، تبحث عن الغراب الذي تبخر، وحين التقت نظراتها بعيني القابلة
وجدت الغضب مُتقدًا فيهما، لكن خلف ذلك الوميض القاسي لمحت
شيئًا آخر...

ظلَّ خوف سريع تواري كأنه لم يكن، ارتجافة عابرة في الحدقة، كأن
المرأة نفسها تعرف أن ما حدث لتوه لا تفسير له.

قبضة القابلة على مرفقها ازدادت قسوة، كأنها تخشى أن تفلت
ثانية، هزّت رأسها باقتضاب، ثم جذبتها خلفها دون أن تمنحها فرصة
للمزيد من الكلام.

كانت خطواتها سريعة رغم ثقل جسدها حذرة، تتعثر أحيانًا بين
الشواهد الحجرية، فيما سلام تُساق خلفها كطفلة مُذنبه، كلما حاولت
أن تلتفت للخلف لترى الباب أو السلسلة أو حتى الغراب، كانت يد المرأة
تشدها أكثر، فتغلق الطريق أمام عينيها.

لم تتكلم القابلة بكلمة، سوى شهيق مكتوم كأنها تُحارب خوفًا لا
تريد الاعتراف به، وما إن تخطّت السور وبدت العربة الخشبية الصغيرة
المستندة إلى جدار الكوخ، حتى دفعتها القابلة إلى الداخل، أغلقت الباب
خلفهما بقوة، وارتد الصدى في أركان الغرفة الضيقة.

جلست المرأة على مقعدها الخشبي مُتثاقلة، مدت يدها تلتقط
وشاحها وتشده حول رأسها أكثر، ثم حدّقت في سلام بصرامة، وقالت
بنبرة امرأة:

- لن تقتربي من هناك مرةً أخرى، أسمعِ؟

شعرت سلام أن سؤالها قد يتفجر من بين شفيتها!

لماذا كان الباب مغلقاً بعد أن كان مفتوحاً؟ لكن شيئاً في عيني القابلة جعلها تصمت، كان فيها ذاك البريق نفسه الذي لمحتة عند المدفن؛ بريق خوفٍ لم تستطع المرأة طمسه.

الفصل الثالث

الضفاف

لم يكن الوصول إلى تلك الضفاف أمرًا ميسورًا؛ فمِنذ أن انتهت العاصفة وهدأ الموج حالت الموانع المائية دون أن يجرؤ أحد على العبور.

حبال سمكة وحواجز خشبية غُرست في القلب، تفصل داو عن القبيلة وعن كل ما حولها، كأنها سدٌ يحمي أرضًا لا يجوز أن تُمس. كانت العيون تكتفي بالمشاهدة من بعيد، والخرافات تحكي عن أسرارٍ لا تُروى.

لكن الحاكم، في لحظةٍ غامضة، أمر بإزالتها تلك الليلة فقط حتى يمر القارب الوافد إلى ضفاف داو.

بقرارٍ واحد، ارتفعت الحواجز، كأنها شُقَّت لتُفسح الطريق، فتهاذى القارب في هدوء، محملاً بوجوه نسائية متشابهة في صمتها ورهبتها، عليهن أردية سوداء داكنة، لم يتبادلن كلمة، إنما همهمات متقطعة خرجت من أفواههن، همسات أقرب إلى التراتيل منها إلى الكلام العادي.

كان في الوجوه تباينٌ صارخ؛ بعض النساء في نهاية القارب جئن بملامح هادئة مطمئنة بين السعادة ونشوة المغامرة، يرتدين ملابسهن العادية التي تشي باختلاف شرائعهن، والتي توحى بأنهن ينتمين إلى طبقات مُترفة.

كان المشهد أشبه بموكب جنازتي عائم، يسير ببطء على صفحة الماء التي انعكست عليها الغيوم الرمادية، حين رست القوارب على ضفة الجزيرة، مدَّ الجسر الخشبي الضيق ذراعيه فوق الطين كمعبرٍ هش بين الماء والأرض.

تقدّمت النساء واحدة تلو الأخرى، تترنح خطواتهن فوق الألواح التي صارت تصدر أنيناً مع كل وطأة، كأنها تحفظ عدد العابرين إليها.

كان الهواء يزداد ثِقَلًا عند منتصف الجسر، ورائحة الطحالب المختلطة بالدخان تُحاصر أنوفهن كأنها أنفاسٌ تتصاعد من تحت الأرض.

وعندما بلغن نهايته، انكشفت أمامهن الخيمة؛ شامخة ككائن ينهض من رماده، قماشها الناعم يتماوج مع الريح كأنه يتنفس، لم تكن الخيمة مجرد مأوى، بل بدت كفمٍ هائل، مُعلّق ينتظر أن يبتلع الداخلين.

الفوانيس المعلقة عند مدخلها لم تزد المكان إلا غموضاً، تُضيء الوجوه للحظة ثم تتركها نهباً للظلال، هناك، على العتبة التي تفصل الجسر عن الخيمة، كان الفرق واضحاً؛ النساء صاحبات الأردية السوداء يمضين بخطى واثقة، عيونهن معلقة بما ينتظر في الداخل، أما الأخريات ترددن لحظة، ما زلن يتشبثن بوهم أن هذا كله سبيل إلى الاسترخاء والسلام النفسي، لا إلى طقسٍ يستحيل الرجوع منه!

فجأة دوت صرخة من الخلف لثانية، ثانية واحدة واختفى الصوت،
التفتن بلامح مبهوتة خائفة، كان الجسر في المقدمة يترنح كالثمالة،
وجواره في الأسفل بدت بقعة طين كأنها عين تُغلق على شيء ما.

بحثن فيما بينهن، كانت هناك امرأة مفقودة، صاحبة الحجاب التي
تلقي بطرفه على كتفها كاشفة نحرها، إنهن يذكرونها جيدًا، فهي
الوحيدة بينهن التي كانت تثرثر طوال الطريق عن رغبتها في الحصول
على شهادة معتمدة لافتتاح مركز للعلاج بلغة النور!

وضعن أكفهن على أفواههن بلوعة، وقد تيقن أن الصرخة ندت عنها،
كيف سقطت رغم الحواجز! كيف ابتلعها الطين بهذه السرعة والسهولة!
لم تكن سوى ثانية!

تخبطن اضطرابًا واحتشدت الصرخات في صدورهن استعدادًا
للانطلاق وهن يستمعن إلى أصوات القضم والبلع التي تأتي من كل
مكان.

وقبل أن تفتح إحداهن فمها شاهدن ما هو أبشع يحدث في الطين.
لقد كان الطين نفسه يتبدل؛ اللون البني الغامق يذوب شيئًا فشيئًا،
ليحل مكانه سوادٌ مطفأ، يتصلب كأنه رماد متحجر.

بدت الأرض كأنها تخلع جلدها القديم لتكشف عن طبقة أعمق؛
طبقة من رمال سوداء تبتلع الضوء والفتيات معًا، جحظت أعينهن رعبًا
فالتفت حولهن النساء ذات الأردية السوداء تتمايل شفاههن بعباراتٍ من
نصوص قديمة محفوظة بخشوع!

صمت كل شيء من حولهن، وهن يتحركن كدائرة باتجاه الخيمة
التي يقف عابد على عتبتها يراقب ما يحدث من كذب، ووجهه في الظلام،
وشفتاه تردد حروفًا مقطعة لا تكون كلمة، ولا تعطي معنى!

في الداخل، كانت الخيمة مُظلمة، إلا من وهَجٍ متقطع يتسلل من فوانيس قليلة، الهواء أثقل من الخارج، الدخان يدور... تصدر عنه همسات تتعالى كأنها بقايا أفكارٍ تُعاد صياغتها.

هناك، عند قلب الخيمة، جلس عابد، لا تعلم إحداهن متى دخل الخيمة خلفهن ومتى جلس! كان حضوره غير عادي، تومض عيناه اللتان لا تهدآن، تحيط به مقاعد خشبية منظمة دائرية عددها هو نفس عدد الفتيات منعقدات الحناجر داخل الدائرة، صاحبات السواد أجلسن كل واحدة منهن على مقعدها، ووقفن خلفهن واضعات أيديهن على أكتاف الفتيات.

صمتت الخيمة بمن فيها، وبدأ أول طقس شيطاني على أرض كانت بريئة!

- ماذا تخفي؟

- أسألي شياطينك!

- أنا في صفك.

- ابحثي عن غرٍ غيري.

حوار عادي يدور بين عابد ولىلى كلما انعقدت جلسة الشورى كما يسمونها، في قاعة الاستقبال لقصر الحكم وهم في انتظار عظيم داو «لقبه المُحبب» الذي تأخرت طلته عليهما، حتى حضر آصف.

المقاعد من حول الطاولة بدت أكثر صلابة من الوجوه الجالسة عليها، لا وسائد لا راحة، كأن المطلوب من الحضور أن يتذكروا دائماً أنهم خدم.

وجوار المدفئة المشتعلة في صدر القاعة، انتصبت طاولة الشطرنج العتيقة، مربعاتها السوداء والبيضاء، كأنها مرآة لعالمهم الملتبس، لا شيء فيها متوازن سوى الوهم، القطع مُرتَّبة بعناية، لم يتحرك فيها سوى القطع الثانوية، بينما الملك الحقيقي غائب، والعرش ينتظر خطواته.

كل التفاصيل تؤكد أن هذا المجلس لا طائل منه، ما دام «عظيم داو» يعرف كل شيء قبل أن يُقال، وما دامت شياطينهم تسبقهم بالخبر، والسِر، والهمس! فما الفائدة من حضورهم كل مرة!

خيم صمتٌ غريب، كأن القاعة تحبس أنفاسها تتربص أنفاس سيدها، عندها انبعث صرير حديدي مكتوم من آخرها، عند السلم الكبير المؤدِّي إلى الطابق العلوي، وانزاح ببطء مصراع ثقيل، كأنه يتأوه وهو يفسح الطريق.

انكشفت فتحة سرداب معتم، فتدفق منها هواء رطب، له رائحة أرض غُيبت خلف الحديد، تسللت إلى الصدور فأثقلت التنفس.

ثم خطوات متأنية أخذت تضرب الأرض بوقعٍ محسوب، وارتفع ظلٌ طويل قبل أن يظهر صاحبه، كأن الظل يتقدمه يعلن عن حضوره.

ثم ظهر من جوف سرداب، يجمع في حضوره تناقض الصعود والنزول؛ خارج من عمق سفلي، متشجُّ بأثر الظلمة التي خرج منها، ليجلس على العرش العلوي، مكانه المفضل، حيث لا يعلوه أحد!

وقفوا وقد غشيتهم الرهبة كما يحدث دومًا، جلس بثقلٍ مهيب، مسندًا يديه على ذراعي المقعد، وعيناه تجولان بين الحاضرين، كمن يعرف مواقعهم على الرقعة قبل أن يبدأ اللعب وهو يشير إليهم بالجلوس.

لم يستطيعوا يوماً مجابهة نظراته، تلك النظرات التي تنخر عقولهم كأسيخ مُنصهرة وتصل حتى العمق، حيث الألم الحقيقي، الرغبات المخفية، الشر الخام قبل تطعيمه بالخديعة والغدر، بل وتغليفه بالنصيحة الأخوية أحياناً!

أرسل نظره نحو عابد مبتدئاً به، وبنبرة ثقيلة لها صدى قال:
- هات ما عندك.

سمعتة ليلى القريبة منه يبتلع ريقه، ثم يتنحّج وهو يجيبه باحترام:
- ما أمرت به تم بغير نقصان.

- هل عادوا من حيث أتوا سالمين؟
- نعم سيدي...

تلكاً هنيهة ثم تابع مؤكداً:

- ومعهم من سيتولى أمرهم فيما بعد، حتى يعودوا مجدداً بوفد جديد.

- لا ترسل إليهم خدمة قبل أن تمنحهم شهادة معتمدة... أنا لا أفضل التسلق الوظيفي.

قالها وضحك ساخراً فارتدت ضحكاته بين الجدران في موجات ترددية تشبه الأصوات المتداخلة.

ابتسم ثلاثتهم باضطراب، وقد زاغت أعينهم، لقد قابلوه لسنوات، وتلقوا منه الأوامر مراراً وتكراراً، لكنهم في كل مرة يرتفع وجيب قلوبهم عند سماع صوته، وخاصةً بعد العاصفة، وبعد أن غرق جلال الدين ورفقته.

لقد بدى لهم أن ملامحه تغيرت بشكل ما، ونبرته باتت أعمق وأشد ثقلًا، وحين يختار أن يضحك تلك الضحكة الغريبة الآتية من زمن سحيق، تتسارع نبضاتهم بجنون حتى يرحمهم ويتوقف!

أوماً عابد برأسه يوافقه مرتبًا، وهو يراه يعود بعينه إلى ليلي، فتتنفس براحة مدرِّكًا أن دوره قد انتهى سريعًا، ليته يستطيع منع نفسه من الرجفة التي تسري في عروقه الآن دون سبب، إنه يُنفذ كل ما يؤمر به، مثلها تمامًا.

- ليلي... عزيزتي.

قبل أن تتكلم أوقفها بإشارة من سبابته وقال أمرًا:

- ستنتقلين إلى المدينة.

نظرت حولها فابتسم مُظهرًا التعاطف الساخر وهو يُعقب على نفسه:

- أهل المدينة في حاجة إلى مواهبك أكثر من أهل داو.

استند بظهره للخلف، فبدأ لهم أن جسده يتماهى مع العرش، ويمتص لونه كالحرباء، زفر زفرة حارة فشعروا بحرارتها تخنق أنفاسهم، ثم قال:

- هنا لا ضرورة لدى الناس لمعرفة المستقبل، فلقد بات مستقبلهم كحاضرهم لقمة ونومة وانتهى... أما أهل المدينة...

صمت، وترك أفكارهم تتضارب وتضطرب، قالت ليلي بصوت خفيض في محاولة أخيرة لأن تبدو غير مبالية:

- فقط ضع قدميَّ على الطريق، وسأنجز ما تأمر به.

مال قليلًا إلى الأمام، يعاين تفاصيل وجهها وهندامها، ورفع حاجبه، كأن عينيه تنقبان عن الكذب بين مسام جلدها وقال:

- سنغير مظهركِ كثيرًا... يجب أن تشبهي كل مكان ستذهبين إليه،
وتتعلمين لغة أهله...

حرك رأسه جنبًا بشكل مبالغ، وهو ما زال يدرس وجهها، ويردف
هامسًا:

- سأرسل معكِ خدمة تهمس لكِ بما ستخبرينهم من نبوءات.
ارتجفت يداها في حجرها، تردد خفيٌّ يزحف نحو عقلها، لكنها
تجاهد لتوقف زحفه، فأفكارهم جميعًا مكشوفة أمامه، قالت كأنها تسأل
سؤالًا عابرًا:

- هل سأظل هناك؟

انفجرت شفاته، كصدع في صخرة قديمة، وانتشرت نبرة صوته في
صدورهم كدخان أسود:

- لن تكوني وحدكِ، سنلحق بكِ حتمًا، واحدًا تلو الآخر، حتى يحين
موعه.

ازداد ارتجافها، وقرأ في أعين ثلاثتهم سؤالًا عن من يقصده حين
قال موعه؟! فلم يعبأ، يكفي أن ترتعب أمامه هكذا، يكفي أن يرتعبوا
جميعًا.

تابع ملتفتًا عنها، موجهًا حديثه نحو عابد:

- لا تخش شيئًا يا عابد، فالخدمة التي سأرسلها معها، مختلفة عن
خدمتك.

انتبه عابد من شروده الذي ينتابه بينما يتحدث إلى غيره، كأن عقله
يُجبر على أخذ قيلولة قصيرة، فأجابه مأخوذًا:

- هه... نعم سيدي!

ضحك «عظيم داو» حتى اهتز العرش من تحته، والتفت نحو عابد بكل كيانه ويهتف بحماس ساخرًا:

- أخبرها يا عابد... أخبرها عن خدمتك لتطمئن.

وحين ارتبك عابد وقد علم أنه قرأ ما يدور في عقل ليلي، فهي تحارب لتعرف ماذا يفعل في الخفاء، ما تلك الخيمة التي بات يسكنها عند الضفة القريبة من قصر صقر القاسم، ويجري التجهيز بها على قدمٍ وساق، ولماذا يرفض أتباعها ممن تُسخرهم أن يخبروها!

تخشى أن يحدث معها كما حدث مع زوجها سابقًا، حين أقصاه الحاكم وقرر الاستعانة بغيره، منع عنه المعرفة، وامتنعت شياطينه عن طاعته، واضطره ذلك إلى الصعود إلى قمة جبل داو، لتجديد العهد وتقديم فروض الطاعة، وهناك... كان سيلقى حتفه على يد أحد المردة! شحب وجه عابد، حين ارتفعت وتيرة حماسة سيدهم، ونهض مقتربًا منهم حتى وقف خلف عابد، واضعًا يده على كتفه كما فعلت النساء ذوات الأردية السوداء.

علت نبرته المتداخلة بتردداتها، مما ألم آذانهم، وهو يهتف بطريقة مسرحية:

- حدثهم عن الزائرات، وطقوس الخيمة البيضاء، حتى تطمئن عزيزتنا ليلي، أخبرهم عن العلاج باستخدام لغة النور، التواصل مع الكون!

انتفض عابد شاعرًا بأن كتفه تحترق، لكنه لم يجرؤ على النهوض، ظل خانعًا وقال بصوت يرتعش تختلط فيه الرهبة والألم:

- إنهن يسترخين... حتى يصلن إلى السكينة والسلام الخالص... وعندما يفعلن... لا بد وأن تقول كل واحدة منهن أنها توافق على

استقبال التواصل مع الكون... وحينها... تبدأ الطقوس، وأسلمها إلى أحد أتباعك سيدي... بينما تؤمر هي أن تستسلم لكل الخواطر التي ستأتيها ولا بد وأن... تصدقها.

زاغت نظرات آصف، لا يعرف ما دوره بينهم حتى الآن، إنه شيخ قبيلة وفقط، لا هو ساحر ولا تتحدث إليه الشياطين، لقد لجأ إليهم مرتين أو ثلاثاً، وكانت لضرورة!
- خطأ.

تنفس عابد بقوة عندما ترك كتفه، ومضى تجاه آصف، لقد قرأ أفكاره وأجابه بكلمة واحدة، جعلت وجه آصف يشحب كالأموات، وهو يشعر بتقدمه تجاه مقعده من الخلف.

لا... ليس هذا الشعور المؤلم مجدداً، عندما يتحدث إليه من هذا القرب، يظل عدة أيام بعدها يشتكي من طنين أذنيه الذي لا يتوقف ليل نهار.

- خطأ يا آصف... لقد تواصلت أنت أيضاً مع أتباعي... أم أنك نسيت؟ لا، لم ينسَ، لكنه كان مضطراً عندما ذهب إلى دجال القبيلة، قبل أن يرحلوا عن أرضهم وينتقلوا إلى أرض داو.

قدّم قرباناً، اتفق مع عابد، خيانة، غدر، وماذا يعيبه في هذا، الحرب خدعة!

لم يكن يستطيع أن يكمل ما بقي من حياته تابعاً لشمس ونصر، أبناء الراوي وتناقل المشيخة بينهما هما وأولادهما، بينما يقف هو مجرد متفرج، منفذاً لما يتزود به من قرارات.

انتقالهم من أرضهم إلى داو، كان بمنزلة قبلة الحياة، مُنحت له ليسود هو وذريته، وهو لم يفعل سوى أن استغل الفرصة، ولقد نجح...

حتى الآن، كل ما خطط له تم على أكمل وجه، خدمته الظروف بأقصى ما تستطيع.

- أنت مهمتك مختلفة عنهم يا آصف.

أفلتت منه شهقة خفيضة، وقد تفاجأ به يُوجه له العبارة السابقة وهو جالس على عرشه، متى ذهب، متى جلس... منذ متى وهم يسألون هذه الأسئلة منذ أن عرفوا حقيقة كينونته!

- الأيام القادمة ستكون على كاهلك مهمة عظيمة.

أرهف آصف السمع؛ سواء أراد أم لا:

- مهمتك الأولى هي بيت نصر الراوي.

عقد آصف ما بين حاجبيه، محاولاً تجاوز الخوف والتركيز فيما سيُقال:

- ضع عيناً لك بالداخل.

- لا أفهم!

رفع حاجبيه وهو يميل برأسه جانباً بنظرات خبيثة، أردف آصف مرتباً وقد شك في قدراته:

- أقصد... لماذا؟

- ليس من شأنك... نفذ بأي طريقة كانت.

لأول مرة يشعر بالغباء، عيناه الغائرتان تتلفتان دون أن يجرؤ على رفع رأسه، فكرة وحيدة حانقة تدور بعقله؛ لماذا لا يرسل شياطينه هو وينتهي الأمر في لحظات!

لكن الإدراك ضرب عابد كالصاعقة فصرف أفكاره سريعاً؛ على الأقل في هذه اللحظة.



كانت تجلس على الأريكة مُستندة إلى حافة النافذة شاردة كما هو حالها منذ أن عادت إلى حجرتها، ممتنعة عن الحديث معه، كأنها تعاقبه، كأنه يعبأ!

لكن الأيام تمر، ويبدو أن خصامها يروقه، إنه حتى لا يحاول! اليوم هو الأشد وقعاً عليها؛ زهرة مختفية منذ أمس، وعندما ذهبت إلى دار والدها قال إنه لم يرها، ترى أين أنتِ يا رفيقة؟ هذا الاختفاء غريب، خاصةً وهي تعلم أنه موعد زيارة القابلة، لتمنحها أملاً، أو ترمي الخبر في وجهها كما تفعل كل مرة، بأنها لا تزال أرضاً بور، كما ينعتها خاطر.

تنهدت مُتחסرة وهي تراقب الطريق من خلف النافذة المواربة، فترى القابلة بجسدها الضخم تقترب من الدار.

إنها تكرهها بشدة، ليت لديهم طبيبة تهتم بشؤون النساء في القبيلة، لكنهم لا يملكون سوى وحدة صحية صغيرة عبارة عن غرفة واحدة يسكنها طبيب واحد ومُطالِب بعلاج كل الأمراض، ولا تجرؤ واحدة من نساء القبيلة أن تلجأ إليه.

وهي صغيرة كانت تستمع إلى والدتها وهي تحكي عن الدجال الذي هو ذات نفع أكثر من الطبيب نفسه، بل وأجرته أقل بكثير، وربما لا يطلب أجره من الأساس، ويرضى بفروجة أو قسط من الحليب، أو فخارة قشدة!

فُتح الباب فجأة دون إذن ودخلت القابلة التي تشبه مشيتها البطريق، بينما يقف خاطر خلفها، لم يتجاوز عتبة الباب وعيناه تلمعان بشماتة... كأنه يعرف!

قالت القابلة وهي تربط على ساق قمر مواسية:

- أي بُنيّة... لا تزالين عروسًا... تحلي بالصبر... حتى يتم المراد.
قامت بتغطية ساقها، اعتدلت لتنهض ببطء، فجذبها خاطر من
ذراعها متأففاً، يستعجل انصرافها، ففعلت دون أن تواسيه بالصبر
كما تفعل مع كل الأزواج، رأسها كان مطرقاً لكن قمر قرأت في نظرات
القابلة الكره لخاطر، يبدو أنها كانت الحمقاء الوحيدة في القبيلة لتحب
رجلاً مثل خاطر!

اقترب من الفراش، ووقف يُعدل هندامه ويقول ساخراً:

- لقد نفذ رصيديك يا ابنة فاضل.

اعتدلت وبدأت ترخي عباؤها وتسأله:

- ماذا تعني؟

- سأتزوج.

شهقت، وحدقت إليه وهي تتمتم مذعورة:

- إنهم سبعة أشهر فقط.

ابتعد عنها يمشي بخيلاء، مقترباً من الأريكة عند النافذة ويجيبها
بتراخ:

- لم تسأليني عن العروس!

تشنج جسدها وشحب لون وجهها، تعلم أن عاداتهم لا تمنحها رفاهية
السؤال حتى، بل من الممكن أن تستيقظ صباحاً، فتجد امرأة أخرى في
دارها، تشاركها كل شيء، فتقول صباح الخير، وتحضر الفطور، وتتكلم
عن أحوال الدجاجات في الحظيرة!

لم تكن تظن أن الرحى ستدور، ويأتي دورها بهذه السرعة، ليس
لأنها تثق به، أو حتى تثق بنفسها؛ بل لذلك الشعور الذي يمتلكنا جميعاً:

بأن هذه الأشياء تحدث للآخرين فقط، أما نحن فبعيدون جدًا عن طريق القطار، ولا نفيق في الغالب إلا ونحن نرزع أسفله!

لقد شعر بالضجر، إنها لم تسأل، تشيح بوجهها بعيدًا، شاردة، يندفع الشغف في أوردته، يصبو إلى اللحظة التي ستعرف فيها، ستشعب أكثر بالتأكد، وربما تهاجمها أزمة قلبية، وتلقى حتفها في التو، لحظة رائعة، ينتظرها كل زوج مخلص مثله!

- ما رأيك في زهرة؟

لو كان للشماتة رائحة لفاحت من فمه! وهو يراها تستدير نحوه بكل جسدها ببطء، حتى إنه راقب الأرض من حولها يتساءل عن أي موضع سيسقط فيه جسدها.

- ماذا تقول؟!

قال متصنعا الملل:

- هل تحفظان هذه الكلمة معًا!

اتسعت عيناها وصرخت:

- هل أخبرتها؟

وضع كفه على أذنيه، زامًا شفثيه مدعيًا الانزعاج:

- هل تخططين لإصابتي بالصمم قبل عرسي!

اندفعت نحوه دون حساب، تشبثت بملابسه متسعة العينين تتوسل:

- أرجوك لا تفعل، ليست زهرة... اختر غيرها.

دفعها فتراجعت متعثرة بعباءتها الطويلة فسقطت، تقدم نحوها

منحنياً يضغط بسبابته على جبهتها، ينفث الحروف في وجهها نفثًا:



telegram @
yasmeenbook

- أُمَامَكَمَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، إِمَّا أَنْ تُجَبِّرِيهَا عَلَى تَنْفِيزِ أَوَامِرِ أَبِي، وَإِمَّا فَتُتَسَعَّدُ لِتُنْجِبَ لَهُ الْأَحْفَادَ، سِوَاءِ بَرَضَاهَا أَوْ دُونِهِ!

- مَاذَا تُرِيدُونَ مِنْهَا!

هَمَسَتْ مَرْتَعِبَةً، فَلَمْ يَعِيرَهَا اهْتِمَامًا، وَتَرَجَعَ مَعْتَدِلًا يَمْسُدُ فَوْقَ جِلْبَابِهِ وَيَضْبِطُ فَوْضَاهُ.

ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً بَارِدَةً لَا تُصَلُّ إِلَى عَيْنِيهِ، وَأَشَارَ بِسَبَابَتِهِ نَحْوَهَا مُحْذِرًا:

- اخْتَارِي يَا... قَمْر!

ضَحِكَ أَوَّلًا بِخَفَوْتِ، حَتَّى غَدَتْ ضَحِكَاتِهِ قَهْقَهَةً تَجْلِدُهَا فِي صَمِيمِ أَنْوْثَتِهَا، ثُمَّ أَرْدَفَ يَطْعُنُهَا بِخَنْجَرِ عِثَادَتِ نَصْلِهِ مِنْذُ تَزَوَّجَهَا:

- قَمْر! أَلَمْ يَجِدِ وَالِدُكَ اسْمًا غَيْرَ هَذَا؟ يَا لَهُ مِنْ مَنَافِقٍ!

وَدَعَتْ انْصِرَافَهُ بِدُمُوعِ غَزِيرَةٍ، لَا تَعْلَمُ كَمْ بَقِيَتْ مِنْكَمَشَةٍ عَلَى نَفْسِهَا فَوْقَ السَّجَادِ الْقَدِيمِ، لَكِنَّا غَفَتِ، كَأَنَّ عَقْلَهَا قَدْ قَرَّرَ أَنْ يَرْحَمَهَا وَلَوْ لِدَقَائِقِ.

وَعِنْدَمَا أَفَاقَتْ مِنْ غَيْبُوبَتِهَا مَتَأَلِّمَةً وَكُلَّ مَفْصَلٍ فِيهَا يَتْنُ، كَانَتْ دُمُوعُهَا قَدْ جَفَتْ، وَكَذَلِكَ ذَرَّةُ الْحُبِّ الْأَخِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرَعَاهَا حَتَّى لَا يَحْرِقَهَا بِأَفْعَالِهِ، لَكِنَّا احْتَرَقَتْ، صَارَتْ رَمَادًا، أَسْفَلَهَا جَذْوَةٌ كَرَاهِيَةٍ تَتَقَدُّ فِي صَمْتٍ.

عَلَى نَفْسِ الْأَرِيكِةِ الْمُهْمَلَةِ خَلْفَ الْبَابِ كَانَتْ تَجْلِسُ مُحْتَضِنَةً قَدَمِيهَا، تَحْدُقُ إِلَى الْجِدَارِ الْمَقَابِلِ، دُمُوعُهَا جَفَتْ عَلَى وَجْنَتَيْهَا الْمَتَوَرِمَتَيْنِ مِنْ قَسْوَةِ الصَّفْعِ وَكُحْلِهَا الَّذِي رَسَمَ خَطَيْنِ انْسِدَلَا، وَتَحُولًا إِلَى خُطُوطٍ مَتَفَرِّقَةٍ جَافَةٍ سُودَاءَ، مِمَّا مَنَحَهَا هَيْئَةً مَرُوعَةً، وَمَرْعَبَةً.

انخلع قلب قمر بمجرد أن دخلت الحجرة، وألقت نظرة عليها، هرعت نحوها بلهفة وجذبتها تحتضنها بلوعة، هي تعلم مدى جلافة سُبابه، ومدى ثقل كفه، كانت حالة زهرة أبلغ من أي كلام.

تشبّثت بها زهرة، وعاد نهر الدموع يجري على خديها بعد ليلة جفاف طويلة.

أحاطت قمر خديها بكفيها، تتفقد هيئتها المُررية، تسألها بخفوت:

- ماذا يريدون منك يا زهرة؟!

كانت متقطعة الأنفاس، وهي تشهق وترتجف وتجيّبها بصوت مرتعش:

- أقسم لك يا سيدتي أنا رفضت... أقسم لك.

عاودت احتضانها، وتركتها تهدأ قليلاً، بينما الخوف ينهش فؤادها، لكن زهرة لم تهدأ قط، لا تزال ترتجف وتقسم أنها لم توافق، ولن تفعل حتى لو قتلوها.

وكلما ربتت قمر رأسها كلما زاد الهذيان والارتعاش:

- عندما رفضت التجسس على عمي نصر... ضربوني وخيروني بين أن أفعل، وبين أن أصبح ضرتك رغماً عني.

عقدت قمر حاجبيها دهشة، وتمتمت:

- إن كانوا يريدون التجسس عليه فلماذا أنتِ بالذات؟!

حركت زهرة رأسها وقالت من بين دموعها:

- وصلته أنباء عن مجالس تُعقد سرّاً لخلع الشيخ آصف من المشيخة، ولا يستطيعون الثقة بأحد خارج هذه الجدران.

همست قمر وقد زادت دهشتها:

- كيف عرفتِ كل هذا!
- عندما ضربني الشيخ آصف، قال زوجكِ أنه سيجد من يؤدي هذه المهمة، فرفض الشيخ آصف وأخبره بما أخبرتكِ به الآن.
- أومأت قمر وغمغمت:
- الآن فهمت.
- رفعت زهرة رأسها تنظر إليها بتساؤل، فقالت قمر بإدراك:
- هددني بالزواج منك، ليجعلني أدفعكِ للموافقة على التجسس لصالحهم.
- كررت النفي برأسها لتؤكد موقفها، وقالت بإخلاص واضعةً يدها على صدرها:
- لا يمكن أن أفعل بكِ هذا، ولن أتسبب في أذى للشيخ نصر مجددًا...
- لقد فقد ابنته بسببي.
- شردت قمر، وساد الصمت، فلم يعد يقطعه إلا شهقات متفرقة تخرج بائسة من بين شفطي زهرة.
- رمشت بعينيها اللتين لمعتا بنظرة غريبة، لم ترها زهرة من قبل فيهما، قبل أن تميل قمر نحوها تهمس في أذنها:
- استمعي إليّ جيدًا... ولا تقاطعيني.
- أومأت زهرة ولا تزال الدهشة تعلو وجهها بصحبة الألم، بينما قمر تهمس لها:
- ستفعلين ما يأمرانك به، ستذهبين إلى الشيخ نصر!
- ظنت زهرة أن رفيقتها اختارت أقل الضررين، فتغضن وجهها رفضًا، بينما قمر تردف بنفس الخفوت:

- ستطلبين منه السماح، وتخبرينه أنك كنتِ مُضطرة حينها،
وتقصين عليه ما حدث بالتفصيل.
- أجابتها زهرة بنفس الهمس وقد بدأت تفهم:
- لكن لماذا سيصدقني!
- قالت وقد اشتعلت نظراتها كُرهاً خالصاً:
- سأخبركِ قبل أن تذهبي.

انسحب الثلاثة متتاقلين حتى ابتلعتهم العتمة خلف باب القاعة، وبقي الصدى وحده يترنح بين الجدران، فما عاد هناك سواه ساكناً في هيبته، ينظر إلى الفراغ، كما لو كان ينتظر شيئاً، حينها تحرك الركن المظلم القريب من السرداب في هيئة ثوب مهترئ يتدلى، وشعر أبيض يغبر الكتفين، وعينان غائرتان تومضان، كأنهما لا تزالان تلمعان من تحت سطح البركة.

التفت الحاكم إليه، ثم قال ببرود:

- لقد سئمت هؤلاء الحُثالة... متى سننساب إلى العالم!
- خرج من عجوز البركة صوت يابس متهدّج، نبرة صاعدة من قاع ماء آسن:

- لا تتعجل... السيد لم يأمر بعد.

أصابعه تنقر على ذراع العرش بخفة متوترة، كمن يكتب وعداً سرياً لا يجرؤ على النطق به.

عيناه الواسعتان لمعتا لحظة، ثم انطفأتا سريعاً، كأن شرارة تمرّد حاول أن يخبئها في ظلام قلبه، قال عجوز البركة:

- قد عرفت الضوء الخافت، الذي كان يومض على رقعة الشطرنج خاصتك إذن!

مال للأمام بمبالغة وتلونت عيناه بشرّاً خالص، قبل أن يميل برأسه جانباً ويهمس همساً كالفحيح:

- أعرفهم منذ خمس سنوات، أعرفهم منذ العاصفة... وقد كافأتهم وخلصتهم من كل من يحبونه دفعة واحدة.

نهض وهو يرفع ذراعه للأعلى متابعاً:

- هدمت العاصفة سقوف بيوتهم.

ثم أضاف وهو يقلب كفيه للأسفل، ويخفض ذراعيه مستمتعاً:

- وعندما حاولوا الهرب، سقطت الحجارة على رؤوسهم ترجمهم.

أنهى كلماته، واختار أن يضحك تلك الضحكة التي تؤلم الأذان البشرية، إلا أن عجز البركة هو من كان يجاوره في تلك اللحظة، لذا عندما رفع عصاه عالياً وهتف بغضب:

- عابث.

انغلق الفم الضاحك وانكمش صاحبه جالساً، مُطأطأ الرأس، ساد الصمت، لم يجرؤ عابث على النظر، اقترب منه عجز البركة، وسأله بنبرة جعلته ينكمش على نفسه أكثر:

- لماذا لم تخبرني؟

صمت، ينظر إليه بحذر، يعلم معنى أن تشتعل أعين عجز البركة باللهب، هو الآن غاضب، يفكر... وقد كان يفكر بالفعل، يفكر في وقفته أمام السيد، ليخبره بأن عابث كان اختياراً خاطئاً منذ البداية، ما كان يجب أن يُحرر، ومنحه مهمة كبيرة كحكم داو، بل ومنحه اسمها، حتى عابث نفسه لم يعد يحب أن ينادوه إلا بـ عظيم داو!

هو نوعية مختلفة من الأتباع، لا يؤمن بالوسوسة في الصدور، يحب أن يعبث مع البشر، يلهو، يرسم لهم الخطط، ويجلس يشاهدهم وهم يلعبون اللعبة بطريقته وتحت ناظريه، وبمجرد أن يقتربوا من خط النهاية، يقلب اللعبة كلها رأسًا على عقب! ويضحك!

فجأة انطفأ اللهب، حين قال عابث بنبرة غريبة جمعت بين الخوف والزهو، حتى أن صدره انتفش غرورًا، ويقول ببطء:

- لكن الخبر الممتع أنهم بدؤوا يتخلون عن حذرهم الذي كان يحميهم، حتى إن ليلي وجدتهم، لقد رأتهم اليوم في أفكارها.

- ونصر الراوي يا عابث؟

صاح حائقًا:

- اسمي هو داو... أم أنك نسيت؟

وعندما لم يجبه وظل ينظر إليه نظرات مُهددة، أطرق وقد تخلت عنه ظلال غروره سريعًا، قال:

- نصر... لا يسهو!

قرب عجوز البركة وجهه منه للغاية وقال:

- من لا يسهو... لا نرسل إليه أتباعنا يا داو... بل نرسل إليه الحُثالة من بني جنسه.

انتصب عابث في جلسته، وقد عاد إليه حماسه عندما ناداه عجوز البركة بـ «داو» وقال بزهو:

- قد فعلت للتو... أوكلت هذه المهمة لـ آصف.

ضحك العجوز، ضحكة متكسّرة، كخزير ماء يتساقط في بئر عميقة، وقال متعجبًا:

- ما أخبتك! استطعت الوصول إلى أفكارك إذن! نعم الأتباع أنت!

لم يبتسم، بل ظلَّ يرمقه بعينين متقدتين، كأن الضحكة لم تُرَضْ
غروره بل زادته عطشًا.

اقترب خطوة، كمن يريد أن يبتلع الفراغ بينهما، ثم همس:

- لن أظل مجرد تابع... مجرد ظلٍّ باهت.

تغيَّرت ملامح العجوز فجأة، وتصلَّبَ صوته وهو ينطق مُحذِرًا:

- من سبق ظلَّه... احترق بنوره.

اشتعلت النظرة في عيني عابث، وقال وهو يعاود الجلوس على
عرشه هامسًا:

- إلا من خطف الخطفة.

استدار العجوز عائداً نحو السرداب، يفتح كلتا يديه بفخر:

- العادات القديمة لا تموت!

هتف عابث من خلفه:

- أنتظر البشرى من السيد.

تردد صوت العجوز بينما الظلام يبتلعه:

- إنه لحقُّ عنك راضٍ.

بدا النهار هادئاً في داو، كعادة كل الأيام من بعد انتهاء العاصفة
واستقرار الرياح والدور، جذبت صفيّة قربة جلدية سميكة مُعلقة على
مسمار جوار الباب، بينما أمها تهتف بها ألا تتأخر، فهي في حاجة إلى
طين الضفاف ليساعدها في ترميم الجزء المتهدم من الفرن قبل أن
يبرد.

أومأت صفية رغم أن أمها لا تراها، وخرجت مُسرعة نحو الضفاف، كان ذلك عمل الفتيات اليافعات مثلها، ولا تجرؤ أن تُظهر تبرماً أو ضيقاً، فالأم لا تكف عن ترديد أن جلب الطين خير لها ألف مرة من الوقوف في ساحة الحصاد بانتظار الغراب، تلك الطقوس التي انتهت قبل أن تبلغ صفية التاسعة عشرة بفضل دعوات أمها ورضاها عنها طبعاً!

تمشي نحو الضفاف بخطواتٍ بطيئة، تحمل قربتها الجلدية كأنها أثقل مما ينبغي، لم تكن مشيتها خفيفة كعادتها، فقد كان عقلها مشغولاً بغياب ياسين، ابن عمها، الذي لم يظهر منذ أيام على غير العادة.

هي تعلم بأنه يقضي معظم أوقاته مع رفقاءه ويبيت في المدرسة، وتعلم بأنه يختفي كثيراً في السوق والأزقة، لكنه يعود في منتصف اليوم أو نهايته، يسأل عنهم، يجالسهم قليلاً، يتكلم عن تمثال مولانا، فتتذمر أمها وتأمره أن يخرس ويرحل.

بداخلها تشعر بأنه على حق، ياسين لا يكذب أبداً، منذ الصغر لم تره يكذب ولو مرة، وهذا كان يكفيها لتثق به وبقوته، بالفطرة تعرف أن الكذاب جبان وضعيف، لكنها لا تستطيع البوح لأمها أنها تصدقه، حينها ستمنعه من الحضور، وتغلق الباب في وجهه، وصفية لا تريد ذلك!

رفعت رأسها إلى السماء، وببيدها الأخرى جمعت طرفي وشاحها لتغطي نحرها كما أخبرها ياسين أن تغطية النحر فعل الحرائر.

قدماما الصغيرتان خطّتا أثراً باهتاً على التراب، لكن الغبار كان يبتلع الأثر سريعاً. بين الحين والآخر تتعثّر قليلاً، فتشد على القربة وتواصل، نصفها اندفاع صبية ما زالت تحمل براءة خطواتها، ونصفها الآخر تردد، من ينتظر عزيزاً لا يعرف هل سيعود أم لا؟!

من يراها كان سيظن أن الطريق كله ينصت لوقع قدميها، كأن كل خطوة تخبيئ سرّاً لا يزال عالقاً بين غياب ياسين وحضورها الوحيد.

تابعت صفية طريقها حتى قاربت الضفاف، حيث تنحني الأرض في بطن منخفضٍ صغير تتراكم فيه طبقات الطين، توقفت لحظة تتأمل صفحة الماء العكرة التي عكس عقلها ظلَّ ياسين عليها.

كان هو أوَّل من علَّمها كيف تنتقي الطين الصالح للفرن وهي صغيرة، يمد يده في الماء ويضحك «الطين الجيد يعرف صاحبه».

انحنت لتغمس يدها في الطين، لكن أصابعها اصطدمت بخشونة غريبة، ثم شعرت بأن يدها تُسحب كأن أحدهم يجذبها من أسفل، جذبت يدها وتراجعت، سقطت للخلف فزحفت مُرتجفة للخلف وهي تنظر حولها بصدمة!

شاهدت مجموعة من الصيادين يقتربون في محاولة يومية لتفقد رزق الماء، اعتاد الرجال النزول مع بداية النهار، بعد أن يئسوا من إعادة زرع البذور.

طعام البحر ليس كثيرًا؛ بل بعد تعب وجهد من الشروق حتى الغروب لا يعودون إلا بالقليل، يكاد لا يكفي بطون أطفالهم.

لا يستطيعون أن يتوغلوا بمراكبهم الشراعية في العمق، ولا أن يبتعدوا نحو ضفاف القبيلة، فذاك ممنوع، إذ إن حدودهم الحواجز المائية المغروسة في القلب والحبال الظاهرة التي تحذرهم من الاقتراب. وجودهم منحها دفعة شجاعة فقررت أن تعيد المحاولة ربما هي تنوهم!

اعتدلت مُقتربة، مدت أطراف أصابعها، جذبت حبيبات قليلة كاختبار يقظ، لتتأملها، فإذا بها داكنة، أكثر سوادًا من أي طين عرفت.

تسمرت عيناها عليها، قلبها يدق على إيقاع لا تفهمه. بدا لها أن حبات الرمل العالقة في الطين تلمع لمعاناً خافتاً، كأنها جمعت شيئاً من الليل في قبضتها.

حينها انتبه أصغر الرجال أن الأرض تحت قدميه لم تعد كما يعرفها، توقف فجأة وهو يحدق، جثا على ركبتيه ليتأكد قبل أن يصيح بصوت دوى في السكون:

- توقفوا.

صياحه وهو يوقف البقية عن التقدم جعلها تفرع وتسقط ثانية إلى الوراء.

لم تحتمل صفية أن تبقى بين الرجال وعيونهم المتسعة، ولا أن تسمع الكلمة الثقيلة وهي تتدحرج من فم أكبرهم سناً «لعنة»!

انتفض جسدها كطير مذعور، التقطت قِربتها الفارغة، واندفعت تجري في الطريق الضيق المؤدي إلى دارها، أنفاسها المتقطعة تدوي، والدم يقرع في أذنيها كالطبول.

قدماهما تتخبطان، تتعثر ثم تنهض، حتى أثارت انتباه كل من مرت بهم، كأنها تخشى أن يدركها ذلك السواد ويمسك بكعبها.

حين بلغت باب البيت دفعته حتى انفتح، واندفعت إلى الداخل وهي تلهث:

- أمي... أمي!

تراجعت الأم من جوار الفرن، والرماد على يديها، تنظر إلى ابنتها بوجه ممتقع:

- ماذا بك يا صفية؟! أين الطين؟

لم تستطع صفية أن تُجيب مباشرة، أشارت بيد مرتجفة إلى الخارج،
والكلمات تتقطع على لسانها:

– الأرض... لم تعد طيناً... إنها... سواد... رمال سوداء يا أمي!
انطفأت عين الأم للحظة، وبدت غير قادرة على استيعاب ما تهلوس
به ابنتها، رمال سوداء!

الرمال السوداء ليست في داو، إنها عند الشاطئ الأسود حيث فتيات
الحصاد. ألم تنته اللعنة! ألم ينته الحصاد! ألم يخبرهم عابد ولى أن
كل هذا بات من الماضي، وأنه قد آن الأوان لينعموا مطمئنين في ظل
تمثال مولانا!

رفعت يدها المرتعشة نحو رأسها، ثم جلست على الأرض ببطء، كأن
قوة غامضة هوت على كتفها فجأة.

النعيم

هو لا يعلم كيف انتهى به الحال بداخل هذا الكهف الحجري، لا حساب للأيام هنا، ساعاته تنقضي أمام تلك النار المشتعلة على الدوام، نار عجيبة لا تدفئ ولا يصله منها حرارة، مجرد إضاءة ملتهبة برتقالية، لها طقطقة ذات إيقاع رتيب كأنها لحن ما يتكرر للأبد!

إنه لا يذكر سوى لحظة الغرق، عندما تحطم بهم القارب الصغير، وسط أمواج هادرة ورياح تزار غاضبة وسواد لا ينتهي.

صورة ضبابية تتلاشي لرفاقه وهم يحاولون النجاة؛ جلال الدين يجذب جسد زوجته بيد، ويتشبث بلوح خشبي باليد الأخرى، وشاح خديجة يسقط عن رأسها وينغمر في الظلام، مالك يسقط ويختفي في لحظة بين الأمواج.

أما سلام... سلام كانت في لحظة يأس وهي متشبثة بمقدمة القارب، تبحث بجنون عن مالك بعينيها، لقد سمع صراخها وهي تنظر إلى السماء، كأن أحدهم قد خذلها!

آخر ما رآه، حين مزقت القلادة المحيطة بعنقها، وقذفت بها في قلب عتمة الموج، كأنها قد فتحت بوابة ما، ففي نفس اللحظة التي لامست فيها القلادة لسطح المياه، هاجمه شعورٌ قاتل.

جسده ينضغط، كأنما يمر بفوهة عنق زجاجة، حتى تلاشت أنفاسه وهو يردد بقلبه آخر استغفار قبل أن يفقد الوعي، عندما استيقظ شاهقاً بعنف، وجد نفسه في قلب جبل لا يعرف كيف وصل إليه ولا كم مرَّ عليه من الوقت ولم يجد أثراً للصحبة.

تحسس وجهه ليجد لحية طويلة، وشعرًا أشعث، بينما يرى ما حوله بصعوبة شديدة، ألمٌ متوحش يفترس مقلتيه كلما حاول النظر يجبره على غلق جفنيه باستمرار ليختفي الألم مباشرة.

في كل مرة حاول الخروج من الكهف، يشعر بأعواد خشبية تنغرس بين جفنيه وحينها لا ينفعه أن يغلقهما، فيتراجع للداخل مجددًا رغمًا عنه.

شيء ما يأسره هنا، شيء ما لا يريده حرًا، هل نجا من الغرق ليتعفن بداخل أمعاء كهف ينبض؟!

لم تخذعه حاسة اللمس، وهو يمرر كفه المفتوحة، متفحصًا الجدران الصخرية المحيطة به، ملمسها مخيف؛ إنها تنبض، لم يكن يهذي، تبدو كأنها تتنفس!

لامس أصابعه شقُّ في الجدار، ارتجف قلبه هو يشعر بخيط من الماء يجري بداخله، فارتجف قلبه...

قرب وجهه من الشق حتى ألصق فمه به، تدافعت قطرات من الماء داخل فمه، باردة تسيل حول فمه وذقنه وصولاً إلى صدره، أحسَّ كأن كل خلية في جسده تستيقظ بعد موت طويل.

شهق يتنفس بين كل رشفة وأخرى، والدموع تختلط بالماء على وجهه، لم تكن مجرد قطرات تتساقط، بل حياة كاملة تتدفق خلف الحجاب الحجري، لا يراه لكن يشعر بدفعته يملأ صدره.

ولما هدأت جوارحه، أرهف سمعه، لقد كان هناك صوت خفي يتردد في أعماق الجبل، خرير بعيد كأن نهرًا يجري خلف الجدران. أمال رأسه على الصخر البارد، وأغلق عينيه، فإذا بالأنين المائي يتضح أكثر، كهمسٍ سرمدي يذكره بنبض قلبٍ عظيم.

هذا الشق له نبع ما هنا في قلب الجبل، مد يده يمسح على الجدار ممتنًا، ثم خر ساجدًا على الأرض الرطبة هامسًا:

- يا رب... هذا أنا عبدك العاصي أحمل في رقبتني أرواح ثماني فتيات، وخطايا كثيرة لا يعلمها إلا أنت!

غاص وجهه في التراب المبتل، لم يعد يملك دموعًا ليزرفها، فقد سالت كلها.

ومع ذلك، أحسَّ كأن الأرض نفسها تشاركه البكاء، وأن قطرات الماء التي تنساب حوله ليست إلا غفرانًا يتسلَّل من قلب الجبل إلى قلبه. لم يرفع رأسه، ظلَّ منطرحًا كالमित حتى غلبه إعياء غريب، كأن النوم نزل عليه هدية من السماء.

رأى نفسه واقفًا على سفح جبلٍ عظيم، والريح تعصف من حوله، السماء كانت ملبَّدة، لكن من بين الغيوم انشقَّ شعاع نور واحد. سمع صوتًا لا يعرف مصدره، هادئًا لكن عميقًا يهز كيانه:

- ذنبك مهما عظم... شيء، ورحمة ربك وسعت كل شيء.

ارتجف جسده، وأحسَّ القيود التي كانت تخنقه تتفتت كزجاج مكسور وتتناثر مع الريح، وحين التفت خلفه، لمح ظلًا لثماني فتيات يبتعدن بخفة، كطيور بيضاء تصعد إلى السماء، واحدة تلو الأخرى، لم ينطق بكلمة، لكنه بكى حتى غمره النور كله.

انتفض سلطان من نومه فجأة، جبهته ملتصقة بالأرض الرطبة، رفع يده ليمسح وجهه، فشعر بلزوجة الطين ممزوجة بدموعه، كأنه عاش الغفران جسداً وروحاً، جلس مسنداً ظهره إلى الجدار، قلبه يخفق بخفة غير مألوفة، كأن صخرة هائلة أزيحت عن صدره.

لم تتوقف محاولاته للخروج من الكهف للبحث عن أي شيء يسد به جوعه، ففي عزلة العتمة يظلُّ عقله يعمل دؤوباً، ولما يفقد جسده القدرة على الاستمرار دون طعام، ينطرح أرضاً لينام، وتتدفق صور الماضي في ذهنه.

يتذكر كل ما مرَّ به في داو، فيشتعل عقله بذكرى صعوده جبل داو لتقديم قربان جديد لمارد يسكن كهفاً أعلاه!

لم يلج الكهف هناك، إذ توقفت رحلته عند بابه، حين هبت نيران عظيمة واندفع منها كيانٌ متجسد في صورة ذئب ضخم للغاية، يفتح فمه، ويهم بالفتك به، فما كان منه إلا أن صرخ مرتعباً بأية الكرسي... ثم تغير كل شيء وانقلب عالمه رأساً على عقب، كأن سلطان صخر العاصي انقسم إلى قسمين... ما قبل الصعود إلى جبل «داو» وما بعد سقوطه عنه!

أفاق من الذكرى وهو ينهت بشدة، جبهته مُقْطَبة وعرقه يتصبب، تحرك لسانه الثقيل ببطء، يعيد ما أنقذه يومها:

- اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ...

اشتعلت النيران فجأة فشهو بقوة، وهو يفتح جزءاً يسيراً من جفنيه لينظر نحوها مذعوراً من وهجها وحرارتها وصوت طقطقتها الرتيب.

لكن ما لبثت النار أن اختفت، وتلاشت معها كل حرارة، ليغمر الفراغ ضبابٌ كثيف... ضباب أخذ يتكاثر حتى تجسدت فيه صورة جلال الدين واضحة كأنه يقف أمامه حيًّا.

كان يقف وسط وادٍ مقفر، يعلوه ضباب كثيف يلف السماء، وأسفله ظلام حالك، كأن الأرض فُتحت على هاوية بلا قاع، ومن جانبيه خرج جناحان هائلان؛ أحدهما أبيض مشع، لكنه ينزف دمًا لا يتوقف، كأن النقاء نفسه يتألم.

أما الآخر فأسود قاتم، ريشه منتفش بعنف وهيمنة، كطغيان لا يعرف الرحمة، ارتجف سلطان، حاول أن يمد يده لكن المشهد انهار في رمشة عين؛ الضباب تلاشى، والظلام انطوى، وعادت النار كما كانت تتراقص أمامه.

اشتعل ألم جفنيه من جديد، فأطبقهما وهو يهمهم بصوت مرتجف:
- جلال الدين... إن لم يتذكر ضاع... وأضاعهم!

الفصل الرابع

النبوة

وقفت قمر أمام آصف مُطرقة الرأس، تجمع طرفي وشاحها بين قبضتيها، وما تبقى من دموع جافة يظهر جلياً مع انتفاخ جفنيها واحمرار وجهها، وقالت منكسرة:

- زهرة مستعدة لتنفيذ أمرك يا شيخنا.

ابتسم آصف برضاً، وتبادل النظر مع ولده الذي بادله النظرة نفسها، ثم نهض وتقدم نحوها، دار حولها نصف دورة، وقال وهو يُعاینها بنظرة مشمئزة:

- في كل الأحوال سأتزوج بفتاة تُسر عيني، وتنجب لي الأولاد، حالما تستقر شؤوننا.

أخفت قمر عينيها، وهي تبالغ بانحناء عنقها لأسفل، بينما آصف يوقفه بنظرة محذرة، ويقول موجهاً حديثه نحوها:

- لا تعكري خاطرك يا ابنتي، وتأكدي أنني لا أفعل ذلك رغبة في أن أؤذيك، أو أؤذيها، لكنها مصلحة القبيلة، وفي سبيلها نضحي بكل ما هو عزيز.

أومأت موافقة بصمت مطبق، وقال بنبرة حنونة:

- اصعدي إليها واهتمي بها، يجب أن تذهب إليه نهار الغد... الأمر لا يحتمل التأخير.

انحنى قمر وقبلت ظاهر كفه، استدارت منحنية تبالغ في الاحترام لتغادر على الفور.

جلس جواره وقال معاتباً:

- غريب... لم أعهدك تسترضي النساء! لكزه آصف في كتفه بعصاته التي أصبحت حملاً عليه، وقال وهو يتأفف:

- ستظل تنطح بقرنيك... لن تتعلم مني شيئاً، في الوقت الذي يتكالب علينا الأعداء في الخارج، تجتهد أنت لتصنع غيرهم بين جدران دارك.

- ومن هذه لتعادينني! أنا أدفنها في حجرتها لو تجرأت وفكرت فقط.

نظر إليه آصف نظرة جانبية، وسأل مغيراً مجرى الحديث بعد أن يئس منه:

- ماذا حدث في مقابلة الشيخ سليمان؟

اعتدل خاطر وهو يشير بيده:

- لا شيء... كما توقعت... أنكر، وقال إنهم يجتمعون بشكل معتاد، لمناقشة أموراً تخص زواج أبنائهم... وقبل أن يرد آصف علت طرقات على باب الدار، وصوت السقا ينادي من الخارج بفزع:

- يا شيخ آصف.

فتح خاطر الباب وهو يتوعد ويسب، هل قامت القيامة ليطلقوا الباب
بهذه الطريقة!

اندفع السقا للداخل، ثيابه مُلَطَّخة والعرق يتصبب منه وهو يلهث
ويصيح:

- الضفاف يا شيخ... الضفاف صارت سوداء.

لحق آصف بولده الذي يقف فاغرًا فمه ببلاهة، لا يفقه كلمة، وهتف
بالرجل يسبه:

- يا دخيل السوء... وهل كانت بيضاء يومًا ما؟!

هتف السقا، وتسارع لهاته يؤلم صدره، ويزيده رعبًا:

- الطين لم يعد طينًا... لقد صار رمالًا سوداء كالليل الكالح!

تجمّد خاطر في مكانه، بينما دوى وقع الكلمات في أذن آصف، كان
الرجل يلهث مذعورًا، غير أنّ المعنى تسرب إليهما واضحًا؛ الضفاف
تبدّل طينها إلى رمال سوداء، كأنّ الليل أرخى ستاره عليها دفعة واحدة.
اتكأ آصف على عصاته بيد، وعلى ولده خاطر باليد الأخرى، ويصيح
فيه:

- إلى الضفاف... لنرى بأعيننا ما يهذي به.

خرجوا على عجل، والناس تلتف حولهم، كلّ واحد يشير ويهمهم
بأقوال متقطّعة لا يفهم منها إلا الرعب.

وحين بلغوا حافة المجرى، انكشفت لهم الرؤيا، الضفاف التي طالما
عُرفت بلون الطين الرطب، غدت ممتدّة كسجادة مظلمة؛ رمال سوداء
تلمع تحت الشمس كقطع فحمٍ مبعثر، كأنّ الليل سقط دفعة واحدة على
الأرض!

حتى النسيم بدا أثقل، محمّلًا برائحة غريبة أقرب إلى الرماد.

ثبت آصف قدميه، يطيل النظر في السواد الصامت، كأنه يسمع فيه
وعيداً لا ينطق!

- لعنة وأصابتنا.

صرخت بها امرأة تولول كنعيق الغراب. تجمع الناس من حولها،
تجتو أرضاً صارخةً، حتى تهامسوا من حولها «سترك يا رب... سترك
يا رب»

بينما الأسماك تطفو على السطح نافقة... دون سبب ظاهر!

لاحظ عمار حركة غريبة مُضطربة، حين تسلل كالعادة خلف الدور
في طريقه إلى دار نصر الراوي، الدار التي مرَّ من خلفها، كان بابها
يطرق بعنف، وصوت أجش يعلو منادياً، على من بالداخل. سرعان ما
تداخلت الأصوات تهتف بأن لعنة ما أصابت القبيلة.

وفي الدار المجاورة المشهد نفسه يتكرر، الطرق، الصياح، الوجوه
المذعورة، العربات الخشبية التي تجرها الحيوانات، تترنح في الأزقة
كلها، تتجه صوب الضفاف! توقف عمار موضعه مذهولاً «ماذا يحدث
هل جُن الجميع فجأة، وأي لعنة هذه التي يرددونها؟».

أسرع بخطواته يطوي الطريق بقلق ظاهر، يتلفت حوله في ارتباك،
كأن الأصوات تلاحقه من كل صوب، ويدفعه صخبها دفعاً نحو دار نصر.
دخل من الباب الخلفي مُسرِعاً، ثم دار حول الدار حتى وصل إلى
بابها الرئيسي. يحميه سور الدار من نظرات العابرين في الخارج، لكنه
تفاجأ بوقوف نصر على عتبة الباب، يتكلم بصوت مرتفع مع فتاة تبكي،
وتتوسل منه فرصة للحديث.

و ما إن التفتا نحوه حتى ارتبك، وكذلك نصر الذي هتف به منفعلًا:

- من تريد يا ولد؟ وكيف تدخل بيوت الناس بغير إذن؟

زاد الموقف المُرْبِك من توتر عمار الذي اعتذر، وغادر مسرعًا، غير أنه ما لبث أن دار مجددًا حول الدار وظل قابعًا عند الباب الخلفي.

أراد نصر أن يشئت تركيزها عن عمار، فأشار سامحًا لها بالدخول. تركها تنتظره في المجلس مغلقًا الباب عليها وحيدة هناك، ثم توجه صوب الباب الخلفي القابع أسفل السلم الصغير المؤدي للطابق العلوي. قام بفتحه وأشار له بأن يدخل بخفوت، وهمس له:

- انتظرني هنا دقائق ولا تتحرك.

وحين أوماً عمار موافقًا، عاد نصر إلى المجلس، دخل وعيناه تشتعلان كرهًا، في مقدوره أن يغفر كل شيء، إلا الغدر والخيانة، حين دخل كانت تدور حول نفسها تلاحق ظلها، دموعها تجري فهو حتى لم يمنحها فرصة للنطق ولو حرفًا.

انتفضت زهرة، لم يكن لديها سبيل إلا أن تواجه أخطاءها بشجاعة، لو كانت النظرات تقتل لأردتها نظراته في الحال، قال بنبرة حادة غاضبة:

- ماذا تريدن منّا مجددًا يا عديمة الأصل!

ابتلعت ريقها وانكمشت أعضاؤها، تمت في تلك اللحظة لو أن أمها لم تلدها، سبابه كسرهما أكثر مما كانت، لكنها تلتمس له كل الحق، لقد تسببت في موت ابنته.

رفعت رأسها وقالت بصوت مرتعش باك:

- يا شيخ نصر... أعرف أنني لا أستحق العفو... ولذلك لم آتيك اليوم لأناله.

قطب حاجبيه، وتقدم خطوة حتى كاد صوته يصفعها:

- إِذَا... لِمَ جِئْتَ تُرِنِي وَجْهَكَ هَذَا الْيَوْمَ؟

ثَقُلَ ذَنْبُهَا أَنْزَلَ عَيْنِيهَا إِلَى الْأَرْضِ، وَهَمَسَتْ بِخَفْوَةٍ مُتْلَعِثَمَةٍ:

- جِئْتُ أَحْمِلُ لَكَ رِسَالَةَ... مِنْ سَيِّدَتِي قَمَر... ابْنَةِ الشَّيْخِ فَاضِلٍ.

كَأَنَّ كَلِمَاتِهَا أَيْقَظَتْ جَمْرًا تَحْتَ رَمَادِهِ، أَزْدَادَ صَوْتِهِ قَسْوَةً وَهُوَ يَرُدُّ

بِحِدَّة:

- أَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ تَتَجَسَّسِينَ لِحَسَابِهَا... وَقَدْ نَجَحَ مَسْعَاهَا.

قَالَتْ وَالْغَصَّةَ كَأَنْيَابٍ حَادَةٍ تَقْطَعُ حَلْقَهَا:

- صَدَقْنِي يَا شَيْخَ، الْحِكَايَةُ كُلُّهَا مَجْرَدُ غَيْرَةٍ نَسَائِيَّةٍ كَالَّتِي تَحْدُثُ

بَيْنَ كُلِّ النِّسَاءِ، لَكِنْ وَالِدُهَا كَانَ يَسْتَمِعُ إِلَيَّ وَأَنَا أَحْكِي لَهَا مَا يَرِيحُ

قَلْبُهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ دُونَ عِلْمِي أَوْ عِلْمِهَا.

لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِسْتِمَاعِ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، فَعُودَةُ عِمَارٍ فِي

مَوْعِدٍ غَيْرِ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ جَعَلَتْهُ يَرِيدُ الْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ لِيَعْرِفَ مَاذَا حَلَّ بِهِ، هَلْ

وَجَدَ فِي تِلْكَ الْبُئْرِ شَيْئًا آخَرَ يَخْصُ ابْنَتَهُ؟

قَالَ مُتَعَجِّلًا:

- مَا هِيَ رِسَالَتُهَا؟

هَمَسَتْ:

- أُرِيدُكَ فَقَطْ أَنْ تَسْمَعَنِي لِدَقَائِقٍ قَلِيلَةٍ.

قَالَ مُتَأَفِّفًا:

- هَاتِي مَا عِنْدَكَ وَأَوْجِزِي.

شَعَرَ عِمَارٌ بِالْقَلْقِ عِنْدَمَا تَكَرَّرَتْ نِدَاءَاتُ الْحَاجَةِ وَسِيلَةً، لَقَدْ كَانَ عَلَى

ثِقَةٍ بِأَنْ نَصَرَ سَيَصْرِفُ الْفَتَاةَ سَرِيعًا وَيَعُودُ إِلَيْهِ أَوْ حَتَّى يَصْعَدَ إِلَى

وَالِدَتِهِ، لَكِنَّهُ تَأَخَّرَ!

إنه لا يستطيع الصعود إليها دون إذنه، لكن ماذا لو كان هناك شيء ما يحدث معها وتحتاج إلى عون، إنها مريضة ونادراً ما تتحرك.

ارتبك وزاد توتره، تلك النداءات التي لا تتوقف، فحسم أمره، وقرر تلبية النداء وبالتأكيد سيسامحه نصر عندما يعرف أنه كان مضطراً.

قفز الدرجات القليلة بخفة كالقط حتى وصل إلى حجرتها، ورائحة البخور أوشكت على الخروج من تحت عتبة حجرتها، فسبقها وطرق الباب الموارب عدة مرات وهو يناديها:

- يا حاجة وسيلة... هل أنت بخير؟

لكنها لم تجبه، كانت في عالم آخر، تهتف بكلمات غير مُرتبة، لم يستطع فهمها لكنها كانت كمن يستغيث لذلك تجرأ، دفع الباب قليلاً، ليمر من خلاله.

كنت تجلس أرضاً جوار المبخرة، تحديق إلى الدخان المنبعث منها كأنها تحيك ستاراً يفصلها عن العالم.

اقترب بخطوات وئيدة مُكرراً اسمها، حتى وقف جوار حافة الفراش. سرعان ما امتلأت الحجرة بالدخان، يزحف كثيفاً متشابكاً حتى غطى الجدران، لكنه لم يشعر بالاختناق.

كانت تهمهم بكلمات مُبهمة، تتعثر أنفاسها بين همس وآهات، غير أن أذنه التقطت بوضوح اسم جلال الدين... ووالدته هند!

تجمد في مكانه، عيناه تتسعان وهو يرى خطوطاً داكنة ترتسم على الجدار بفعل الدخان؛ كانت أشربة متشابكة، تنحني وتلتف ثم تعود لتلتقي من جديد، نسجت عقدة غريبة بلا بداية ولا نهاية، كأنها شبكة عناكب لكن أشد إحكاماً، وكل خيط منها يهتز بخفة كأنه حي وفي قلب العقدة، برزت عين وحيدة، واسعة الجفن، تنبض ببريق مائل

إلى الصفرة، تلمع في عتمة الدخان، كجمرٍ يوشك أن يخدم ثم يتقد من جديد.

لم تكن عيناً مرسومة بل أشبه بفتحة حقيقية في الجدار، يطلُّ منها كائن خفي يراقبه خيوط الدخان لم تكتفِ برسم العقدة، بل كانت تتحرَّك ببطء، تلتف وتعيد تشابك نفسها، كأن العقدة لا تستقر على شكل واحد، وكلما تغيَّر ترتيبها بدا أن العين تضيق أو تتسع، تحدِّق إليه بتركيز أشد، ظلَّ مشدودًا إلى الوشم كأنما جُذبت روحه إليه.

حتى أحسَّ أن الدخان يتمدد داخل صدره، ويثقل أنفاسه.

مدَّ يده بارتعاش وهو يدنو من الجدار ليختبر إن كان ما يراه حقيقة أم وهمًا... وفجأة، انطفأ كل شيء؛ تبخَّر الدخان في الهواء، والعقدة والعين تبعثرتا كسراب، لم يبقَ على الجدار غير صفحته الصمَّاء!

تركه المشهد واقفًا مذهولًا، عيناه تبحثان عن الأثر عبثًا، بينما البرد يزحف في أطرافه، ينهش يقينه، هل كان ما رآه حقيقة أم أن المبخرة قد ألقت عليه سحرًا يعبث بروحه؟

- عمار!

التفت للخلف وصوت نصر المدهوش يكرر النداء:

- ماذا بك يا بني... لماذا تقف هكذا؟!

استدار عمار تجاه الفراش فوجد الحاجة وسيلة ترقد فوقد متدثرة، وذهابة في سُبَات عميق!

اقترب من المبخرة، كانت مطفأة والرماد متكوم بالقاع، وحين لمسها بأنامله تفاجأ ببرودته كأنه لم يشتعل قط!

- عمار...!

قال ساهمًا وهو يعتدل ووجهه الشاحب ينبئ فزع لم يقدر على إخفائه:

- الحاجة كانت تنادي... صعدت... كان هناك وشم.

ربط الشيخ نصر على كتفه وقال وهو يجذبه نحو الغرفة الفارغة:

- تعالَ معي.

وعندما أغلق الباب خلفهما جيدًا سأله وهو يتأمل عينيه الشاردتين ووجهه الذي انسحبت الدماء منه:

- تماسك... أنا أسمعك.

قصَّ عليه عمار ما جرى وما رآه على الجدار محاولًا تذكر تفاصيل الوشم الغريب، ثم أردف متسائلًا بكلمات مترددة:

- أنا نشأت في بلدة تعرف السحر والشعوذة... الحاجة وسيلة... هل هي...

قاطعته نصر على الفور، قاطعًا للشك:

- بالتأكيد لا...

أرسل تنهيدة قوية وهو يشاهد حيرة عمار المختلطة بالخوف، وتابع بترؤ:

- أُمِّي كانت تذكر وشمًا رأتَه على جسد هند، وهي حبلى بجلال الدين... لكنني لم أعرف، أكانت تحلم أم تهذي.

- هل وصفته لك؟

- لا... لم آخذ حديثها على محمل الجد.

قال عمار بانفعال وصوته ضائع كنظراته:

- حين تستيقظ من غيبوبتها اسألها... هل هو على شكل عقد أبدية لا تنتهي... وبداخلها عين واحدة؟
عقد نصر بين حاجبيه يحاول الفهم، لكن عمار تابع بانفعال لم يستطع كبته:

- أقسم أن ما رأيته لم يكن إلا سحرًا.

جذبه نصر لآخر نقطة في الغرفة يحاول إسكاته بحزم:

- حاول السيطرة على نفسك يا ولدي... لسنا في الدار وحدنا.

حدق إليه عمار بنظرات ضائعة، أشار له نصر أن يجلس ويهدأ، انتظره حتى يتماسك وقال بهدوء:

- يجب أن نؤجل الحديث عن ما رأيت الآن... لدينا الوقت لنتثبت منه

فيما بعد، أما الآن فهناك موضوع أشد خطورة أريد أن أحدثك فيه.

تنفس عمار ببطء يملأ صدره بالهواء النقي مرة بعد مرة حتى استعاد وجهه لونه الطبيعي، حينها استأنف نصر يحكي له ما باحت به زهرة بالأسفل في حجرة المجلس.

الغيرة التي جعلت قمر تدفع زهرة لمراقبة خديجة وتحركاتها، وكيف التقط والدها ما يدور بين ابنته ورفيقتها دون علمهما، ويستغله لصالح آصف وولده ومحاولة اللحاق بها في الغابة، ثم زواج خاطر من قمر بدافع المصلحة لإرضاء والده ولمكافأة الشيخ فاضل على إخلاصه، واسترسل في الحديث حتى وصل إلى الرسالة الأخيرة التي أرسلتها قمر، نهض عمار متفاجئاً وهو يردد:

- البارود!

أوماً نصر وهو يمسك بيده ليجلسه أمامه مجدداً ويقول متأنياً:

- يبدو أن الخبر أكيد... ولكن...

صمت للحظات، فمال عمار مستندًا إلى فخذه وقال وهو يضم قبضتيه بانفعال:

- لا تتردد يا عمي... يجب أن نأخذه.

نظر إليه نصر بشروء وفي عينيه غيمة شجن، لقد ذكَّره بآبن أخيه وزوج ابنته حين كان يفعل بالحمية ذاتها، يتخذ جسده الوضعية نفسها، خاصةً عندما يسبقها بكلمة «عمي».

- أين يخبؤونه وأنا كفيل به.

- في مدفن عائلة آصف.

- المقبرة؟!

- عمار، بماذا تُفكر؟

كان منعقد الحاجبين بشدة، لا يمكن أن يحمل كل الصناديق وحده، لا بد من تدخل رفقاءه وإن كان يخشى تعرضهم للأذى، وحين انتبه قال:

- كيف أجد مدفنهم في المقبرة بالضبط؟

- أنا سأرشدك إليها... ولكن نحتاج إلى مساعدة.

لا يمكن أن يسمح لنصر الراوي أن يخاطر بنفسه، يكفي أن يرسم له خريطة دقيقة تدله على مدفن آصف!

قفز في ذهن نصر السؤال الذي كان يجب أن يطرحه منذ أن عاد إلى عمار، فقال وهو يرمقه بنظرة فاحصة:

- لماذا جئتني اليوم على غير عادتك.

لمعت عينا عمار كأنه كان شاردًا، ثم استفاق فجأة، واستعاد حماسه الدافقة، دعا نصر للجلوس، وقال بشغف متوهج:

- أردت أن أروي لك حكاية الجبل... ومن يسكنه.

يبدو أن الحماسة انتقلت بلا إرادة إلى نصر الذي تملكته يقظة غامرة، فاستند إلى عصاه وهو يحدق إليه وقد أوشك قطار الحكايات القديمة على الوصول بعد سُبَات طويل.

انتهى عمار الذي كان يلهث من فرط انفعاله، بينما عيناه يملؤهما السحر والدهشة، عقد نصر حاجبيه وصمت قليلاً مُفكراً.

إنه لم يقابل حاكم داو من قبل، الجلسة الوحيدة التي تدخل فيها كانت الجلسة الأخيرة للهدنة وقد كان أخيه شمس الدين مُصمماً على أن يكون هو نائب القبيلة في تلك الجلسة، ومن بعدها حدثت المقتلة العظيمة.

لقد كان على يقين أن التدبير الذي أوقع المقتلة هو تدبير شيطاني، لكنه لم يكن يظن أن المعنى سيكون حرفياً وواقعياً لهذه الدرجة! أخذ عمار نفساً عميقاً وهو يتابع مُردفاً:

- ما أربكني أكثر يا عمي حينما زل لسان وصال بالخطأ... وقالت إنها هي وأخيها جزء من عائلة القاسم... وكلنا على يقين بأن العائلة كلها هلكت في الحريق ولم يتبقّ منهم سوى مالك!

لم يمنح نصر فرصة للكلام أو التعليق، بل قال في عجلة كأنه يخشى أن تتبعثر الصور من ذهنه، مزدرداً ريقه وهو يحدق إلى الفراغ:

- وما زادني ارتباكاً يا عمي... حين صُلّيت بينهم، شعرت بصفوف أخرى خلفنا، كيانات لا تراها العين، لكنها كانت تهمس معي وتنهض وتركع... أقسم أنني أحسست بأنفاسها على عنقي!

رفع نصر بصره نحو عمار وعيناه تتقدّان يبوح بما يموج في صدره طوال لحظات سكونه:

- الآن تيقنت أن عابد كان بطريقة ما يسيطر على أخي شمس،
وبنفس الطريقة استطاع السيطرة على جلال الدين!
قال عمار نافياً:

- مستحيل يا عمي... الأستاذ كان يحفظ كلام الله ويقرأ الأوراد
ويقيم الشعائر ويحصن نفسه نفسه دوماً.

أجابه نصر وأفكاره تتطاحن مع الذكريات في عقله:

- منذ ولادته يا بُني... لقد أخطأت حين ظننت أن أمي تتوهم.
قاطعهما نداء زهرة من الأسفل، التفت نصر نحو الباب، وقال بسرعة:
- انتظرني هنا... ولا تتحرك.

لكن عمار كان على عجلة من أمره، فقال:

- لن أستطيع البقاء أكثر... سأغادر وأتيك غداً ليلاً... اترك الباب
الخلفي موارباً بعد منتصف الليل.

خرج نصر من الحجرة وحين مرَّ بحجرة والدته ألقى نظرة مطمئنة
عليها، فوجدها لا تزال غارقة في نومها العميق، لم تكن لديه رفاهية
التفكير بتأنٍ؛ فنداء زهرة تكرر وبنبرة منزعجة، تكاد تكون فزعة.

نزل الدرج مسرعاً وهي كانت تنتظره في الأسفل، ووجهها تعلوه
علامات الفزع كما أنبأه صوتها، وقالت:

- يا شيخ نصر الناس في الخارج مذعورة، يقولون إن لعنة ما حلت
على القبيلة.

عقد حاجبيه وهو يفكر، هل هو يوم الأساطير أم ماذا، لكن زهرة
تابعت دون توقف:

- يقولون الضفاف استحالت إلى رمال سوداء حالكة والأسماك
نفقت!

كان ما يحدث أكثر مما يطيقه عقله بعد خمس سنوات راکدة، البرد يزحف في عروقها، لكنه لم تكن لديه رفاهية الارتباك، يريد أن يُفسح المجال لعمار كي يغادر دون أن تراه زهرة، فقال لها وهو يضع البُرْدَة الصوفية على كتفيه:

- هيا لنر ما يحدث.

رفعت زهرة عينيها إليه مذهولة، كأنها لا تصدّق أنه آمن بكلماتها لتوه. لم يقل «سامحتك»، لكنه صدّقها، وهذا وحده كان أثقل من كل عفو.

شعرت بأنّ الأرض تميد تحت قدميها، كيف يثق بها بعد أن خانته؟ كيف يمدُّ لها خيط النجاة وهي التي دفعت ابنته إلى الهلاك؟ تسارعت أنفاسها، والدموع تلمع في عينيها، لكنها لم تجرب أن تنطق، كل ما فعلته أن تبتعه بخطوات مضطربة، ممسكة بذيل عباءتها، وفي قلبها عهدٌ سرّي أنها ستحميه وتخفي أسرارها وإن اجتمعت عليها الدنيا بأسرها، وكما هي مخلصه لرفيقتها قمر ستكون أسيرة عفو الشيخ نصر وأشدّ إخلاصًا، كأن العفو قيّد لها لا بالذنب، بل بالوفاء.

هذا ما كان يخشاه آصف؛ أن يجتمع الناس حول نصر الراوي في الشدائد كما يحدث الآن، فبمجرد أن اقترب نصر من الضفاف، وبردته الصوفية تكسو كتفيه في وقارٍ صامت، عيناه تراقبان الفزع المستعر في الوجوه، لم ينبس بكلمة، لكن حضوره وحده كان كافيًا ليجعل الرجال يلتفون حوله، كأنهم وجدوا فيه مرساة تعصمهم من الغرق.

آصف يراقب من بعيد، يتلظى داخله غضب وحسد، إذ بدا نصر في عيون الناس أثبت من صخر الجبل، بينما هو، بكل سلطانه، لا يملك أن

يمنحهم سوى التهديد، أي إرث هذا الذي تمتلكه عائلة الراوي ليُكسبهم الهيبة بلا جنْدٍ ولا مال؟!

تعالَت أصوات الصيادين وهم يشيرون إلى البحيرة؛ الأسماك النافقة تغطي سطح الماء في مشهد مروّع، والمراكب الخشبية مدفونة نصفها في الرمال السوداء كأن البحر استحال إلى مستنقعٍ من الحصى المتحركة يبتلعها ببطء.

لم يبقَ منها للعين سوى الأشرعة ترفرف في عجز كأكفٍّ تستنجد بالريح.

لقد كانت القبيلة تعتمد في قوتها على الصيد أولاً، ثم على التمور، وما قلَّ من خضراوات، فما الذي سيبقى لهم إن صحَّ أنها لعنة؟ وكيف يمكنهم أن يسدوا هذا الجوع الزاحف من بعيد؟

خرج صوت نصر ثابتاً يعلو على الهمهمات متسائلاً:

- متى حدث هذا؟

هتف أحد الصيادين على الفور مذهولاً:

- يا شيخ نصر، تركنا مراكبنا على الضفاف أمس كما نفعل كل يوم، فلما جئنا مع الفجر وجدنا ما ترى!

تقدم نصر نحو الرمال، حتى إذا بلغ حافتها مد عصاه محاولاً اختبار قوامها، لكن السقا اندفع نحوه بجزع بجذبه للخلف صائحاً:

- لا تقترب يا شيخ فلقد كادت أن تبتلع قدمي... لولا أن ابني استطاع تخليصي.

ثبت نصر مكانه، نظرتة غائرة في السقا، ثم عاد بعينه إلى الرمال الداكنة، لم تكن كالرمال العادية؛ كانت كأنها تنبض بحركة خفية،

يعلوها بريق رطب لا يناسب جفاف الضفاف، تراجع خطوتين للخلف
ورفع عصاه قليلاً، وأشار بها كمن يقرأ أثرًا غامضًا:

- هذه ليست رمالاً فقط... تبدو... تبدو كأنها تتنفس!

تقدّم آصف بخطوات محسوبة، وقال بصوت حاول أن يجعله واثقًا:

- لا تُفزع الناس يا شيخ نصر... ليست سوى رمال جرفتها السيول.

لم ينظر إلى آصف مباشرة، لكنه رفع صوته قائلاً:

- إن كانت كذلك فلم ابتلعت مراكب الصيادين... ونفقت الأسماك؟

ومرة أخرى يهتف السقا مؤكداً:

- أقسم أنني شعرت بيد عملاقة تمسك بكاحلي... وتجذبني لأسفل.

شعروا أن الهواء قد سكن فجأة، وسرت رجفة صامتة بين الناس قبل

أن يرتفع من الخلف صوت عجوز البركة الذي ظهر فجأة، صوته يتردد
بذبذبات مؤلمة داخل آذانهم:

- لعنة... تسبب فيها المطاريد... ولن تنتهي إلا بالقضاء عليهم.

أدار نصر رأسه نحو مصدر الصوت، والشرر يتطاير من عينيه، لقد

سمع عن عجوز البركة من عمار كثيرًا، لذلك عرفه من الوهلة الأولى، لا

أحد غيره يتخذ لنفسه رداء بهذه القذارة يرتديه على الدوام، وتفوح منه

رائحة الطحالب، تمالك نفسه وسأل بثبات:

- أي مطاريد تقصد يا هذا؟ وهل لعنة السماء تنزل بفعل بشر؟!

ابتسم عجوز البركة ابتسامة باهتة كشبح، وقال بصوت أثقل من

الحجر:

- هكذا تقول النبوءة.

تعالى الهمهمات تسري كالنار في الهشيم بين الناس:

- أي نبوءة؟

- يقول بسبب مطاريد يسكنون الجبل.

- هل رأيتم من قبل؟

- هه...ربما!

قاطعهم العجوز، كأنه يسمع كل ما يدور بينهم رغم خفوت وتداخل أصواتهم:

- إنهم ينهبون خيرات داو... ويهرعون إلى الجبل... ولقد أصابتنا اللعنة كما أصابتكم ورمال ضفافنا صارت قاتمة ملعونة كضفافكم.

اشتعلت الهمهمات ثانية، لكنها الآن باتت غاضبة كأن ما قاله عجوز البركة صار أمراً حتمياً:

- لماذا لا يتصرف الحاكم؟

- لم لا يقضي عليهم!

- وما ذنب قبيلتنا في كل ما يحدث؟

رمقهم نصر بغضب، لقد صدقوه في لحظة، بالرغم من أنهم لم يشاهدوا قاطع طريق واحد منذ وطئوا أرض داو!

ظل صامتاً، بُردته على كتفيه، وعصاه مغروسة بالأرض، يحاول أن يحسم الأمر في داخله.

أما آصف فلقد شعر بكلمات تنساب بداخل عقله، وهمسات تهمس له في صدره، لكنها مفهومة، وبات يعرف مرسلها جيداً، وسوسة مفهومة له تكلفه بمهمة جديدة.

انحنى جذعه فاستند إلى خاطر الذي يقف متفرجًا، كأنه حشر رأسه في صندوق الدنيا كما كان يفعل طفلًا في أثناء الموالد التي كانت تقام في بلدتهم الأم.

تمالك آصف نفسه سريعًا، فالهمسات بداخله تزداد حدة، وقال بنبرة خرجت رغمًا عنه مُتألّمة مترددة:

- أه... نعم... في كل زيارتي إلى حاكم داو كنت أمر بالأسواق وأرى الناس تشتكي من النهب والسرقة لكن...

شعر بثقل لسانه لكنه يجب أن يتم ما أمر به على أتم وجه، وقال:

- ولكن ما هي النبوءة التي تتحدث عنها؟

انعقد حاجبا نصر، عيناه تتقلبان بين آصف وعجوز البركة، أما الأخير فابتنسم كمن وجد ضالته، وأومأ برضا، وقال بصوت متصاعد:

- في دائرة أبدية... من بين العاصفة يخرج الإنسان صاحب الحكمة... أشج الجبين يقود البشرية إلى النعيم.

كأن الهواء نفسه توقف ليستمع، لم يستطيعوا تبادل النظرات أو حتى الهمس، أكثر ما فعلوه هو أن أمالوا رؤوسهم نحو نصر، ينتظرون منه كلمة تفسر هذا الغموض.

كان يعقد ذراعيه فوق صدره، وقد أيقن أن الحاكم قد كشف أمر عمار ورفقته، ويريد أن يصنع منهم وليمة على موائد أهل داو، وسكان القبيلة، لا بد وأن يحذرهم.

النظرات في عيون من حوله تستحيل إلى نظرات عمياء، لا تفرق بين وهم وحقيقة... فتمتم يستعيز بالله من الشيطان الرجيم.

ارتفعت شهقة مفاجئة من خاطر؛ إذ انحنى آصف، وهو يضغط بيده على صدره، والدم يتفجر من أنفه في خيط أحمر قانٍ، يسيل على لحيته وثوبه.

هرع الناس نحوه وساعدوا خاطر في حمله، وعندما استداروا صوب عجوز البركة لم يعثروا له على أثر كأنه قد تبخر في الهواء!

النعيم

كل ما كان يجيده في داو هو زراعة التفاح، ربما كان يجيد الوحدة أيضاً، بارعٌ في العيش وحده دون الشعور بالضجر، يعرف كيف يهتم بالأشياء الساكنة مثله؛ الثمار، الشجر، الخشب، والصمت... كل ما هو منبوذ!

يعرف كيف يلاحظ الجمادات الساكنة من حوله، كل هذه ميزات تمنحه بعض الأمان. على الأقل، لا تجعله قلقاً من كل هذا الخواء المحيط به الآن، غربته متوالية!

الأرض الذي بدأ يخطو فوقها بعد أن أفاق من غيبوبته، تتواصل معه بشكل ما!

في البداية أصابته الدهشة وكذب هذا الشعور بالتواصل، ثم وضع احتمالية أن يكون الدوار وإصابة رأسه هما السبب، ولكن لا... لا يمكن أن يكون ما يحدث معه منذ أن بدأ المشي مجرد دوار!

هذه الأرض حتماً تدفعه دفعاً للسير في طريق يجهله، تتحرك مع خطواته، وتمهد له مساراً بعينه، وإذا جرب أن ينحرف، تُشكل له حفراً وعرة، وانزلاقات خطيرة!

لم يكن هناك بُدٌّ، لن يظل مكانه للأبد...

كان طريقاً طويلاً مقفراً، يلتهم أنفاسه مع كل خطوة، حتى لاحت له نهاية أخيراً من بعيد؛ هناك تل مرتفع، من سفحه طريق ممهد، يلتف حول التلة كأفعى ناعسة، خطأ فيه مُتتبعاً انحناءاته الضيقة ليتفاجأ بتلك الجدران المرتفعة تنكشف ببطء، تبدو كأنها تحمي شيئاً ما بداخلها يخشى الظهور.

رائحة الهواء مختلفة، ليست مُحملة بالغبار كما كان منذ قليل، تسالت إلى أنفه رائحة تعرف عليها، إنها ثمار ناضجة... عجباً! كيف يمكن لهذا العطر أن يفوح هنا؟! إنه لم يتعثر بنبتة واحدة طيلة طريقه إلى هنا، لا بذور ولا ثمار... أهى حديقة ما تختفي خلف تلك الأسوار؟

تحركت معدته فجأة، كأنها تستجديه ثمرة واحدة، بحث بعينه المحمومتين عن الباب حتى وجده، بوابة خشبية مصمتة، لا نقوش، ولا زخارف، نفس لون الجدار الطبيعي حتى إنه احتاج إلى التدقيق ليعثر عليه!

رفع كفه ليطرق متمنياً أن يسمعه أحدهم، لكن قبل أن يلمسه دوى من الداخل ضجيج مفاجئ، تلاه صوتُ أنثوي غاضب:
- عاصف انتظر... عاصف.

كان صوتها يقترب وهي ما زالت تنادي، انفتح الباب بقوة، كتلة شعر مموج ومنسدل بفوضى، تحوي جسد أنثى نحيلة تصطدم به بقوة. اتسعت عيناها من المفاجأة وجذبت وشاحها الساقط على كتفها تغطي شعرها، قبل أن تدفعه بقوة لا تُناسب حجمها، مغلقة الباب خلفها، ثم تهرول بمحاذاة السور، بينما صراخها لا يتوقف باسم... عاصف.

راقبها مُرتبِغًا، وهي تبتعد، لا يعرف ماذا يفعل. لم تعد لديه القدرة على المشي فضلًا عن اللحاق بها، لم يتبين ملامحها جيدًا، كل ما يذكره أنها فتاة نارية الطباع، الدفعة التي آلمت صدره منذ لحظات، والصراخ الذي لا يزال يصله رغم اختفائها عن عينيه، منحاه نبذة عنها.

في النهاية لم يكن أمامه سوى أن يتكئ بكتفه على الجدار جوار حافة الباب، وينتظر، لم يطل انتظاره كثيرًا إذ أبصرها تعود من نفس الاتجاه الذي ذهب منه، بمحاذاة السور تستند بكفها عليه، بينما يدها الأخرى تمسح جبينها بتعب!

ذهبت مشتعلة كالنار، وعادت مُنهكة كمن خبت جذوتها، عندما رفعت نظراتها إليه توقفت للحظة، يبدو أنها قد نسيت تمامًا في خضم معركتها الصغيرة التي لا يعلم عنها شيئًا.

جفت جبينها مجددًا وتابعت سيرها نحوه ببطء، اقتربت، ثم تجاوزته ووقفت أمام الباب مُمسكة بمقبضه دون أن تنظر نحوه مباشرة، تسأل بعدائية ظاهرة:

- نعم؟

تلعثم صوته وهو يهمهم مرتبِغًا:

- أنا...

قاطعته منفعلة رافضة حتى أن تمنحه فرصة لإجابة سؤالها:

- لماذا تقف أمام باب بيتي؟!

مسح وجهه بكفيه محاولًا البحث عن كلمات تشرح احتياجه، لكن حالتها لم تكن تسمح وقد فقدت كل ما لديها من تحكم:

- ابتعد من هنا... اتركوني وشأني أيها الحمقى أنا لست وحيدة...
لست وحيدة.

كانت تصرخ، بينما تتقافز الدموع على وجنتيها، وقبل أن تنهي كلماتها الأخيرة دفعت الباب وولجت للداخل وأغلقتة بعنف!

ظل محملاً في إثرها لثوانٍ، قبل أن يلتفت خلفه محرّجاً، رغم يقينه أن المكان مهجور تماماً، بالإضافة إلى ارتفاع التلة وضخامتها جعلاً من المستحيل أن يكون هناك شهودٌ غيره على كرامته المبعثرة!

قدماه تؤلمان به بلا رحمة، والعطش والجوع استبدا به، فترك جسده يرتمي جالساً مستنداً بظهره إلى حافة الباب.

أسند رأسه للخلف، وكل ما كان يتمناه في هذه اللحظة أن يُغشى عليه مجدداً!

وكعاداته الأزلية، أحلامه كلها متخمة بوالدته، وإخوته، وتعذيبه بالسوط، الأب الذي لا يعرف عنه سوى أنه يكرهه وبشدة!

لم يتوقف عن الأنين في أثناء غفوته المؤلمة، تلك التي تشبه الغيبوبة، شعر بأصابع قوية تضغط كتفه بخشونة لتوقظه، فانتبه منتفضاً يلهث، عيانه محدقتان إلى ملامح الشاب الذي ينحني قليلاً نحوه محاولاً تهدئته:

- اهدأ... كنت أوقظك فقط!

حاول مالك النهوض لكنه ترنح وكاد أن يسقط، تمسك بالجدار ليستعيد بعض توازنه، وعيانه الغارقتان في التعب والتشبب تتنقلان بلا هدف، وبنبرة جففها العطش، قال ما يجيد قوله دوماً:

- اسمي مالك... أنا متعب... أموت عطشاً.

مط الشاب خشن الملامح شفتيه، وقد أشفق على مالك وحالته التي يرثى لها.

التراب المتناثر على وجهه، اللحية المشعثة، والشعر الطويل المتساقط على كتفيه، جعلت كل تفاصيله ضبابية وغير واضحة.

لكن الارتباك الذي يراه في عيني مالك، وعجزه عن الحركة بسهولة، أيقظ بداخله شعورًا غامرًا بالمسؤولية والقلق تجاهه.

لم يكن بحاجة إلى كثير من التفكير، منذ متى وعاصف يفكر أكثر من اثنتين قبل اتخاذ لأي قرار!

استدار قائلاً ببساطة:

- لحظة.

راقبه مالك وهو يعود أدراجه بخطوات واسعة كأنما يقفز بخفة بمحاذاة سور المنزل، وعندما وصل إلى نهايته اختفى هناك!

عقد مالك حاجبيه منتظرًا، ونفسه تحدثه بأن ذلك الشاب لم يكن سوى وهم، أو ربما شبحًا!

تدلت كتفيه بأسى... لكن جلبه خفيفة بالداخل تبعها انفراج بسيط في الباب، وصوت عاصف يصاحب يده الممدودة، ويشير إليه بأن يدخل. وبعدها كادت أن تنغمر روحه في ظلام كئيب، استبشر خيرًا، ثم تحرك بتوجس نحو الباب الذي ظهر عاصف من خلفه، ممسكًا بكفه ويجذبه بهدوء، همس مالك بترقب:

- كيف دخلت؟!

بادله عاصف الهمس:

- باب منزلنا يُفتح من الداخل فقط، وأنا لا أريد إثارة جنون أختي الآن.

ألقي مالك نظرة سريعة على الفناء الخارجي للمنزل، أرض ترابية مختلطة بالرمل، عارية حتى من العشب الطبيعي.

مجرد مساحة فارغة بين السور الخارجي وجدران المنزل المرتفعة، الحقيقة هي مرتفعة أكثر مما يجب، فقط لمن يدقق النظر، صماء تمامًا

بلا نوافذ، مما جعله يتساءل بداخله عن الطريقة التي يتنفسون الهواء من خلالها!

لم يكمل تساؤلاته؛ فقد فتح الباب الوحيد للدار وخرجت أخته كالبرق، ترغي وتزبد وتتقدم نحو عاصف هاتفة:

- أَلن تكفّ عن حماقاتك؟ تهرب من الدار ثم تعود ومعك مصيبة! ظهر الحقن جلياً على وجه عاصف، لكنه لم يبادلها الصراخ، تجاهلها مؤقتاً واستدار بجسده تجاه مالك معرفاً:

- أختي وصال، وأنا أخوها مرتكب الحماقات.

زاغت نظراته بينهما، إنهما مثل الجليد والنار، همهم بخجل:

- بعد إذنكما، أريد فقط بعض الماء، وسأغادر على الفور.

سحبت وصال أخاها جانباً، تضغط أضرارها بحنق محاولة كبت جماح صوتها أكثر ما تستطيع:

- ألا تعلم خطورة أن يدخل الغرباء دارنا!

ارتسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة، وهز رأسه مشيراً إلى مالك المتهالك قرب الباب:

- هل ترين في هذا البائس خطورة ما!

التفتت وصال مجدّداً، أعادت تقويمه بنظرة فاحصة، كأنها تراه للمرة الأولى، ثم مالت صوب أخيها وهمست بحدة:

- وماذا لو كان يخدعنا؟

زفر عاصف وقد سأم من توترها المستمر، وقال باستياء واضح:

- اهدئي يا وصال، استرخي ولو لمرة، هذا البائس لن يدخل الدار، سيتخذ ركنًا في الفناء، يشرب بعض الماء، يرتاح قليلًا، ثم يذهب في حال سبيله.

صمتت لحظة، تحدّق إليه مترددة، فأضاف دون انتظار:

- وأنا سأتولى مراقبته حتى يرحل.

تحركت وصال تستدير على عقبيها عائدةً إلى الداخل، وقد بدا عدم رضاها واضحًا للعيان، يتبعها عاصف بخطوات بطيئة، عندها تسال الحرج إلى صدر مالك أكثر؛ إذ التقت أذناه كل ما حدث من همس وتشنّج بينهما، ولا يعرف كيف!

كانا بعيدين بما يكفي، وصوتهما بالكاد يُسمع، ومع ذلك وصل إليه معناه كاملاً. أيّ خطورة تلك التي قصدها الفتاة؟ وأي سرّ تخفيه الدار؟ فوجئ بصوت عاصف يقطع شروده وهو يومئ له:

- تعالّ معي.

تفاجأ مالك بهتاف عاصف وهو يخرج من الباب الذي صُفّع من خلفه، ولا داعي لشرح من صفعه فالنارية لم تخرج تاركة أخيها يحمل صفحة عليها بعض الجبن ورقائق الخبز اليابس وقنينة ماء بيده الأخرى، بينما يحمل على كتفه المقابلة فرش مطوية مهترئة تحوي وسادة من القش. أثار الأمر دهشة مالك؛ فسرعة عودة عاصف بدت كأن كل شيء كان مُعدًّا سلفًا خلف الباب، لكنه لم يُطل التفكير، خطف القنينة وشرع في الشرب بجشع. الماء البارد أجمّ عطشه أكثر مما رواه، حتى شعر بألم في معدته وانعكس الإعياء على وجهه.

ضحك عاصف وهو يضع ما بيده في ركنٍ ملاصق للجدار، ثم صاح

بخفة:

- على رسلك... تعالَ واجلس هنا لترتاح قليلاً.

مدَّ الفرش على الأرض ووضع الصفحة إلى جواره، ثم استدار عائداً إلى الداخل وهو يلوّح بيده:

- تناول طعامك ونم لبعض الوقت.

تركه عائداً إلى الداخل على الفور، فهي لن تهدأ قبل أن يرحل الغريب، أغلق الباب من خلفه، وكما توقّع وجدها جالسة على أول درجة من السلم، متكئة بجذعها للخلف ووجهها ملتفت نحوه، حاجبها مرفوع في تحذير صامت.

هبط بخفة وجلس بجوارها قائلاً وهو يزفر:

- ساعة أو ساعتين وينتهي كل شيء لا تقلقي.

ترحزحت بجسدها نحوه قليلاً، تحدّق إلى ملامحه كأنها تحاول قراءة ما ورائها، أدار وجهه بملل وقال ببرود:

- لا تبدئي الآن.

- منذ متى ينتابك كل هذا العطف... والرغبة في مساعدة الغرباء يا عاصف؟!

قالتها بنبرة العليمة ببواطنه، فاستند بكفيه إلى خلف ممدداً ساقيه للأمام، متممّاً بكسل متصنع:

- آه... بعض من الرحمة لن تضر.

ارتسمت على وجهها علامة الحنق وقالت محدّرة:

- ولو انكشف أمرنا...؟

عبس هو ونظر إلى الأعلى كمن يزن الخطر بلا رهان:

- لا أرى فرقاً بين ما نعيشه، والسجن الحقيقي يا وصال.

ضمت أطراف ثوبها محتضنة ركبتيها، هامسة كهسيس النار:

- إن كنت تريد الموت، فتذكر من هم خلفنا.

لم يجيبها، صمت كلاهما كما اعتادت هي عندما لا يملك ردًا، ظلت تحرك إحدى ساقها برعشة لا تملك أن توقفها، بينما تتوه نظراتها في صحن الدار الخاوي أمامها ذي المساحة الضيقة، وذلك الباب المؤدي للغرفة الداخلية، والتي تحتل وحدها نصيب الأسد من مساحة المنزل، بينهما وبين الموت أو السجن مجرد باب!

شعرت بأخيها يمسد على ركبته بقوة لتهدأ ارتعاشة ساقها، تلك التي تنبئ عن انفجار وشيك، قال بنبرة حاول أن يصبغها ببعض التعقل لتثق به:

- اسمعي... لن يدخل هنا... سيرحل بعد قليل وينتهي الأمر.

الفصل الخامس

البارود

الظلام يلفُّ قاعة الحكم التي تبدو كأنها انفصلت عن العالم الذي نعرفه، قد اختفت الأبواب والنوافذ واكتست جدرانها بلهب أحمر يتراقص عليها ويعكس ظلاً ملتوية تشبه الأفاعي المتقاطعة. عجوز البركة جسده يموج بطاقة مظلمة، عيناه كالحديد المذاب يراقب فريسته بلا رحمة.

عابث يتلوى على الأرض، عنقه مُقيد بسلاسل تكاد تنصهر من شدة حرارتها، كل حركة له تصطك معها السلاسل تتطاير معها شرارات من الجحيم، تلهب الهواء برائحة الحديد المحترق، عيناه تتوسل الرحمة، لكن لا رحمة هنا، فقط الألم يلتهمه ثانيةً تلو الأخرى.

بينما عجوز البركة يقف ثابتاً يراقبه بابتسامة، كأن كل صرخة ألم تمنحه متعة لا حدود لها! يده تتحرك ببطء، تمر بالقرب من وجه عابث، فتنبعث موجة من الطاقة السوداء تخترقه، يرتجف وتزداد حرارة السلاسل، أنفاسه تختلط بالصرخات، صدى العذاب يتردد في قاعة الحكم كأن المكان نفسه يتألم معه!

يهمس عجوز البركة بصوت يخرج من عمق سحيق، كالسيف يخترق
وجه عابث فيزيد عذابه وصراخه:
- هذه مجرد بداية يا عابث.

يفتح عابث فمه، بينما لحم وجه المتجسد يذوب ولا يستطيع النطق
إلا بطلب الرحمة، فيخرج صوته كأزيز حاد يتردد في الأجواء:
- قتلتَه لأمنحك الفرصة للاختفاء يا أشمداي.

حين اعتدل عجوز البركة من انحناؤه انسابت عنه مياه كالسيل،
تتدفق في الهواء وتتجمع حول عابث حتى غمرته.

حاول أن يزأر، لكن فمه امتلأ بالماء العفن، وارتجَّ صدره بصرير
الاحتناق، بينما يتردد في أذنه صوت أشبه بالأجيح:

- لقد حذرتك من قبل يا عابث، لكنك لم تستطع مقاومة طبيعتك،
ترسم الوشم على الجدار وتقتل آصف قبل أن ينهي مهامه، تخالف
أوامر السيد فقط لتبعث مع البشر.

لم يستطع الفكاك، مأسورًا في هيئته البشرية يشعر بالذل والعذاب
معًا، عذابًا شيطانيًا يتذوقه كدرس خالد، الغرق في حضرة أشمداي
عجوز البركة وسيد الغمر!

تراخى جسد عابث وبدا أنه يعاني لحظاته الأخيرة، وترك رأسه
يسقط مستسلمًا، ابتسم عجوز البركة ابتسامة ميته وهو يرفع كفه
للأعلى، فتراجع الماء صوب شقوق جسده حتى اختفى كأنه لم يكن.

أمسك بالسلاسل وجذبها بقبضته، فتفرقت بغتة وتبعثرت حلقاتها،
وفي لحظة، كان عابث منحنياً، راکعًا بخضوع، عيناه متطأطئتان إلى
الأرض، لا جرأة فيهما على مواجهة عيني سيد الغمر.

عندها، انحنى أشمداي قليلاً، وصوته انبعث من الظلام قائلاً:

- أنت هنا بفضل السيد، الذي شقَّ لك أبواب البحار، لقد أنقذك من محبسك وفك قيدك الأبدي، لكن ما وهبه بيده يمكن أن يسلبه في أي لحظة.

اقترب أكثر حتى كاد وجهه يلامس عابث المنحني:

- تذكر كاردل... كان يعبث مثلك مع البشر، ونسي مهمته الأزلية، فضاع في الظلمات لا يُذكر اسمه، إلا ليُلعن.

ثم استقام مرة أخرى، وظلاله تملأ القاعة، كأنها جدار لا يمكن تجاوزه:

- السيد لا يضطجع... لا يتكىء... لا ينام... لا يلهو...

لديه ثأر ممتد عبر الدهور، ونحن أتباعه... لا وقت لدينا للعبث، وإن كانت أعمارنا أبدية.

تنفّس عابث أصبح كصيرير مزعج في قاعة فارغة، ظل جاثيًا، لا يجروء على رفع رأسه، حتى بعد أن تأكد من اختفاء عجوز البركة.

فقد أدرك أن ما تركه ليس مجرد تهديد، بل وشم طُبع على روحه إن كان يمتلك واحدة!

المسافة التي اجتازها عمار حتى بلغ تخوم الجبال، والدور التي مرَّ بها، كانت كافية لتكشف له ما يعتمل على الضفاف: همسات مُرتعشة، صرخات مكتومة، وأعين تختبئ خلف الأبواب نصف المفتوحة، الهواء مُثقل برائحة الطين المبتل، تختلط بها نفحات دخان مواقد أُطفئت على عجل.

همسات عن لعنة ونبوءة ورمال سوداء تتردّد بين الأزقة، لا يعرف من بدأها، ولا كيف انتشرت بهذه السرعة حتى سبقت خطواتها!

توقف لحظة، والذاكرة تجره بعيداً؛ كان مجرد صبي في الخامسة عشر يوم كان الغراب يحلّق فوق ساحات الحصاد، ينق وهو يهبط بين الفتيات، يختار واحدة بعينين زرقاوين، وبشرة سمراء. كانوا يقولون إن المختارة تُؤخذ إلى «أرض الرمال السوداء» ولا تعود أبداً.

ارتجف عمار وهو يتذكر تفاصيل الحصاد وما حدث بعده، حين هربت «سلام» فأخذت الأسياذ أختيه وعقل أمه معهما. عندها، شقّ السكون صوت غراب في البعيد، نعيقه الجاف يشبه الطرق على باب صدئ رفع رأسه سريعاً، قلبه يقرع صدره أهو حقيقي أم صدى لسنوات غابرة عاد ليتجسّد في أذنه؟

وللمرة الأولى لم يتسرّب التعب إلى جسده وهو يقطع الطريق، خطواته كأنها تُساق بقوة أخرى، كان عقله مُثقلًا بما سمعه ورآه في مخيلته، وكل نسمة ريح تعصف بملابسه كأنها تدفعه إلى الأمام، تفاصيل متشابكة وأحداث متراكمة تكاد تجره صعودًا للجبل من جديد، حتى قبل أن يقرر هو.

وعندما وصل إلى الممر الذي بات يميزه بين الصخرتين، توقف فجأة عندما رآها، كأنها جزء من المكان، كتفيتها مشدودتان، طرفي وشاحها يتطايران، وعيناها تحدق إلى الأفق، لكنه يعرف أنها كانت تتابعه منذ بداية صعوده، بات يعرف طبيعتها كما لو كان قد نشأ معها كبقية فتية الكهف، تحب أن تتظاهر باللامبالاة حتى وهي تهتم بشدة.

- صرت تعرف الطريق دون العُقاب!

قالتها بترفع دون النظر إليه، فقال وهو يمر جوارها:

- صرت أعرف الجبل ومن يسكنه.

عقدت حاجبيها متسائلة بتحفز:

- ماذا تقصد؟

ابتسم دون أن يتوقف متابعًا طريقه بتركيز:

- لا شيء.

لكنها تابعت بهجوم مباغت:

- لماذا تأخرت؟

حينها توقف، ظهرت الدهشة على وجهه فقالت مُردفة:

- الجدة شعرت بالقلق.

أوماً مبتسمًا ولم يرد، وهو ينسل بخفة إلى جوار صخرة ضخمة يتخذ طريقه نحو الكهف، وما إن تحرّك بضع خطوات، حتى التقط وقع أقدام خفيفة خلفه؛ لم يحتاج إلى أن يلتفت ليعرف أنها تبعته.

بمجرد دخوله اشتدَّ وهج المشاعل المعلقة على الجدار، حتى بدا الكهف كأنه فمٌ مضاء ينتظره، وصال تسير خلفه بخفة تجمع طرفي شالها، وعندما اتسع الممر فجأة إلى القاعة الحجرية الكبيرة، انكشفت أمامه الوجوه التي باتت مألوفة. الفتية متعلقون حول النار التي تتراقص ألسنتها على وجوههم فتمنحهم ملامح أشبه بالظلال الحية، وعند الركن، جلست الجدة، ظهرها مستقيم كملكة، لكن عينيها وادعتان كأنهما تريان أبعد من حدود الجبل.

يحيى وصالح يتبادلان معها أطراف حديث ما بدا مهمًا مما ظهر على وجهيهما، رفعت رأسها ببطء ما إن لمحت، وقالت بصوت لا يشي بضعف عمرها:

- تأخرت يا عمار!

التفت كلُّ من ياسين وأنس اللذان كانا مضطجعين بالقرب من النار، عيونهما نصف مغمضة، أجسادهما متراخية كأنهما عالقان بين النوم واليقظة.

حاول ياسين أن يعتدل، فارتسمت على وجهه ابتسامة مُرهقة وهو يتمتم:

- أخيرًا عُدت.

أما أنس، فقد اكتفى بأن يرمق عمار بنظرة سريعة، ثم غطَّى نصف وجهه بذراعه متمتمًا:

- ظننتك لن تعود اليوم.

في تلك اللحظة، ارتفع صوت الجدة من ركنها، يبدد خفوت النار وكسل الأجساد:

- استرح أولًا يا بُني.

اتخذ عمار مجلسًا على مقربة من يحيى، وأسند ظهره إلى الجدار الحجري البارد.

صمت للحظات ينظّم أنفاسه التي ما زالت متقطعة من صعوده، وعينه تتابعان خيوط الدخان المتصاعدة من النار.

اقتربت وصال بخفة، وضعت أمامه تمرتين وكسرة خبز وقنينة ماء دون أن تنطق، كأنها تؤدي طقسًا تعرفه جيدًا.

رفع بصره نحوها فوجدها تبتعد حيث صخرتها المفضلة.

مدَّ يده بتردد إلى التمر، ثم التفت إلى يحيى الذي كان يراقبه صامتًا كعادته، عيناه تنضحان بالتساؤلات، وبينما مضغ عمار اللقمة الأولى وجرع بعدها كمية وفيرة من المياه، عاد الصمت يخيم على القاعة إلا من طقطقة الحطب في النار.

لم يكد عمار يفرغ من كسرة الخبز حتى قالت الجدة بنبرة هادئة مهتمة:

- لقد حكى لي يحيى عن ليلى.

نظر عمار نحو يحيى فوجده على صمته ونظراته الغامضة، فقال صالح وقد بدا التوتر يحتل صوته وعينه:

- الجدة حذرتنا من العودة إلى داو!

همس عمار متسائلاً:

- لماذا؟

مالت الجدة للأمام قليلاً، وقالت تشرح ما وقر في نفسها:

- ما حدث في ساحة الحصاد ليس له سوى معنى واحد... لحظة السهو التي صدرت عن يحيى وصالح تسببت في كشف أمرهما... وربما أمركم جميعاً.

ارتجفت يدا صالح فوق ركبتيه، بينما ظل يحيى متصلباً كالصخرة لا يُعلّق بكلمة.

رفع أنس يده عن عينيه، واعتدل ياسين جالساً، بينما الفتية تركوا النار وانتبهوا لمتابعة الحديث الدائر، خاصة حين قال يحيى فجأة:

- لن نترك أرضنا ونختبئ هنا.

لم يستطع صالح تمالك نفسه هذه المرة، إنه صبور ولكن الخوف الذي تتحدث به الجدة، وتحاول منذ وقت طويل شرح عقبات تهور يحيى لو أصر على النزول من الجبل، والعودة إلى داو قد جعله يفقد صبره، وينفعل ربما للمرة الأولى هاتفاً:

- لا تكن عنيداً كالتيس، عودتنا تعني القبض علينا وقتلنا في الحال، الأمر واضح ولا يحتاج إلى كل هذا الوقت لإقناعك!

نظر إليه يحيى بحدة شاعرًا بالإهانة، نهض ياسين على الفور مقتربًا بجوار صالح محاولًا تهدئته قبل أن تنفلت الأمور.

نهض يحيى ذاهبًا إلى الركن الذي ترك فيه حقيبته القماشية، حملها وهو يقول وقد احتقن وجهه بدماء الإهانة:

- أنا سأعود... وسأتحمل وحدي عواقب تهوري.

غير أنهم اجتمعوا عليه يجذبونه حتى لا ينسل من بينهم، ويخرج وقد تملكه الغضب، حينها صاحت الجدة بغضب حقيقي وهي تضرب عصاها أرضًا:

- اصمتوا جميعًا.

انطفأت النار فجأة، ولم يبق سوى الشعلات الضعيفة المعلقة على الجدران. تقدمت الجدة نحوهم، وقالت بصوت عميق جعل عمار يتذكر المرة الأولى التي استمع إليها فيها:

- اجلسوا... أنا هنا من يصدر الأوامر فقط.

اقتربت من يحيى، فأفسحوا لها الطريق، وقفت أمامه مباشرة، حتى شعر بأنفاسها تلفحه رفعت قبضتها التي تحمل بها العصا وضعتها على صدره تضغطه وتقول بحزم:

- اسمع يا ولدي، الأمر أكبر من قوتك التي تتباهى بها، إنهم شياطين، وإن كنت تحصن نفسك ضدهم فسيجمعون سفهاء داو حولك...

- وربما يرجمونك... كما فعلوا مع أستاذكم.

كانت هذه وصال، وقد قررت التدخل على غير عادتها عند غضب الجدة، حين التفتوا نحوها تابعت وهي تقترب من دائرتهم المشحونة:

- أم نسيتم ليلة الغرق!

لم يتفاجئوا، فلقد سبق لهم أن عرفوا أنها كانت تتسلى بمراقبة تحركاتهم، حتى ليلة الغرق كانت هناك تختبئ، وترقبهم عن بُعد! تحرك صالح ببطء وقد شعر بالخجل من نفسه، يعرف أن يحيى فتيل صبره سريع الاشتعال، ورغم ذلك فقد انتزعه بإهانتته له دون أن يقدر العواقب.

قال بأسف حقيقي:

- لم أقصد إهانتك... أنا آسف...

تلعثت حروفه، وغامت عيناه، وقد بلغ الخوف والتوتر مبلغه. وقبل أن يتابع جذبه يحيى يعانقه ويبادلته الأسف، قد صاروا يحفظون بعضهم بعضًا كخطوط أيديهم، ويحيى عندما ينجلي عنه الغضب، يدرك كم أن صالح وأنس على وجه التحديد مفرط الحساسية، يبالغان باتخاذ الإجراءات التي تحمي المجموعة. وكعادة عاصف لا بد وأن يقتحم المشاهد العاطفية، وقد دخل الكهف لتوه قائلاً بعبث:

- الآن تم حصاركم تمامًا... وسنشاهد هذه المواقف العاطفية كثيرًا في الأيام المقبلة.

ما كان يجهله عمار، أن النبوءة تحوم حولهم، وبدا في غاية الدهشة؛ كل هؤلاء الشياطين يطاردون فتية أيتام أكبرهم عمرًا بالكاد تجاوز الحادية والعشرين من عمره! لا يملكون سوى سقف مُرمم بالكاد، وفصل في مدرسة مهجورة، وذكريات!

جمعتهم الجدة في حلقة دائرية كبيرة، وقد اتخذت قرارًا ونفذته في الحال، بعد أن استمعت لما حكاه عمار، ثم ما جاء به عاصف من أخبار القبيلة.

في الماضي حصلوا على لقب مطاريد دون سبب، وهي لم تحاول
نفي هذه الصفة بأي طريقة كانت، ظناً منها أن خوف الناس منهم
يحميهم كجدران صلبة.

أما الآن فلقد باتوا مطاريد حقاً، صفة ووصفاً وبكل ما تحمله الكلمة
من معنى بل وخرجت من أجلم نبوءة فُصّلت على مقاساتهم جميعاً...
إناثاً وذكوراً.

مصائرهم توحدت لم يعد لأيّ منهم حرية التحرك بمفرده، والظل
الذي يلاحقهم بدأ يقترب أكثر من أي وقت مضى!

كان صالح هو أول المعارضين على خطة عمار الذي كان في أوج
حماسته، وهو يشرح لهم أهمية نزع البارود من يد خاطر، والآن تحديداً
وهو في أضعف حالاته:

- ولماذا نخاطر... البارود لن يمثل لنا أي فارق؟!

قال ياسين ببداهة:

- لتتساوى القوى.

اتكأ يحيى كعادته على يد في نصف جلسة أصبحت تميز هيئته،
وأضاف:

- هذا أولاً... أما ثانياً فلربما يجن بعد موت والده، وشعوره بأنه بات
محاصراً وحيداً بين عائلات القبيلة.

للمرة الأولى يتدخل عاصف في حوار يدور بينهم، ويتساءل مستفهماً:

- ولكن ما مصلحتنا نحن في كل هذا؟ إنها أمور قبلية.

أجابه أنس الذي يراقب صالح بقلق:

- لقد أصبحنا هدفًا؛ الكل يبحث عنا يا عاصف، وليس من مصلحتنا أن يبقى هذا السلاح الخطر بينهم.

قال عمار بنبرة قاطعة وقد اتخذ قراره:

- يجب أن نتحرك بمجرد أن يحل الظلام، فمن المتوقع أن يُفتح المدفن فجرًا استعدادًا للجنائز.

نهض صالح ببطء، وهو يقول ساخرًا، وقد تخلّى عنه آخر ما لديه من تعقل:

- لقد أصابكم الجنون حتمًا، نحن هنا في حماية الجبل، والعُقاب لا يسمح لأحد بالاقتراب منا... نترك كل هذا ونذهب إليهم بأقدامنا لنُحاصر بين شياطين إنس وجن!

هذا ما توقعه أنس بالضبط، فلقد كان يراقب عينيه الشاردتين الزائغتين في وجوه الجميع، كأنه يودعهم إلى مთاهم الأخير... رفقته، عائلته الثانية بعد فقد الأولى، لن يدعمهم يرمون بأنفسهم إلى التهلكة، حتى وإن اتهموه بالجبن.

تحركت الجدة، فانتبهوا جميعهم في سكون، ساعدها يحيى على النهوض.

هي لم تكن بحاجة إلى مساعدته، لكنها أحبت أن تتكئ على كتفه، وقفت إلى جوار صالح فأطرق حرجًا، قالت بهدوء:

- تذكر يا بني سبب كل هذا، عندما يضيع منك الطريق، تذكر السبب الأول الذي جعلك تسلكه.

رفع رأسه ونظر إليها، في البداية لم يفهم، لكن لحظات الصمت المُتعاقة أعادت إليه رشده، تنفس بعمق وكلمات جلال الدين الأخيرة تطرق أعماق نقطة في قلبه «لا تترك الناس على جهلهم، أخبرهم بأنهم

لا يحتاجون إلى وسيط بينهم وبين ربهم، لا يحتاجون إلى أسياد، لا يحتاجون إلى كرامات، الطريق مباشر ومستقيم، أخبرهم بأنهم لا يحتاجون إلا إلى فهم إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، مهما كان تفريطهم، ستطوي بهم الزمان والمكان وتضعهم على أعتاب الله سريعاً».

وحين لاحظت الجدة أن ثورته في طريقها للتبخر، والسكينة تتعاقب على وجهه مع الشعور بالذنب أضافت وهي تربط على كتفه:

- أنا كنت مثلك!

نظر نحوها بدهشة فاستطردت مُردفة بابتسامة:

- نعم... كنت مثلك لسنوات... آثرت الاختباء هنا في حماية الجبل، مُعتقدة أن المواجهة لن تأتي، وأن عدم النظر في عين الوحش تعني أنه لن يراني!

بقيت الجدة صامته بعد كلماتها الأخيرة، ثم استدارت مبتعدة بخطى وئيدة نحو ركنها الأثير.

اضطجعت على الفراش البالي، أطبقت جفניה في سكينة مُصطنعة قبل أن يلحظ أحدهم الارتجاف الخفيف الذي تسلل إلى أناملها.

كانت وحدها تدرك أن ثمة آذاناً أخرى كانت تُنصت لها؛ سُكان الجبل الأصليون كانوا هنا، حاضرون كدخانٍ يتخلل الشقوق، كصدى يتردد في تجاويف الصخر، يلتقط أنفاسهم وكلماتهم على السواء.

وحين بدأ الخدر يغزو أطرافها كمدٍّ بارد، يزحف من العظام إلى القلب، فهمت أنهم يريدون التواصل.

تلك العلامة التي خبرتها من قبل ثقل على الجسد، وارتعاش في الروح، كأن النوم بابٌ ينفتح إلى عالمٍ آخر.

لم يكن نومًا عاديًا، بل انجرافًا نحو صمتٍ آخر أعمق. هناك، حيث
تجاويف الجبل المظلمة.

أخذ همسٌ يتردد، منبثقًا من جوف الصخور التي تفصل كهفهم عن
سلاسل الكهوف المهجورة الأخرى.

تسارعت أنفاسها، وهي تُدرك أن الأصوات ليست هلوسة، بل حضورًا
مألوفًا زارها من قبل.

همسٌ متشابك، لكنّ بينها صوتًا يعلو، أكثر صفاءً من البقية، نبرته
كمن اعتاد مخاطبتها:

- آن لك أن تصغي يا أمة الله.

ارتجف قلبها وحاولت الهمس، لكن فمها كان معقودًا، عيناها ترمش
في عتمةٍ لا تُرى، عاد الصوت ينبعث مجددًا يتخلله رجع صدى الصخور:

- الرصد على باب المدفن لا يتخطاه عابر، ولا يُكسر طوقه، إلا
بيقين قلب، إن دخلوا غافلين هلكوا.

انسكبت قشعريرة باردة في أوصالها، حتى كادت تشعر بأن العظام
ترتجف داخل جسدها. حاولت أن تشد قبضتها، لكنها لم تجد سوى ثقلٍ
يغمر أطرافها، لتظل ساكنة، منصتة:

- هو شيطان قديم... لا يقيدته إلا اسم الله الحي القيوم، إن ضعف
يقينهم، لقوا حتفهم في صدر الليل قبل أن يطلع فجر الجنازة.

وبينما تتأرجح روحها بين اليقظة والغيوبة، أحسّت أنها تنزلق من
العالم السفلي مرة أخرى، تحمل الرسالة في صدرها كجمرٍ لا يبرد.

شهقت فجأة كمن انتزع من بئرٍ عميقة، وفتحت عينيها لتجد وجوههم
تحيط بها، التفتوا إليها في قلق، وقد رأوا الارتجاف يسري في جسدها،
والعرق يتصبب من جبينها رغم برودة الكهف.

قال يحيى مذعورًا:

- ما بك يا خالتي؟!

زفرت أنفاسًا متقطعة، قبل أن تفتح عينيها. ارتجافها كان ملحوظًا، فأمسك يحيى أصابعها يراقبها بقلق.

جلست ببطء، مسحت على جبينها كأنها تُزيل أثر حلم ثقيل، ثم همست بصوت مبحوح:

- أنصتوا إليّ.

التفوا حولها منصتين، دارت بعينيها بين وجوههم الحبيبة وتلكأت على وجه يحيى القلق، ربما تراهم للمرة الأخيرة.

لا تملك إبقاءهم، ومخالفة الدرس الذي لقنته لصالح منذ قليل، ولا قلبها يطاوعها لتركهم يلقون بزهرة شبابهم في طريق شيطان رجيم. اقتربت وصال تدثرها، وتربط على كتفيها هامسة بتعاطف:

- ارتاحي قليلًا يا جدة.

مال يحيى نحوها ممسكًا بكفها، يحاول حثها على الحديث، وعيناه تحاول قراءة ما يدور بداخلها:

- نحن ننصت... ما الأمر؟

رفعت كفها تربت وجنته، ودون أن تشعر هطلت الدموع فجأة من عينيها دون إنذار، تحركت العجائز الثلاث من مرقدنهم تتقدمهن والدة وصال وعاصف، تقدمن بدافع القلق، الخالة راوية تنفجر بالبكاء للمرة الأولى!

لحظات يتبعها دقائق، وقد التف كل من بالكهف من حولها يحاولون معرفة ماذا أصابها، وأخيرًا استطاعت تمالك دمعها، وقد سلمت أمرها وأمرهم لله وحده... همست بصوت متهدج:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

رفعت كفيها تجفف دمعها، وتقول بنبرة واهنة:

- الليلة يترصدكم شيطان قديم حول المدفن.

تعالى الهمسات، فقالت تقاطعهم حتى لا تتراجع:

- رصد لا يقيده إلا اسم الله الحي القيوم، هو الحصن، إن ضعف

اليقين بقلوبكم لقيتم حتفكم قبل أن يطرف لكم جفن!

رددوا سؤالاً اختلفت كلماته، لكن معناه واحد؛ ماذا رأيت في غفوتها،

وفعل بها كل هذا؟ لكنها لم تجبهم، وقالت بحسم ظاهر:

- لا تسألوا... فقط عدوني أنكم ستلتزمون بما قلت.

لم تكتفِ بإيماءة من رؤوسهم، قالت وهي تغالب دمعات تحاول

القفز مجدداً فوق وجنتيها:

- ليس قبل أن تُقسموا.

تبادلوا النظرات المتسائلة وأقسموا لها بأن يحفظوا العهد وينفذوا

كل كلمة أمرتهم بها. وأخيراً تراخى جسدها المتشنج، واكتفت بأن

تغمض عينيها من جديد، متوارية وراء صمتها القديم.

رحلة هبوطهم من الجبل هذه المرة كانت شاقة، حتى عاصف شعر

بها لأول مرة مُرهقة، وبأن قدميه يزنان أطنان من الحديد. ترك البومة

في الكهف خوفاً عليها بعد أن ودّع أمه والجدة.

وصال تسبقهم حسب الخطة، لتذهب هي إلى دار نصر الراوي بدلاً

عن عمار لتأتي به في المكان الذي اتُفق عليه، حيث ينتظرهما البقية.

في البداية رفض عاصف رفضاً قاطعاً، أن تشارك وصال في هذه

المهمة الخطرة، لكن الجدة أقنعتة أنها ضرورة، القبيلة في حالة تحفز،

ينتظرون ظهور أحد أبطال النبوءة؛ ووصال ليست منهم. بالإضافة إلى

أنهم في حاجة إلى عربة خشبية، وهي الوحيدة القادرة على تدبيرها، دون أن تلفت الانتباه!

عمار في المقدمة، ومن خلفه يحيى، وياسين، وصالح، وأنس تبعًا، ثم عاصف والفتية الثلاثة في النهاية يراقبون عن مسافة ليست بالبعيدة. الجميع يردد التحصينات والأذكار، في محاولة حثيثة لتثبيت قلوبهم، واستحضار اليقين، كما أوصتهم الخالة راوية، وشددت على ذلك.

اقترح أحد الفتيّة أن يرددوا لثامًا، لكنهم بعد نقاشات اختاروا أن يرددوا ملابس القبيلة لينخرطوا بسهولة بين الناس إذا تغيرت الخطة لأي سبب.

عندما اقتربت وصال من دار نصر استعدت لأن تطرق الباب بالطريقة التي علمها عمار إيّاها ككلمة سر.

جعلها تكررهما أمامه مرتين على سهولتها ليتأكد أنها حفظتها، كانت المرة الأولى التي يتحدثان بأريحية دون مناوشات، يبدو كقائد حقيقي، لم تعد تراه ذاك الفتى الذي كان يركض عبر الغابة ذهابًا وإيابًا قبل خمس سنوات.

المشاعل المعلقة على واجهة كل دار تمر بها الآن، أجبرتها على ترك أفكارها والتركيز على تلك التغيرات الجديدة، هناك حالة تأهب جعلتها تتخذ مسارات متعرجة حتى لا تتضح وجهتها لأي مراقب.

إنها تحفظ الدور ومن يسكنها كخطوط كفها، ولم لا وهي منذ أن وعت وقد اضطرت إلى طرقها كلها للبحث عن عمل مقابل الطعام، مثلها مثل الفتية ومثل أخيها، الفارق الوحيد أنها كانت تعمل داخل الدار بمساعدة نسائه، لكن عاصف كانت المهنة المحببة إليه هي تسلق

النخل، وجمع التمر، وقد أكسبه تسلق الصخور مهارة جعلته مطلوبًا هو ورفقاء الكهف.

حين وصلت أخيرًا عند الباب الخلفي، طرقت الباب بخفة، وهي تتلفت حولها بهدوء وببطء، حتى لا تلفت الأنظار.

لم تندersh عندما أطل وجه زهرة من خلف الباب الموارب وهي تسأل:
- من؟

فلقد حكى لهم عمار كل صغيرة وكبيرة، ليتجنب أي سوء تصرف من الممكن أن يعيق خطتهم غير القابلة للتكرار.

وقبل أن تجيبها، جاءها صوت نصر من الخلف يدعوها للدخول. عاينها نصر بعينين مدققتين، قبل أن يطلب من زهرة الصعود إلى حجرة الحاجة وسيلة، وعدم تركها قبل أن يأذن لها، أطاعت زهرة وهولت صاعدة إلى الأعلى دون أن تلتفت خلفها ولو مرة. بمجرد أن وطأت قدمها غرفة المجلس تخلى نصر عن ثباته الظاهري، أغلق الباب من خلفه واستدار يسألها بنبرة قلقة:

- هل وقع مكروه لعمار؟!

لم تكن في حاجة إلى الكثير من الذكاء لتعلم أنه فطن من الطرقات أن عمار قد أرسلها، فقالت تطمئننه وقد أسرها لهفته كوالد، وهي التي لم تختبر هذا الشعور أبدًا:

- عمار بخير... لكننا قد علمنا بما يحدث في القبيلة، لذلك لم يكن من الحكمة أن يأتي.

أوماً برأسه وقد اطمئن قلبه ولو قليلًا، وأشار لها بأن تجلس، لكنها كانت على عجل من أمرها، فحركت رأسها للأعلى، ثم مررت أناملها على طرف وشاحها عند حدود وجنتها.

تلك الحركة التي تُنبئ من يتكلم معها أنها بصدد البوح بسر ما.
تنفست، وقالت خافضة صوتها بحذر، وهي تشير إلى ركن قصي
في الحجرة:

- هل نبتعد؟

ذهب خلفها وقد وجد ما حكاها له عمار فيها، إنها حذرة كقطعة رُكلت
منذ ولادتها، حتى استشعرت بأن لها أنيابًا، وأنها من الممكن أن تخرمش
بها!

مال للأمام قليلًا ليسمعها وهي تقص عليه تفاصيل الخطة التي اتُّفق
عليها، ولا بد من تنفيذها قبل الفجر، لكنها لم تأتِ على ذكر وصية الجدة
كما أمرها عمار، حتى لا تقلقه عليهم.

بعد أن انتهت كان الخوف يسكن قلبه أضعاف أضعاف ما ظنه
عمار، الشيخ نصر الراوي يخشى على أحبائه من البشر أكثر بكثير من
الشياطين؛ له تجارب كثيرة بدأت بأخيه شمس وانتهت بابنته.

- من الجيد أنه لم يأتِ بنفسه... اذهبي أنتِ يا ابنتي واجعليهم
ينتظروني عند الكوخ الذي تسكنه القابلة... هل تعرفيه؟

أومأت برأسها، واستحسنّت الفكرة، فكوخ القابلة على أطراف القبيلة
بعيدًا عن الدور، وقريب جدًا من المقابر.

أغلق نصر الباب بهدوء بعد مغادرة وصال، ثم صعد إلى حجرة
والدته.

ما أشبه اليوم بالبارحة هذه الليلة تشبه ليلة بعيدة هربت فيها خديجة
تحت سمعه وبصره وحملت قلبه معها في حقيبة قماشية صغيرة.

نفس الخوف يجتاحه، هل يرمي عمار في نفس الهاوية التي غرقت
بها خديجة!

لا حلول وُسْطَى، لم تكن لديه أي خيارات كما هو الآن.

هل صارت الوحدة قدرك دائماً وأبداً يا نصر؟ أبناء، إخوة، رفقة، كلما منحك الله فرصة جديدة، يجبرونك على أن تدفعها بعيداً، لتعود في النهاية وحيداً.

طرق باب والدته ودفعه بوهن دخل بخطوات مثقلة، هاله أن شاهد زهرة تجلس أرضاً جوار فراش الحاجة وسيلة، ترفع يدها لتضعها على كفها وتمسح عليها بينما دمعها يتسابق بصمت على وجنتيها. اقترب مُسرِعاً نحو أمه متسائلاً:

- هل حدث لها مكروه؟

نهضت زهرة بسرعة تجفف دمعها بظهر كفها قائلةً:

- إنها بألف خير... لا تخف.

شعر بالدوار فجلس على طرف الفراش متمماً:

- سامحك الله...

اقتربت في خفر تشعر بالذنب، لقد جعلته يظن ببكائها وطريقة جلوسها جوار الفراش أن والدته أصابها سوء... قالت معتذرة:

- سامحني يا شيخ... أنا فقط...

تاھت منها الكلمات فصمتت مطرقة، رفع وجهه نحوها واستطاع بسهولة قراءة ما تشعر به، تنهد بقوة وأشار لها أن تجلس فأطاعت على الفور، استند إلى عصاه وقال بتأنٍ:

- بخصوص الفتاة التي طرقت الباب.

قالت على الفور:

- أيُّ فتاة؟ الباب لم يُطرق اليوم.

عقد حاجبيه فأضافت:

- دارك مثل كل دور القبيلة، لا يطرقها غريب إلا فقط من يعرض خدماته مقابل بعض التمور، لا أكثر.

كأن بكلماتها قد أبرمت معه اتفاقاً؛ إن تكلمت هذه الجدران فهي لن تتكلم، وهو قد فهم فأوماً برأسه، هي أوجزت كل ما كان يريد قوله. إنها صادقة، غريزته أنبأته بهذا.

- لماذا كنتِ تبكين؟

شبكت كفيها داخل حجرها وأطرقت هامسة:

- عندما رأيت الدار خالية من سيدتها... والحاجة وسيلة وحدها في مرضها... شعرت بحجم الجرم الذي ارتكبته في حقكم.

طال صمته، يدقق برأسها المطرقة أمامه، إنها صغيرة جداً، كيف لهذه الصغيرة أن تكون لعبة في يد الجميع يستخدمونها لتحقيق مصالحهم واضعين إيّاها في وجه الخطر ويختبئون هم من خلفها.

حتى قمر التي تدّعي أنها صديقتها، دفعتها لتتجسس على بيت شيخ القبيلة وتجاهلت أنه لو كان قرر أن يطبق عليها قوانينهم لكانت الآن قتيلة جثتها تسكن بطون جوارح الجبل.

- شيخ نصر!

قاطع نداءها أفكاره حولها، وسمعها تقول بصوت متهدج، وقد فلق

البكاء كبدها:

- سأكون تحت أرجل الحاجة وسيلة... ولن أفارقها لحظة.

نهض قبل أن يدركه الوقت، وقال بحنو:

- أنتِ غير مُطالبة بأي شيء يا ابنتي، أنتِ بمنزلة حفيدتها... ولو أردتِ رعايتها في عدم وجودي فسأكون ممتناً لك.

عندها مال على والدته وقبّل جبينها، همس لها في غيبوبتها بأنه
سيعود سريعاً. لحقت به زهرة عند باب الحجرة تهتف قلقاً عليه:
- لا تخرج في مثل هذه الساعة، فالطرق باتت غير آمنة، وهناك
قُطَاعُ طُرُق.

ظهر شبّح ابتسامة على شفّتيه، وغادر وهو يكرر متعجباً:
- قُطَاعُ طُرُق!

إنه حتى لم يمض يوماً وليلة على اختراع تلك النبوءة الكاذبة، خبر
تناقله الناس بسرعة البرق وصدقوه دون تفكير، كلمة قالها عجوز بركة،
وكلمة ألقاها آصف قبل موته، مجرد كلمتين، لا دليل قاطع، لا مشاهدة
حقيقية، تلك النبوءة لا شيء، لا شيء على الإطلاق!

كوخ القابلة قائم عند طرف المقابر، كأنه حارسها الصامت، جدرانه
الخشبية الداكنة اكتسبت مسحة رمادية من الغبار والرطوبة التي
تتصاعد من بين القبور، سقفه المائل يقطر ماءً في الليالي الممطرة،
وفوق بابه حُزَم من الأعشاب اليابسة تتمايل مع الهواء كأنها تعاويز
معلّقة.

الأرض أمامه غير مستوية، تتخللها حجارة قديمة تشبه شواهد قبور
نُسي أصحابها، تتخللها شجيرات برية نبتت بلا نظام.

النافذة الضيقة أشبه بعين تراقب الداخل والخارج، والزجاج فيها
معتم يعكس ضوء القمر فيبدو الكوخ ليلاً كأنه جزء من المقبرة نفسها،
رائحة التراب الرطب تختلط برائحة الأعشاب المعلّقة، والهدوء المحيط
لا يقطعه إلا نعيق غراب عابر، ليس مجرد مَسْكَن، بل حاوية أسرار

القبيلة وما حولها، ومن تسكنه، ليست مجرد امرأة، بل شهادة على الحياة والموت معًا.

وعلى مسافة ليست بالقريبة، وبعيدًا عن نافذة الكوخ، اختبئوا في انتظار الشيخ نصر بعد أن أخبرتهم وصال أنه طلب منها أن تسبقه وهو سيتبعها على مهل.

همس عاصف متسائلًا بخفوت:

- ماذا سنفعل لو خرجت القابلة لأي سبب؟

أجابته وصال مؤكدة:

- إنها لا تخرج أبدًا قبل شروق الشمس.

عاد يسأل بدهشة:

- كيف تعرفين كل هذا؟

قالت بنفس الثقة:

- القابلة تدخل كل دور القبيلة وتثرثر مع النساء عن الأصوات التي تسمعها كل ليلة في المقابر تجعلها تتجمد في كوخها حتى الصباح.

أشار أنس إلى ظل قادم يحمل عصا لا يُتكأ عليها، ومن خلف الشجرة عريضة الغصون أطل عمار قائلاً:

- الشيخ نصر.

وقف نصر يتلفت بحرص قبل أن يقترب من الشجرة التي تنسدل أوراقها فوقهم، لقد حكى له عمار كثيرًا عن رفقاءه لكنها المرة الأولى التي يراهم فيها، مرر عينيه بينهم باحترام هو يصافحهم بحرارة، بينما نظرة فخورة تطل من عينيه، لا يرى أمامه إلا رجال أكفهم صلابة يملؤهم العزم.

قال وهو يشير إلى باب المقابر ويُخرج المفتاح من جيب جلبابه:

- كل عائلة في القبيلة تمتلك مفتاحًا لقفل السور الخارجي.

قبل أن يتحركوا خلفه توقف عاصف مستديرًا تجاه وصال قائلاً

بنبرة قاطعة:

- انتهى دورك... عودي إلى الجبل.

قالت وهي تضغط أضراسها وتتحرك لتسبقهم بخطوات واسعة:

- تحتاجون إلى أكبر عدد ممكن.

لكن عمار مدّ ساعده أمامها ليوقفها وقال بحزم:

- عمي نصر سيرشدنا إلى المدفن ثم يعود... وسترافقيه.

لو كان أنس في حالته الطبيعية للكرز صالح لينتبه إلى ما يحدث

كعادتهما في ترصد ما يدور في الأجواء، لكنه الآن يحاول تذكر هل قرأ

آية الكرسي للمرة المئة أم لا!

ولم يكن صالح ليختلف عنه، قد كان غارقاً في مخاوفه بينما لسانه

لا يتوقف عن ذكر اسم الله الحي القيوم.

تحركوا خلف نصر في طاعة وقد أجادت الأشجار لعب دورها وتغطية

تحركاتهم الحثيثة، حتى نصر بدا في أوج نشاطه وخفة حركته وهو

يمر بين صفوف المقابر التي نبتت الأعشاب بين طرقاتها المتقاطعة.

نور القمر لم يجعلهم في حاجة إلى حمل مشعل، ولكنهم كانوا على

دراية أنهم في حاجة إلى واحد حين يتسللون داخل مدفن عائلة آصف،

لذلك كان أنس متكفلاً بحمله مُطفاً.

أما البقية فكل منهم يحمل معولاً بيمينه، وقلباً يخفق بجنون خلف

أضلعه.

جاهد نصر كي لا يمر على مدفن عائلته، لا يريد لتلك المشاعر الحزينة أن تغزوه الآن، إنه يحتاج إلى كامل تركيزه ليكون عوناً حقيقياً لهم.

وحين انعطف قليلاً نحو المدفن المقصود عرفوه من أول نظرة، هذا المكان يصرخ بسر محبوس في أحشائه؛ فلقد اهتم خاطر ببناء سور داخلي مُحكم، ووضع عليه قفلاً وتم سقفه بعناية.

اختلافه كان واضحاً، حتى أن عمار اندهش أن نصر أصرَّ أن يأتي بنفسه ليرشدهم، فلقد سهَّل خاطر الطريق على من يبحث عن مدفنهم، وميَّزه عن بقية المدافن بتلك العناية غير المعتاد عليها في مقابر القبيلة. وفي تلك اللحظة استمع إلى همس يحيى بجواره وقد التقط أفكاره بسهولة، وقال معقّباً:

- يكادُ المُرِيب أن يقول خذوني!

وحين التفوا حول القفل، قال عاصف مندفعاً، وهو يرفع المعول للأعلى:

- ضربة واحدة أو ضربتان على الأكثر... ابتعدوا.

قبض نصر على ساعده، وقال بحسم محافظاً على انخفاض صوته:

- ستفضحنا قبل أن نفعل شيئاً!

نظر إليه عاصف قد تفاجأً للتو أن وصال كان معها حق دوماً حين تخبره أن له نصيباً وفيراً من اسمه؛ فهو يتصرف أولاً، ثم يفكر ثانياً! قال متوتراً وهو يُخفّض ذراعيه:

- كيف سنفتحه إذن؟ ليس بيننا دجال ولا مشعوذ.

تقدمت وصال منحنية بجذعها نحو القفل تدقق فيه وتقلبه بين أصابعها، ثم فعلت أكثر شيء أصابهم بالدهشة من شدة بساطته؛

رفعت يدها وأدخلتها أسفل وشاحها وبعد لحظة كانت تُخرجها، وبين أناملها مشبك صغير للشعر!

قالت وهي تعالج القفل بخفة:

- هذه واحدة من فوائد كثيرة لاصطحابي معكم!

لحظات ودوى صوت الاصطكاك المُحبَّب، وتبادلوا النظرات المنتصرة! كأنهم عبروا كل الحواجز في تكة واحدة!

انفرط القفل كأنه يتنهد بعد حبس طويل، دفعوا البوابة الثقيلة بحذر فصرَّت صريرًا معدنيًا مكتومًا كأنها تنئن، اندفع من الداخل هواء ساخن جعلهم يتراجعون للخلف، من شدة سخونته ورائحة الرطوبة المتعفنة التي لفحتهم.

جذب كل منهم العمامة البيضاء التي كانوا يلفونها حول رؤوسهم ككل أبناء القبيلة، وجعلوها لثامًا ليغطوا أنوفهم، وربطوها بإحكام.

ثم التفت عمار إلى نصر وقال بهدوء:

- حان وقت عودتك يا عمي.

رفع نصر رأسه إلى السماء، عيناه تناجيان الله أن يُعيدهم سالمين جميعًا فلم يعد هناك مجال للتراجع.

خفض بصره نحوهم قال بجدية:

- إذا استشعرتم أي خطر اهربوا بسرعة، سلامتكم أهم من كل هذا.

أرسل تنهيدة حارة وهو يسلم أمره لله ويتابع بخفوت:

- سأصطحب وصال حتى الجبل... وسأكون عند الفجر في بيت خاطر قبل أن تتحرك الجنازة.

تبعته وصال دون كلمة، لكنها لم تتوقف عن الالتفات حتى اختفت عن أنظارهم.

أمرهم عمار أن يضعوا أيديهم على أكتاف بعضهم بعضاً ولا يتركوها. ترديد ذكر الله الحي القيوم كما أمرتهم الجدة طوال بقائهم في الداخل. دخلوا كأنهم كتلة واحدة، وهمساتهم لا تتوقف «أَللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

سكن الهواء وبات مشبعاً بثقل رطوبة تخنقهم، صدورهم ترتفع وتهبط، يشعرون بأنهم يتنفسون عبر ثقب إبرة.

توقفوا أمام شاهدين حجريين في الداخل، أحدهما فارغ، صامت كما يليق بقبر ينتظر صاحبه.

أما الثاني فقد نُقش فوقه هلال مائل تحيطه نجوم غير مكتملة وأسفل منه حروف غريبة لم يفهموها، اقتربوا من الشاهد، والضوء المرتجف بيد أنس يرقص فوق النقوش. توقفت أنفاسهم عند الهلال المنقوش في الحجر. لم يكن كشكلٍ مألوف للقمر، بل بدا مائلاً بحدة، كأنه يبتسم ابتسامة معوجة.

همس ياسين:

- لا تحاولوا قراءة الحروف... هذا أفضل.

تبادلوا النظرات المترددة، وكل منهم يقرأ في عيني الآخر الخوف نفسه. لم يكن هناك بُد، فمدَّ يحيى يديه إلى معوله وقبض عليه بكل قوة، ثم غرسه في مساحة غير مستوية بدت مختلفة عن التراب المحيط بها وقال بحزم:

- سنبدأ من هنا.

غاصت رؤوس المعاول في الأرض الصلبة، تطايرت شظايا صغيرة من الحجارة اليابسة. ضربة ثانية وثالثة في نفس اللحظة وهم يرددون آيات التحصين لم تفتر شفاههم ولا قلوبهم عنها.

أصدرت الأرض أنينًا غريبًا فرفع عمار يده ليتوقفوا، وقد شعروا
بحجر أكثر صلابة ينتظرهم، انحنى على ركبتيه يزيح التراب بيديه
قائلًا:

- إنها صخرة ملساء.

زحفوا جميعًا حوله، وراحوا يزيلون التراب بأيديهم حتى تكشف
سطح حجري مربع الحواف، بدا كأنه غطاء ثقيل يخفي تحته شيئًا
أعمق.

ساد الصمت، ولم يُسمع سوى أنفاسهم المتلاحقة، ونطق صالح
للمرة الأولى وقال بصوت مبجوح:

- إنه باب!

وبآخر ما يملكون من قوة تكالبوا عليه، وأزاحوه جانبًا، فانكشف
فمٌ مظلم في الأرض، مستطيل كقبر عميق، ومن داخله تتدلى درجات
حجرية ضيقة، تبتلعها العتمة إلى أسفل.

عرقهم اختلط بالغبار والرغبة، جففوا جباههم بأطراف عمائمهم
البيضاء، لكن البلل ما لبث أن عاد يثقل وجوههم مع كل نفس.

ألقي عمار نظرة إلى الأسفل على ضوء المشعل وقبل أن يعلق على
طبقات السواد البادية في العمق أتاها صوت من خلفه يعرفه تمامًا:

- عمار!

استدار بجسده وهو يعتدل متسع العينين، مما جعل أنس يتراجع
بخوف، لا يعرف ماذا حدث لعمار الذي بدا كأنه ينظره من خلاله إلى
شيء ما يقف من خلفه هاتفًا:

- أُمي!

تحرك أنس وقد تجمدت الدماء في عروقه مقترباً من يحيى وصالح حتى التصق بهما، تقدم ياسين يضع كفه على كتف عمار الذي التفت نحوه فجأة دون ترمش أن عيناه، وقال بصوت مبحوح وهو يشير إلى الفراغ:

- أُمي كانت هنا!

وضع ياسين يده على جبين عمار، حرارته كانت مرتفعة، وجسده بدأ في الارتجاف، همس ياسين:

- أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.

انطلق صوت أنين من الأسفل يشبه أصوات الحيتان تبعه أصوات سلاسل تُجر.

قال عاصف وقبضته تتشبث رغماً عنه بمعوله:

- الجدة كانت على حق.

قال يحيى بجرأة متزايدة أبهرت عاصف والفتية الثلاثة الذين كانوا يلتصقون بعاصف من الجانبين:

- أنا سأنزل أولاً.

قبض صالح على رسغه، وقال محاولاً السيطرة على ارتعاشة صوته:

- لا يجب على أحد منا أن ينزل.

مال يحيى برأسه صوب صالح وربط على كتفه بقوة متممًا:

- تذكر كلام الخالة راوية عن اليقين يا صالح، فإن كنت لا تستطيع استجماع قلبك فابق هنا أفضل لك ولنا.

ثم التفت إلى البقية وقال بنفس الهدوء:

- أنا أيضًا أرتعش من الداخل لكن هذا لن يثنيني عن استكمال مهمتنا.

توقف لحظة ينظر إلى عيونهم المتسعة ثم تابع:

- في الأساس لا يمكن أن ننزل جميعًا، يجب أن نوزع أنفسنا بين الأسفل ومنتصف الدرج وأعلى.

شعر ياسين أن جسد عمار أوشك أن يهدأ وأخذ يرمش بعينه عدة مرات ويستعيد أنفاسه المسروقة وهمهم مبهوتًا:

- نحن نتكلم كثيرًا، لقد أفلحوا في تشتيتنا عن ذكر الله.

هدأوا من روعهم وبدؤوا يهتممون بأية الكرسي، لكن من العجيب أنهم استمعوا إلى أصوات تحاصرهم، وتكرر الآيات خلفهم يتخللها ضحكات تشبه ضحكات الضباع، مما جعل قلوبهم ترجف، وعيونهم تتسع عن آخرها.

شعروا أن ألسنتهم قد شلت وتصلبوا جميعًا، وقد تملك الخوف منهم، تكرر الأصوات الآيات الأولى فقط لكن الضحكات جعلتهم مشوشين، واختلفت عليهم قلوبهم.

اندفع عمود من الدخان الأسود من فتحة القبر على ارتفاع منخفض خطف أبصارهم، غير أنه تشكل وهو يهبط على شكل أذرع والتف من حولهم يطبق عليهم يفرقهم.

انفصلوا وبات كل واحد منهم داخل دائرة من الدخان تُعمي بصره، وتُجمد لسانه.

حتى جاءت اللحظة التي أطبقت على أرجلهم وسحبتهم نحو المقبرة المفتوحة كفم وحش مظلم ينتظر التهامهم.

حينها شعر عاصف بشيء ما يحط على صدره، وعينان ذهبيتان يعرفهما تنظران إليه كأنهما تشاركاه المصير نفسه برضا.

ثم جاءت الصرخة... صوت يُحلق فوقهم على ارتفاع قريب، أجنحة ضخمة تشق الهواء من حولهم في دوائر منتظمة فتفرق الدخان الأسود وتحرر أرجلهم من الأسر المجهول.

ومعها زال أسر حناجرهم، فجأة فانطلقت ألسنتهم بلا توقف باسم الله الحي القيوم وهم يرون الدخان ينسحب عائداً داخل القبر.

استحالت أنفاسهم إلى شهيق يبدو كاحتضار جماعي، لكنهم لم تكن لديهم فرصة للانهيـار، كانوا يعانون الصدمة والدهشة والذهول، لكن العُقاب لم يمنحهم أكثر من ثانيتين قبل أن يندفع بداخل المقبرة، كأنه يطارد الدخان.

حينها بدا يحيى كأنه فارس من الزمن الغابر، وهو يقفز يتبع العُقاب إلى الأسفل.

احتضن عاصف بومته وهو يرى عمار يقفز خلف يحيى، ومن بعده ياسين الذي أشار لصالح وأنس أن ينتظروا عند الدرج ولا يتبعوهم.

كانوا يتنفسون ذكر الله، ويتواصلون بالإشارة فقط، الفتية الثلاثة لا يزالون مذهولين يستندون بأكفهم إلى الأرض في محاولات حثيثة للتنفس.

كانوا مدركين أن العُقاب ليس مجرد طائر يألفهم ويألفونه رغم ضخامته وقوته وصوته المخيف، تلك اللحظة فقط أدركوا أنه لم يكن يحميهم من المتطفلين فقط؛ إنه أقوى من ذلك بكثير، أكثر مما تستطيع عقولهم تفسيره!

أما في الأسفل، فلا يزالون يتفاهمون بالإشارة فقط، حتى بعد أن اختفى الدخان والعقَاب معًا، كأنهما في مطاردة أبدية لا عودة منها. وقعت أعينهم على الكفن الأبيض الملفوف، والملقى فوقه الكثير من التراب، كأنه جثة، لكن هذا التكوين ليس لجثة أبدًا، وإلا لكانت جثة عملاق من العمالقة!

وبنظرة بينهم انقضوا على التراب يزيلونه بسرعة وانفعال، وأزيز صدورهم يعلو.

وعندما ارتطمت أيديهم بقماش الكفن، أيقنوا أنه يحوي صناديق خشبية.

أخرج عمار خنجرًا كان يخفيه في طيات حزامه حول خصره، وبدأ بتقطيع الكفن.

تبادلوا النظرات في صمتٍ لا يقطعه إلا خشخشة أنفاسهم، مدَّ عمار الخنجر وبدأ في تمزيق شرائط قماشية عريضة، حتى صار عندهم ما يكفي من قطع القماش.

لَفُّوا بها الصناديق بإحكام، ثم جرَّبَ عمار بيده وزن أحدها، فاهتزت كتفاه تحت العبء كأن الصندوق أثقل من مجرد بارود.

كُونُوا سلسلة على الدرج الحجري، الأول في القاع يرفع الصندوق من الأرض، والثاني يتلقَّاه من منتصف الدرج، والثالث يناوله عند الفتحة.

كل صندوق كان يمرُّ كأنهم يحملون جثة، بلا كلمة ولا همسة، كأن القبور نفسها تتسمَّع لحركاتهم.

كان صالح يلهث وهو يمدُّ ذراعيه أكثر من مرة، وأنس كاد يُفلت صندوقًا من بين يديه، لولا أن قبض عليه ياسين بسرعة، فارتجَّ المشعل وكاد ينطفئ.

شهقة قصيرة خرجت منهم جميعاً، ثم عادوا يتابعون العمل ببطء
أشد، والعرق يقطر من جباههم.

يمرّرون عبئاً مشتركاً ليس من الخشب والبارود فقط، بل من سرّاً
ثقيل لا يحق لأحد أن يعرفه.

عندما خرج آخر صندوق كانوا منهكين، عيونهم حمراء من الغبار،
وأذرعهم ترتعش من الوهن، ومع ذلك، لم يتجرأ واحد منهم أن يجلس
ليستريح.

كانوا يعرفون أن الخطر لم ينتهِ بعد، بل بدأ للتو.

لم يصدّقوا نجاتهم، كانوا يتنفسون بصدورٍ متقطعة، كأنها فقدت
إيقاعها الطبيعي. أياديهم لا تزال ترتجف وهم يكدّسون القش والجريد
بعشوائية فوق الصناديق المُخبّأة في العربة الخشبية.

إعادة الحجر الضخم إلى مكانه كان أشبه بإغلاق بابٍ على وحشٍ
حي. دفنوا الفتحة بالتراب بسرعةٍ متخبطة، وأقدامهم تنزلق فوق الغبار،
وكلّ منهم يستعجل الآخر كأنهم يخشون أن يفوتهم القطار الأخير إلى
النجاة.

عمار وحده لم يشاركهم شعور الارتياح، عيناه التقطتا ظلّاً خلف
زجاج نافذة الكوخ المُطلّ على المدافن.

مدّ يده يقبض على ذراع يحيى وأشار بعينه نحو النافذة، التفتوا
جميعاً، فإذا بوجهٍ شاحب يطلّ من وراء الزجاج، تغطيه التجاعيد
كخريطة عمرٍ طويل.

كانت القابلة، بملامحها الساكنة، تحدّق إليهم بنظرة هي مزيج غامض من معرفة قديمة وصمتٍ أثقل من الكلام.

لم تتحرك شفاتها، لكنها أمالت رأسها قليلاً كمن يُحذر، ثم تراجعت إلى عتبة الكوخ، تاركة قلوبهم تخفق بأسئلة لا جواب لها.

حين بلغوا سفح الجبل، كانت أنفاسهم متقطّعة ووجوههم مُغطاة بالعرق والتراب، وبين الظلال المرتجفة، لمحوا وصال واقفة عند حافة الصخرة، لا تكفُّ عن الالتفات يمنة ويسرة، يداها معقودتان فوق صدرها كأنها تكبح ارتجاف أصابعها.

لمّا رأتهن، اندفعت نحوهم بخطوات سريعة، وعيناها تلمعان بقلقٍ لم تُخفه.

رفعت صوتها أكثر مما اعتادت:

- تأخرتم... ظننت أنكم...

توقفت عند الكلمة، كأن صوتها انكسر في حلقها، وغطت وجهها تُخفي ارتعاش الدمع في عينيها، وللمرة الأولى يُظهر عاصف الشاحب لمحة تعاطف مع أخته واقترب محتضناً إياها.

هو أيضاً كان في حاجة إلى الاحتضان والشعور بالدفع والأمان بعد كل هذا الرعب الذي واجهه الليلة، بل يريد أن يصعد سريعاً إلى أمه ليرتمي في صدرها ويبكي كالأطفال حتى يشعر بيدها تمسح على شعره، وبشفتيها وهي ترقيه هامسة بحنو يحتاج إليه!

ساد صمت فاتر مُتعب، قبل أن تنتزع نفسها فجأة من حضن أخيها وقالت بعزمٍ مفاجئ وهي تنظر إليهم واحدًا بعد الآخر كأنها تتأكد أنهم جميعًا بخير:

- الجدة أمرتني أن أنتظركم هنا، وأخبركم أن تتركوا العربية بما فيها عند هذه الصخرة.

وأشارت إلى الصخرة التي كانت تنتظرهم عندها!

ارتبكوا قليلًا كأنهم لم يستوعبوا ما سمعوه بعد، وقال يحيى وهو يزيح التراب عن جبينه بيده التي لا تزال ترتجف:

- نتركها هنا... بعد كل هذا العناء والرعب؟!

رفعت وصال رأسها للأعلى بحركتها المفضلة، بينما أثر الدمع يلمع في عينيها وقالت بثبات:

- قالت الجدة بالحرف... دعوا الأمانة للصخر... سيحفظها كما يحفظ صدر الأم وليدها.

اقترب عمار خطوة من الصخرة، وضع كفه على سطحها الخشن، شعر ببرودتها تتسلل إلى جلده، لقد تعلموا الليلة أن الجدة تعرف ما تقول أكثر مما يجب!

فقال بصوت منخفض لكنه حاسم:

- إذا كانت وصية الجدة... فلا مجال للجدال.

انخفضت رؤوسهم في تردد، لكن شيئًا في تلك اللحظة جعلهم يستسلمون، كأنهم أمام سرٍّ أكبر من طاقتهم على الفهم.

كان الفجر قد انقضى منذ قليل حين شدَّ نصر عباءته الداكنة فوق كتفيه، وألقى نظرة سريعة في المرأة المعلقة بجوار الباب.

وجهه بدا شاحبًا، كأن الليل لم يتركه بعد. مدَّ يده ليمسّد لحيته القصيرة، لكن ارتعاش أصابعه فضح الأفكار القلقة التي تدور بذهنه؛ تُرى هل انتهوا؟ هل خرجوا سالمين أم وقع لهم مكروه؟ أكان ينبغي أن يعود إليهم أولًا ليطمئن؟!

نظر إلى الأعلى حيث حجرة والدته، من الصعب تركها وحدها لكن عدم زهابه لحضور الجنازة سيلحق به عارًا بين العائلات، مهما كانت الخصومات بينهم فمن الواجب أن يسير معهم في جنازته حتى إيداعه مثواه الأخير.

عندما خرج من داره سار وحيدًا، الصمت يلفه كعباءة ثقيلة، رأسه مُطأطأً والوساوس تستدرجه حتى كادت تجعله يفكر جديدًا في العودة إلى المقابر في الحال، غير أن صوتًا خشنًا مألوفًا ناداه من خلفه:

- يا شيخ نصر.

رفع عينيه فرأى الشيخ سليمان يسرع الخطى نحوه، عصاه تضرب الأرض في إيقاع حاد سريع، التقيا الاثنان في منتصف الطريق، ثم تابعا السير جنبًا إلى جنب بخطوات وثيدة.

قال سليمان بصوت متماسك، ونبرة محايدة ممتنة:

- بعض الواجبات لا خيار لنا في تركها يا شيخ نصر.

ظل نصر صامتًا، لم يُعلق بكلمة كأنه يبتلع صخرة، فاكتفى بأن يُصغي إلى الشيخ سليمان وهو يثرثر بصوت خفيض عما جرى أمس عند ضفاف الرمال السوداء؛ واللعة التي ترددت همساتها بين الرجال

والنساء، الظهور المفاجئ لعجوز البركة وحديثه عن نبوءة غريبة، ثم نزيف آصف المفاجئ وسقوطه صريعاً في الحال دون سبب.

لم يصمت الشيخ سليمان إلا حين لاح لهما الطريق المؤدي إلى المقابر وقد امتلأ بصفوف الرجال، يسرون في نظام مهيب، تتقدمهم وجوه مكفهرة وعيون مطرقة.

ومن بينهم برز خاطر، يخطو بخطوات متماسكة رغم الانكسار الواضح في ملامحه، يتشبث بخشب النعش كأنما يحمل روحه فوق كتفيه.

انحنى نصر قليلاً في خشوع، ثم خطا بخطوات ثابتة ليلتحق بالصفوف، فتنحى بعض الرجال في صمت ليفسحوا له الطريق.

وجد نفسه على مقربة من خاطر الذي كانت كتفه تهتز تحت ثقل النعش، فمدَّ يده يعاونه في الحمل، فالتقت نظراتهما للحظة قصيرة، لم يقل أحدهما شيئاً، لكن العيون أفصحت عن كل ما ضاع.

كان خاطر يشعر بأن كل خطوة تقوده إلى قدرٍ لا مهرب منه، كأنه يسير داخل حلم ثقيل لا ينتهي.

كيف يموت آصف في لحظة كهذه؟! لقد ظن أنه لن يموت أبداً، كأنه أبدي!

المشهد كله بدا غير واقعي، أشبه بكابوسٍ يطول ولا ينتهي. كأنها ليست جنازة أبيه وحده، بل جنازته هو وعهد حكمه الذي يوشك أن يدفن.

رمق الوجوه من حوله؛ وجوه غُلفت بالجدية والخوف، لا بالحزن! عيون تفرُّ من النظر إلى النعش كأنها تخشى أن تنكشف سرائرها.

مضت الجنازة بطيئة، والنعش يتأرجح على أكتافهم كأنه يئنُّ معهم،
والوجوه المتعبة تتجه صوب المقابر حيث ينتظر الصمت الأخير.

ما إن خطوا داخل مدفنهم الخاص حتى لاحظ خاطر أن هناك شيئاً
ما ليس على ما يُرام، قد كان هنا عند اكتمال القمر في الشهر الماضي،
ويداه تعرفان كيف يُسوِّي التراب بعناية حتى لا يترك خلفه أي أثر.

لكن الأرض الآن مخلخلة، غير متساوية، كأن يدًا غريبة نبشتها على
عجل! أحدهم عبث بالمقبرة الخالية، رفع بصره نحو الشاهد الحجري،
النقوش التي طالما حفظها عن ظهر قلب بدت باهتة مموهة.

صدى بعيد للكلمات والده الواثقة تتردد في رأسه «لن يجروُ أحد يا
خاطر، هذا النقش سيحمي ما يجب أن يظل محفوظاً».

ضغط أسنانه كي لا يشي وجهه بما يراه، وتظاهر بأن كل شيء
طبيعي، بينما الناس منشغلون بوضع النعش أرضاً وترديد الأدعية
بالرحمة، أدار رأسه جانباً سريعاً ليتأكد أن أحداً لم يلحظ ارتبাকে، لكن
عينيه التقتا للحظة بعيني نصر.

كأن الأخير قرأ شيئاً لم يُرد أن ينكشف ورغماً عنه استرخت ملامحه،
وقد تأكد بأن رجاله قد أوفوا بعهدهم معه ونفذوا المطلوب بجدارة، وكل
ما هو بحاجة إليه الآن هو أن يطمئن عليهم.

ذاك الاسترخاء اللحظي وشى به، التقطته عينا خاطر عقد حاجبيه
وبداخله يُقسم أنه لو حدث ما يشعر به الآن فسيبيت نصر في قبره الليلة
كوالده تماماً!

جلس الشيخ فاضل عند رأس القبر يردد الأدعية بصوتٍ رخم، بينما
تولى آخرون إنزال الجثمان إلى جوف الأرض.

انهمرت حفنات التراب تباغًا، تُصدر أصواتًا مكتومة، كأنها طعنات تُغلق آخر فصل في حياة آصف.

وقف خاطر متيبس الجسد، يردد الأدعية بلسانٍ مُتَجَرٍّ، فيما عيناه بين لحظة وأخرى تزوغان إلى القبر الفارغ.

كان حدسه صحيحًا فهو من يُدفن الآن وليس والده فقط، وأن ما يُهال على الجثمان ليس ترابًا بل ثقلًا ينغلق على صدره.

وحين انتهوا من الدفن، انفَضَّ الجمع واحدًا تلو الآخر.

صافحوه، وعزَّوه بكلمات متكررة باهتة، ثم غادروا في صفوفٍ متباعدة، يتلاشى وقع أقدامهم شيئًا فشيئًا.

ربط الشيخ فاضل على كتفه يعزيه ويحاول إقناعه بأن يغادر بصحبته، لكنه رفض بعد كل المحاولات غير المجدية من صهره.

لم يلبث أن بقي وحده، يقف أمام القبر الفارغ يراقبه كجرحٍ مفتوح ويحذره بأن لقبه كقبر فارغ بات يعني الكلمة حرفيًا.

وبمجرد أن تباعدت خطوات فاضل حتى اختفت تمامًا، عاد إلى الباب ممسكًا بحافتيه وأغلقه من الداخل، لف السلاسل حول المزلاج، ودس القفل ليتأكد أن أحدهم لن يفاجئه، لكن نظراته تلاحظ لأول مرة ذلك الخدش الرفيع أسفل فتحة المفتاح.

اتسعت عيناه بينما يمرر إصبعه على القفل، تحسسه ببطء مُدققًا النظر فيه، ارتفعت ضربات قلبه حتى آلمته وقد أصبح الشك يقينًا.

تراجع خطوة وهو يلهث، العرق يسيل على جبينه، التفت بعينين محمويتين إلى القبر الخالي، التقط المعول الملقى جانب الجدار- غرسه بعنف في التراب فتناثرت الحبيبات الداكنة وتطاير الغبار، وكل ضربة كأنها تفجَّر صدره المكتوم.

لم يعد يسمع سوى ارتطام الحديد بالأرض وصوت أنفاسه المتسارعة، كأن جنوناً استولى عليه ولم يعد هناك ما يوقفه، لا، لن يفقد كل شيء ببساطة هكذا، سيقتلهم جميعاً سيقتلهم.

وقف خاطر في عمق القبر، ساكناً كأن الأرض ابتلعتة مع ما ابتلعت، عيناه متسمرتان على الكفن الممزق أو ما تبقى منه، فتات قماش... اختفت الصناديق! شفتاه متيبستان، لم يخرج منهما صوت سوى أنفاس متقطعة أشبه بصفير مكتوم.

عروقه في صدغيه تنتفض، والدم يطرق رأسه طرْقاً متوحشاً، لكن قدميه ظلّت مغروستين في التراب كأنه صار هو نفسه شاهداً من شواهد القبور!

مد يده المرتجفة يلمس بقايا الخيط الممزق، ضمّه إلى قبضته كأنّه الدليل الوحيد على أن شيئاً ما كان هنا فعلاً، أن الجنون لم يبتلعه تماماً. رفع عينيه إلى السقف المنخفض، يبحث عن إجابة لسؤاله:

- من؟ كيف؟!

خرج من القبر مضطرب الخطوات، يتمايل كالمسعود، لا دموع... فقط ملامح قُدت من الصخر، عينان جافتان كأن الدمع جُمد فيهما للأبد، وفكٌ مشدود يوشك أن يتحطم من فرط الضغط.

كلما عبر زقاقاً ضاق عليه الهواء، كأن القبيلة كلها تتآمر ضده، يندفع منها ويترنح إلى أخرى، حتى بلغ عتبة بيته، ففتح الباب بركلة كادت تخلعه.

كانت قمر أول من نهض، مذعورة من صوته وهبئته، تراجعت للخلف نحو أبيها بعفوية عندما رأتة بعينين متسعيتين كأنه وحش خرج من القبور.

تأمله الشيخ فاضل بدهشة مُربّئاً كتف ابنته يطمئنّها، ويتساءل
متعجباً:

- ما بك يا بُني... ماذا حدث؟!

لم يُجبه، لكنه نظر نحو زهرة نظرة جمدها في مكانها وجعلتها
تتشبث بيد قمر من شدة الخوف، تقدم خاطر نحوها، عيناه حمراوان،
وصوته خرج كزئير مكتوم:

- بالتأكيد هو أنتِ... أنتِ من وشيت بي.

قطع الشيخ فاضل الطريق ووقف بمواجهته محاولاً تهدئته ليفهم
على الأقل، لقد كان ثابتاً هادئاً في المدافن، إنه حتى لم يره يبكي، فماذا
حدث ليجن جنونه على هذا النحو!

- ابتعد عنهما يا خاطر وأخبرني ماذا يحدث معك؟

حدق إليه خاطر كالمجانين واقترب منه حتى تقاربت جباههما وقال
كأنما ينفث حروفه من قعر جهنم:

- إذًا فهو أنت! تحالفت معهم ضدي، أرشدتهم إلى مكان البارود.

رد فاضل مستنكراً كمن تلقى طعنة:

- أجننت يا خاطر! لا أحد يعرف بمكان ال...!

لم يُمهله ليكمل؛ انقضَّ عليه كذئب جائع، أصابعه التفت حول عنق
الشيخ فاضل في قبضة خانقة.

تراجع جسده للخلف مُترنحاً ثم سقط على ظهره، فاندفع خاطر
فوقه جاثماً بكل ثقله، ركبته ككلّابة فولاذية تثبته إلى الأرض، ووجهه
يتصبَّب عرقاً وغضباً، وصوته يخرج كهدير مكتوم:

- خنتني يا فاضل... خنت أسيادك!

اندفعت قمر بجسدها نحو خاطر، تضربه بيديها وتشد ذراعيه
بجنون، عيناها جمرتان غارقتان في الدموع وهي تصيح بهستيريا:
- اتركه... أبي سيموت... اتركه!

هرعت زهرة تمسك بيد خاطر تحاول إبعاده، لكن عينيه كانتا
جمرتين مسعورتين، لا يرى ولا يسمع، أنفاس الشيخ فاضل تقطعت،
وصوته خرج متحشرج وهو يحاول دفعه عنه بلا جدوى.
حينها صرخت قمر في لحظة يأسٍ أخيرة وهي ترى النور يفارق
عيني أبيها:

- اتركه... أنا من وشيت بك... أعرف أين تخفون البارود... كنت
أراقبك... كأني زوجة غبية تعرف أنها لا تملأ عيني زوجها.
خاطر ظلّ جاثيًا على ركبتيه، يرمقها بعينين تشتعلان بجحيم لا
يوصف؛ جحيم شيطان لن يتركه قبل أن يرتوي!

نهض ببطء فتراجعت زهرة صوب الباب عازمة على الهرب لطلب
المساعدة، لكن الرعب أبطأها، اتسعت عيناها وهي ترى خاطر يجذب
قمر يلف وشاحها حول عنقها وفي عينيه نظرة ليست له.
كيف استحال البياض في عينيه إلى سواد كامل، كيف يزأر بذلك
الصوت الغريب.

لم تلاحظ الشيخ فاضل وهو ينهض متعثراً، يمسك بعصاته الغليظة،
يرفعها عاليًا، وبقوة أبٍ ابنته تصارع الموت أمامه هوى بها بقوة على
رأس خاطر من الخلف.

قوة صوت الضربة هي من جعلتها تفيق وترى الدماء تسيل غزيرة
من رأس خاطر، لكن من قال إن من سكنه للتو يموت بالنزف!

دفع قمر للخلف فشهقت تعبئ صدرها بالهواء، وعندما استدار انتزع العصاة من يد فاضل فتحت زهرة الباب وخرجت صارخة تستنجد.

تجمع الناس على صوتها، يهرولون خلفها نحو الدار دون أن تتوقف عن الصراخ، وحين اندفعوا إلى الداخل كان مشهداً دمويّاً.

الشيخ فاضل مُلقى على ظهره والدماء تجري من كل مكان حول رأسه، وبجواره خاطر مُلقى على وجهه، دماؤه مختلطة بدماء فاضل على الأرض.

أما قمر فهي تقف مذهولة، قابضة بكلتا يديها على قضيب من حديد مُلوّث بالدماء!

تعالّت صرخات النساء وهن يخرجن راكضين يلطنن وجوههن، والدار تزداد ازدحاماً والهمهمات تعلو: «الفتاة قتلت أباهما وزوجها!».

سقط القضيب من يد قمر وهي تقترب من والدها، انحنت تمسح الدماء عن جبهته، لكن أحد الرجال اندفع نحوها يمسك ساعدها بعنف، بينما صوت شيخ غريب لا يعرفوه يصدح بصوت له دوي معدني أجوف وهو يشير نحوها:

- من قتل يُقتل.

شدّها الرجل بقسوة، حاول جذبها خارج الدار، لكن زهرة التي تشعر بأنها داخل حلم مرعب اندفعت بكل قوة تملكها نحوه فاختل توازنه عند الدرج وسقط متعثراً بجلبابه الطويل.

وجدت قمر نفسها تهول دون تفكير، لا تدري كيف ولا إلى أين، انزلق وشاحها وارتطمت قدمها بعتبة الباب الخلفي المرتفعة فأدمتها لكنها لم تكثرث للألم ولا الدماء، عيناها متسعتان، تهرب من زقاق إلى آخر والأصوات من خلفها تقترب، أحشاء الطرقات تبتلعها.

سقطت مرات ومرات واختلط التراب بدمعها، تشعث شعرها حتى صار سوادًا مُلوئًا برماد الأرض، تركض كالمجنونة، هل حقًا مات أبوها؟ مات! وهل يموت الآباء؟!

كلمة وحيدة أخذت تتردد مع ضربات قلبها المتعالية مختلطة بنشيجها: «قاتلة، قاتلة».

فجأة شعرت بيد تسحبها من خلف باب، لم يكن بيتًا، لم يكن مكانًا تعرفه إلا بأنه كان قديمًا غابة موحشة، ثم وبعد غرق خديجة وجلال الدين ضربوا حولها الأسوار المرتفعة، ولا أحد على الإطلاق يعرف ماذا يدور في الداخل!

شهقت، صرخت، لكن الباب الحديدي أُغلق خلفها في لحظة لا تناسب ثقله، وحبس معها كل صوت.

النعيم

استلقى مالك على الأرض قرب الباب، مستندًا بظهره على الجدار، والفرش المتواضع بجانبه لم يكن كافيًا لتخفيف التعب، لكنه اكتفى به. غلبه النعاس سريعًا، وغفا، حتى لم يشعر بالوقت يمر. كل شيء حوله كان ساكنًا إلا همس الريح، وأصوات بعيدة لم يستطع تحديد مصدرها. جسده كله استسلم للنوم، والبرد والخوف والتعب امتزجوا ليجعلوه في حالة شبه غيبوبة، كأنه يطفو بين اليقظة والحلم.

حركة خافتة قرب الباب الداخلي للبيت أثارت انتباهه؛ ظلَّ شيء يمر بين الظلال، كأنه يراقبه بهدوء، قلبه ارتجف قليلًا، لكنه لم ينهض فورًا، جسده ما زال ثقيلًا من النوم الطويل، وكل ما استطاع فعله أن يحدق إلى الظلام أمامه.

لحظة الترقب استمرت، لم يملك القدرة على التحرك بعد، فقط ظلَّ مستلقيًا، ينتظر ما سيأتي، حتى تسلت خيوط الضوء الأولى بين ظلال الليل الثقيلة، الهواء أصبح أخف، يحمل نسيمًا باردًا... رائحة يعرفها أكثر مما يعرف نفسه، رائحة التفاح!

ناضجة، حلوة، مختلطة برائحة الأرض الرطبة والندى على الأوراق. الرائحة سحرتة، ما لو كان خيطًا خفيًا يسحبه من صدره، إنه عطر الأشجار الذي كان مهووسًا بها منذ طفولته، ثم زاده الذي ظل يقاتل عليه سنوات وحده في قصر أبيه المهجور.

لم يكن يُدرك أنه يتبع الرائحة، يتنفس بقوة كأنه يملأ صدره بحياة جديدة بعد موت مُحقق! توجَّه نحو الجدار الذي أخبره عاصف عنه أمس، الجدار الذي يتسلَّقه خفية ليخرج دون أن تدري وصال، شبَّكَ أصابعه في نتوءاته البارزة، يتسلَّق ببطء، وكل حركة تمزَّق من جسده أنفاسًا مُتقطَّعة، وحين بلغ الحافة، استند براحته على الحجر الخشن، يلهث، رفع رأسه متطلِّعًا، فلم يرَ سوى سقف الدار الفارغ، ونافذة تُفتح لأعلى، حافتها مُشرعة، وغصن يابس أقحم ليسندها، ويمنعها من الانغلاق.

يكاد يُقسم أن النافذة هي مصدر الرائحة، وكل ما فعله أن بقي واقفًا هناك، يحدق إليها بعيون مُتسعة متعلقة بها، كأنها تُناديه باسمه، تدعه أن يقترب أكثر، تخبره أن خلفها بستان خفي يشبه ماضيه.

- ماذا تفعل عندك؟!

قطع صوت وصال أنفاسه وكاد أن يسقط، لكنه تمالك، جلس بروية على الحافة، يحاول أن يُظهر ثباتًا لا يملكه، ثم ببطء هبط من فوق الجدار، قدماه تلامسان الأرض بتثاقل.

نظر أخيرًا نحوها، كانت تقف عند الباب، ذراعاها مطويتان على صدرها، تحدِّق فيه بنظرة حادة كأنها ضبطته بالجرم المشهود!

خطى نحوها حتى اقترب، وهمس معتذرًا:

- آسف... لكن رغماً عني... هناك رائحة...

- كنت تدَّعي الوهن أمس... واليوم تتسلق وتتجسس علينا!

كانت هجومية للغاية وهي تُقاطعه بحدة، كان يريد أن يبرر، أن يُقسم أنه لم يقصد، لكن عينيها المتقدتين أربكتاه فقرر أن يُنهي الجدل معها هنا، ويعود إلى مكانه الذي نام فيه أمس ينتظر عاصف، فالحديث معه أكثر تفاهمًا وتبسُّطًا منها.

لكنها أوقفته بإشارة من يدها وقالت بصرامة:

- لقد آويناك أمس وقد كنت تطلب أن ترتاح قليلاً فقط... والآن من فضلك اخرج من هنا.

لقد طردته صراحة! أطرق والشعور بالخزي يملكه، فتحرك ببطء نحو الباب الخارجي لكن هتاف عاصف أوقفه، استدار فوجده يقفز داخل الدار وينفض كفيه وهو يتجه نحوه، لم يكن بحاجة إلى كثير من ذكاء ليعلم أن وصال التي بدت ملامحها عدائية وهي تراقبهما مستندة إلى الجدار خلفها.

- ماذا يحدث هنا؟

كأنه فتح على نفسه بوابة الجحيم، لقد اندفعت نحوهما وهي تشير إلى مالك بسبابتها متهمة وتهتف:

- هل تريد أن تعرف حقاً؟ حسناً... ضيفك المتعب هذا ضبطه وهو يتسلق الجدار الذي عرفه عن طريقك أنت بالتأكيد، كان يتجسس علينا ويحديق إلى سقف بيتنا.

حين نطقت بآخر كلمتين نظرت إليه نظرة عرف عاصف معناها، إنها تقصد النافذة على وجه التحديد.

لكن مالك الذي لم ينتبه لنظراتهما، كان كل ما يهمه وقتها أن يدفع تلك التهمة النكراء عنه فقال بصوت متهدج:

- أقسم لم أكن أتجسس... أنا فقط...

تلعثم وهو يحاول جمع كلماته لتبدو مناسبة وتابع:

- أنا شممت رائحة ثمار تفاح ووجدتني أسير خلفها!

- كاذب.

وقف عاصف بينهما ونظر إلى مالك نظرة ثابتة يختبره بحذر:

- تفاح؟! الثمار كلها لا تُزرع إلا في حدائق النعيم فقط... ربما حملت الرياح الرائحة من هناك.

تردّد الأخير، نظر بينهما، ثم هزّ رأسه ببطء، ثم أشار إلى سقف البيت وقال بثقة:

- أعرف من أين تأتي رائحته... لم أكن أتوهم.

تراجعت وصال خطوة للوراء، لم تستطع أن تخفي الانقباض في ملامحها، كانت على وشك أن تقول شيئاً، لكن عاصف رفع يده في وجهها ليوقفها عن الكلام، فصمتت تبتلع غصتها.

وبخفة استل خنجرًا كان يخفيه بين طيات حزامه، شعر مالك بنصل حاد يلمس منتصف ظهره فانتفض بينما عاصف يقول بشراسة:

- ثم ماذا؟

شحب وجه مالك، لم يكن يتوقع أن يتحوّل الشك إلى حدّ السلاح، تجمّد في مكانه، يحسّ ببرودة النصل تغوص أكثر كلما اقترب عاصف بوجهه منه.

ارتعش صوته وهو يحاول التماسك:

- ثم لا شيء... لا أعرف كيف أشرح... أنا خبير في زراعته... وأعرف رائحته جيدًا... أقسم أنه كان فضولاً ليس أكثر.

زاد ضغط عاصف بالخنجر وهو يهمس بين أسنانه:

- هل كنت ممن شاركوا في زراعة حدائق النعيم؟

تألم مالك، وشعر بخيط رفيع من الدم يتحرك ببطء كثعبان على جلده، عاصف ليس هادئاً مرحاً كما ظن، هو لا يختلف عن وصال كثيراً، غير أنه يمنح فرصة أولاً.

تمتم وهو لا يعرف كيف يقنعهما:

- أنا لا أعرف ما تتحدث عنه... أنا غريب عن هذه الأرض... أنتما أول من وجدتهما هنا... لا أعرف غيركما...

شعر مالك بأن أذنيه تنبضان بعنف، كأن الدم يطرق جدرانهما بمطارق صغيرة. تداخلت الأصوات من حوله، لم يعد يميّز أي شيء، الصوت صار همهمة بعيدة، فقد الإحساس بقدميه، ثم هوى أرضاً! انحنى عاصف سريعاً، لمس عنقه يتحسس نبضه، ثم نظر إلى وصال بارتباك قائلاً:

- يبدو أننا ضغطنا أكثر مما يجب... لقد أرعبناه.

نظرت إليه بلوم لكنه أوقفها قبل أن تتفوه بكلمة عتاب واحدة، وقال بسرعة وهو يحمل جسد مالك للداخل:

- أعرف أنني أخطأت من البداية... لكنه ليس من المعتاد أن يقابل الإنسان مناً يومياً خبير تفاح!

لكنها لم تصمت، منذ متى وهي تصمت عندما يجب أن تفعل؟! سارت خلفه وهي تهتف ساخطة وتشير بسبابتها نحو ظهره: - وبعد كل هذا تأخذه إلى الداخل... إنك تزيد الطين بلة.

عبر الباب إلى داخل البيت ومنه إلى حجرة صغيرة جانبية، تبدو كحجرة تخزين تحوي فراشاً بالياً، وممرًا صغيراً بين الفراش والجدار، وحقائب قماشية مُبعثرة.

وضعه هناك وأمرها أن تحضر له بعض الماء النظيف ومنشفة، وحين خرجت للحظات وعادت وجدته منحنياً مُتسع العينين وقد كشف عن ظهر مالك.

فتاة غيرها كانت تشعر بالغثيان وهي ترى الخطوط الطويلة والعرضية تملأ ظهره النحيل وآثار الحرق محفورة بين الخطوط كأنها خريطة تشير إلى وادٍ من العذاب سُجن فيه وحده.

لم يتمالك عاصف الرجفة التي شعر بها وقال مأخوذاً:

- ما الذي مرَّ به هذا الرجل؟!

جُمِدَتْ وصال في مكانها، ممسكة بالمنشفة، شعرت بأن ما تراه يتجاوز حدود قدرتها على الفهم، لم يكن الأمر مجرد ضرب أو تعذيب عابر، بل بدا كأن أحدهم نقش على جسده قصصاً لألم سرمدي، وحكاية لمعاناة لا تنتهي.

حين أفاق مالك وجد عاصف يجلس أمامه مستنداً إلى جدار حجرته الضيقة، يحتضن ركبتيه إلى صدره وينظر إليه بنظرات جمعت بين الشفقة والاعتذار، وحين ظهر الألم على وجهه وحاول تحسس مكان الألم في ظهره فلم تستطع يده الوصول نهض عاصف يمسك كتفيه ويحاول إعادته للفراش مجدداً، قائلاً بخفوت:

- لا تتحرك... ابقَ مكانك حتى تستعيد عافيتك.

الألم والدهشة تناوبا على وجهه، وهو يسترخي على جنبه مثبتاً نظراته على عيني عاصف المعتذرتين، والذي أردف كأنه لم يحدث شيئاً:

- وصال تحضر بعض الطعام لك.

همهم مالك بضعف:

- لا أفهم!

ساد صمت لم يقطعه سوى دخول وصال، تحمل صفحة صغيرة
عليها بعض الطعام وقنينة ماء... وثمرة تفاح!
قالت وهي تضعها جواره:
- تفضل.

نظر عاصف إلى ثمرة التفاح ثم نظر إليها بدهشة، فرفعت كتفها
وحركت عينيها كأنها هي أيضاً مصدومة من تصرفها!
كاد مالك أن يهتف «كنت على صواب» لكنه أثر الصمت، ألمه في
ظهره كان كالوخز المستمر، والدوار يلتف حول رأسه كلما تحرك.
اكتفى بأن يمد يده المرتعشة نحو التفاحة، يلمسها بأطراف أصابعه.
اتخذت وصال مجلساً لها جوار أخيها، شعر مالك بأنه مراقب في
ظل هذا الصمت المطبق، هي أيضاً عيناها تفيض بالشفقة لكنها تداريها
وهي تنظر في كل جهة بعيداً عنه!

لم يكن يقضم التفاحة، شعرت وصال بأنه يقبلها مما جعلها تعقد
حاجبيها، كأنه يلمس كنزاً ثميناً يخشى عليه، والبذور يضعها بترتيب
وهدوء داخل الطبق كأنه يربت أوراق وردة.
تكلم أخيراً وقال قبل أن يُجن:

- هل يشرح لي أحدكما ماذا يحدث... كنت ستقتلني منذ قليل!
قالها وهو ينظر إلى عاصف الذي قال سريعاً:
- لم أفكر في قتلك... كنت فقط أهددك لتقول الحقيقة... ثم فقدت
وعيك.

تبادل النظرات مع أخته ثم أردف:
- ظهرك كان ينزف فقممت بتضميد جرحك.

أطرق مالك ولاذ بالصمت، للحظات، لا يزال لا يفهم، كان سيموت لأنه
اشتم رائحة التفاح فقط! والآن يقدمان له واحدة!

جاءه صوت عاصف مترددًا يخرج من حيرته متسائلًا:

- هل كنت سجينًا؟

صمت فهممت وصال بخفوت:

- هل أنت هارب؟

حرك رأسه نفيًا، من المجنون الذي سيصدق حكايته؟! هل يحكي
عن القبو أم الحريق؟ أم عن الغرق؟ هل يخبرهم أنه عاش طفولته
وصباه كفتاة؟!

همس مطرًا، خجلًا، ربما هذا ما جعله يختبئ في قصر مهجور
مشحون بالأشباح، الأشباح التي لم تؤذه طيلة عشر سنوات وحيدًا معها،
لكن عائلته آذته، والده وأخوته سلخوا ظهره ضربًا وحرقًا، وأمه قتلت
روحه كرجل وجعلت منه مسحًا لا يدري كنهه.

- لا أذكر.

قالها وسكت ففهما أنه لا يريد البوح. قال عاصف بجدية:

- هل تعلم عقوبة زراعة الفاكهة خارج حدائق النعيم؟

عقد مالك حاجبيه ونظر بدهشة:

- وهل هناك من يُعاقب لأنه يزرع... أي شيء!

أوماً عاصف، وبدأ يشرح له وقد أطلت نظرة مذهولة من عيني مالك
جعلت عاصف ووصال يصدقان بأنه غريب، لا يعرف ما يجري هنا:

- سكان هذه الأرض... إنهم غير مسموح لهم بزراعة الفاكهة، إنها

فقط تُزرع بداخل حدائق النعيم، فقط من يدخلون الأنفاق من
الفتيات والشباب مسموح لهم بأكل ثمرة واحدة، وبشرط، أن

يتركوا بذرتها قبل أن يخرجوا، من يسرق بذرة يُسجن أو يُعدم،
هي لصاحب الحقائق وسكان القصر فقط.

همس متشككًا:

- ولكن... لماذا؟

مال عاصف للأمام وقال كأنما يسرد أسطورة:

- الحقائق كانت أرضًا خربة محترقة، واشتراها أحد سادة هذه
الجزيرة، وعمل بها حتى أثمرت، فصارت له دونًا عن أهل الجزيرة،
وهناك ميثاق بذلك، يلتزم به كل من يعيش هنا.

- وبقية الثمار... أين تذهب؟

زم عاصف شفتيه وهو يجيبه:

- لا أحد يعرف.

حدق مالك إلى الطعام القليل الموضوع أمامه لبرهة، خبز جاف،
القليل من حساء العدس، ثمرة طماطم... وما فهمه أن التفاحة رفاهية
منحاه إيّاها للاعتذار لا أكثر.

سأل وهو لا يزال يحدق إلى ما بقي من طعامه:

- أليس من الغريب أن يوافق الناس على منع زراعتها في بيوتهم!

غمغم عاصف ساخرًا:

- وماذا يفعل الناس أمام ميثاق يخبرهم أن جميع البذور ملك
خالص لصاحب الحقائق، وأي بذرة تخرج خارج أسوارها تكون
خيانة للأمانة ولها عقوبة رادعة؟

ابتلع ريقه وقد بدأ يفهم، لماذا خافت وصال من أن يدخل البيت،
لماذا كانت شرسة، لماذا طردته وكاد عاصف أن يقتله؛ كل هذا لأجل
حفنة من التفاح من الممكن أن يُعدموا من أجلها، وربما لأجل هذا أيضًا

يرتفع سور بيتهم وجدرانه... شجرة تفاح واحدة جعلتهم كالمجرمين...
وهمس:

- كيف تصبح الثمرة خطيئة؟!

تبادلت وصال وعاصف نظرة صامتة، ثقيلة، اكتفى الأخير بعدها بأن
يشيح بوجهه عنها قائلاً:

- ستفهم... عاجلاً أو آجلاً.

لا يمكن أن تكون هذه مجرد غرفة قط، تبدو كأنها ديوان، مُظلم إلا
من ضوء شعلة ضعيفة مُثبتة في أحد الأركان البعيدة تبعث ظل إضاءة
مرتعشة.

وعندما دقق جلال الدين النظر، لمح شبّحًا يتخذ مقعدًا كالعرش،
بعيدًا عن الضوء فلم يتبين ما هو على وجه التحديد!

استطاع فقط تحديد أبعاد جسده فوق عرشه، يجلس مستندًا إلى
الخلف، وقد استراحت كلتا ذراعيه على فخذه، لم يحتج إلى كثير من
ذكاء ليعلم بأنه كان ينظر نحوه، خاصةً عندما رفع يمينه، وأشار إليه
بأن يتقدم باتجاهه.

ثلاث خطوات قبل يهمس العجوز مرتعشًا:

- يكفي.

طال بقاء الصمت في المكان كضيفٍ جُرّ عنوةً رغماً عنه!

- مرحبًا بك في قصري... يا صاحب النبوة.

انجذبت أذناه نحو صوته، لم يكن كصوت الطرق الذي سمعه في
الممر؛ كان مألوفًا بشدة وخاصةً حين تابع:

- لا تخف من كل هذا الظلام المحيط بي، فلقد ألمَّ بي مرضٌ يمنعني التعرض للإضاءة، إلا الخافت منها.

أنصت لكل حرف، حواسه تتلمس ذاك الصوت المميز الخشن علامة على التقدم في العمر أو ربما مرض ما، عمَّ الصمت مُجددًا، فأدرك عدم تفوهه بكلمة منذ دخوله، وقد انشغلت حواسه واجتمعت في حاسة سمعه فقط، ارتبك، أحس أن قدميه التصقتا بالأرض... ثم قال بنبرة ثقيلة تداري الخوف فيها:

- أريد أن أفهم...

تمهل صاحب الظلام قليلًا، كأنه يزن الكلمات، يزن مشاعر الخوف المستترة، يعلم بأنه لا يخاف على نفسه، لكن لا يهم، المهم أنه خائف وكفى:

- كل ما عليك أن تنفذ ما جاء في النبوءة.

قد فاض به الكيل من تكرار تلك النبوءة اللعينة، والتي لا يفهم منها حرفًا، خرجت حروفه غاضبة دون إدراك:

- ماذا عليَّ أن أفعل!

أصابع العجوز تقبض على كتفه بقوة؛ ليوقفه عن التقدم أكثر، بينما يتدخل في الحوار لأول مرة موضحًا، بنبرة خفيضة ونظرة زاجرة:

- أهل النعيم انتظروك لسنوات لتحقيق لهم الأمان، تنقذهم، وتنقذ النعيم من الغزو.

- أي غزو!

تساءل منفعلًا، وقد ضاق ذرعًا بتلك الأحاجي التي أثقلت ذهنه.

فانهالت الإجابة على عقله أشد وطأة:

- الملائعين!! شياطين... يظهرون فجأة، ويختفون في لمح البصر،
جرذان يحرقون الأخضر واليابس.

- أليس للجزيرة جند يحميها!

صمت مختلط بلهائه وحده، صمت مقيت، يلفح كاللهب، وذاك الكيان
القابع على العرش ينتظر باستمتاع نتيجة المباراة الكلامية الدائرة
بينهما، كأنه يمتلك الوقت كله!

- الجيش يحتاج إلى قائد، وكما ترى الحاكم بمرض لا يرجى بُرؤه
قريباً... وعندما ظهرت النبوءة... منحتنا مواصفات وعلامات كلها
تشير إليك... إلى صاحب الحكمة... القادر على حل اللعنة...
وإعادة الأمان إلى هؤلاء التعساء، الذين ظلوا خمس سنوات
يخرجون كل يوم ينتظرون ظهورك.

التردد، الأفكار العاصفة، لماذا هو؟! لا يزال لا يفهم، إنه يؤمن
بالسحر، بالجن، بالشياطين، بالملائكة... لكنه لا يؤمن باللعنات!

قد مر بتجربة مع هؤلاء الذين يسمونهم ملاعين، ربما لو لم يتدخل
الحرس وينقذونه في اللحظة المناسبة لقتلوه أو سجنوه، ذاق رشفة من
غلاظتهم، حتى إنه ارتجف وهو يتخيل أن تقع خديجة بأيديهم، ترى
ماذا كانوا سيفعلون بها.

هل يرفض ويخرج من هنا مصطحباً زوجته، لكن إلى أين؟ إنها
أرض غريبة، أهلها عيونهم متعلقة به كطوق نجاة، كما تعلق به
خديجة عندما سقطوا جميعاً بين الأمواج، لقد رأى نظراتهم الشاحصة
نحوه، المستغيثة به، ومع كل هذا يسمون أرضهم بالنعيم!

نعيم؟ أيُّ نعيم هذا!

في تلك اللحظة أتاها صوت الحاكم، كما لو كان يسكن خلايا عقله،
ويقرأ فؤاده بسهولة:

- الآن وقد عرفت... فيما أن تقبل الإرث، وتأخذ مكانك كقائد،
وتقضي على الملاعين... وإما أن يعيدك الحراس حيث وجدوكما
عند الجبل.

هل تمطى؟ خيّل له أن الحاكم تمطى في نهاية كلماته! أيحكي
قصة قديمة لطفل يهدده لينام، أم إنه يشعر بالسأم لمعرفته بالنتيجة
مسبقًا! أم ينهي المقابلة؟!

رفع رأسه بينما ينفذ شروده ليجيبه، لكن عينيه اصطدمتا ببستان
يقف بمنتصفه، لقد اختفى الممر المخيف، اختفى الحاكم وغرفته
المظلمة، العجوز فقط لا يزال بقربه، يقف مبتسمًا، كأن ما حدث للتو
أمرًا عاديًا، ويقول محدقًا بنظراته المصعوقة:

- نحن في الجهة الأخرى من القصر، هذا بستانك... وهذا عرشك.
التفت جلال الدين حيث كان العجوز يُشير بيده، هو نفسه قصر
الحكمة الأبيض، ولكنه لم يمر بهذا البستان حين دخوله، هناك بوابة غير
التي ولج منها بصحبة زوجته...
اختلج قلبه فجأة فقال هاتفًا:

- أين هي؟

أشار له العجوز برأسه كي يتبعه. بوابة أخرى، بهو آخر، أكثر
اتساعًا، أكثر بريقًا، مدفأة مألوفة، وعرشًا يشبه الأحلام! بديعًا، متلألئًا...
تقدم وقلبه ينتفض، وكل خلجاته تهفو شوقًا، لمس العرش بأطراف
أصابعه، لا يصدق؛ كأنه الماء متجمد، غير أنه لين للغاية، وثير للغاية،
نعيم!

أتاه صوت العجوز كأنه ينبعث من كل ركن من أركان القصر ويسبح مع الهواء حتى تملكه تمامًا قائلاً:

- استوِ على عرشك!

وجوار المدفأة، رقعة شطرنج تقف الأحجار بداخلها بانتظام وترتيب، تنتظر الحركة الأولى.

كان جناحه أعلى ركن في القصر، حيث الهواء النقي، والصمت أكثر وقارًا، بابه أسود، خشبي قاتم، بدا كأنه يمتص الضوء من حوله، ويحتفظ به داخل فراغاته المنحوتة بنقوش غريبة ملتوية، كأنها ثعابين تلتهم بعضها بعضًا.

على حوافه نجوم متداخلة مُقبضة، التركيز معها يُسبب الدوار! دفع الباب، كأنه فعل ذلك ألف مرة من قبل، جدران عارية، مُزخرفة بنقوش تشبه المنحوتة بالخارج، لكن ضخامتها هنا وكثرتها اقتحمت عقله، وجعلت رأسه يدور.

لم يثر الفراش الضخم الوثير انتباهه كثيرًا، ولا حتى المرأة الضخمة في مواجهته.

خطى نحو الشرفة المُشرَّعة يبحث عنها، لقد أخبره العجوز أنها انتقلت إلى جناحه، تحتاج إلى مياه دافئة، وراحة، والكثير من النوم.

وكما توقع وجدها، يبدو أنها حصلت على أكثر مما حصل هو عليه من تدليل، تستند إلى سور الشرفة القصير، لم يرها ترتدي تلك الأثواب من قبل، أقمشتها الحريرية تتطاير أطرافها حول قدميها، بينما الوشاح الناعم المُعلق بشعرها يهفو نحو خديها برقّة... تبدو كالأميرات.

شعرت به خديجة فالتفتت، تقدمت نحوه ترفل في حريرها المتطاير،
كان مأخوذاً بها، وبابتسامتها العذبة، لماذا يشعر بأن الزمن يتباطأ!
لم يمنعه ذلك من التمسك بكفيها ليطمئن أنها معه بالفعل، حدود
وغابة موحشة لم تستطع أن تفصل بينهما.

قارب وأمواج، وعاصفة عاتية، واقترب من الموت؛ ولم يترك كفيها،
حتى وهو يغرق... جزيرة غريبة، وقطاع طرق، ونبوءة عجيبة، لكنها
تظل ساحرته الأولى!

- هل أعجبك مظهري الجديد لهذه الدرجة!
انتبه لصوتها المدهوش لصمته الطويل، وتفحصه المربك لها،
فأرسل تنهيدة يحرر عقله من ذاك السبي الذي يملكه وهمهم يسألها:

- ماذا حدث معك؟

أجابته برقة لم يعتدها:

- جاءتني جارية، وقالت إنك ستلحق بي، وأحضرتني إلى هنا.

- جارية!

عقب بدهشة، فهو لم يلحظ أي فتاة في طريقه، بل لم يشاهد سوى
الحرس فقط!

تابعت حديثها الذي غلفه القلق، كأنها تعيش نفس المشاعر مجدداً:

- خُفت بشدة، ولكن بمجرد دخولي الغرفة، أخذتني الفتاة إلى
الشرفة، فوجدتك بصحبة العجوز في طريقكما إلى باب القصر،
فعلمت بأنك ستلحق بي قريباً...

ثم ضحكت بخفة، ودارت على عقبيها وتردف:

- ثم استسلمت للتدليل.

عاد يلتقط كفيها التي أفلتتهما من بين يديه وهو يقول مطمئناً:

- كل شيء هنا غريب، خشيت عليكِ يا خديجة.

أطرقت برأسها تتنهد، تريح رأسها على كتفه، وتربط على صدره
هامسة:

- لا تخش عليّ، يبدو أننا أخيراً سنكون بخير.

ندت منه نظرة نحو المرأة الضخمة المواجهة للفراش الأكثر ضخامة،
ولاحظ لأول مرة حوافها السوداء، إنها ليست مجرد حوافٍ مزخرفة، إنها
نقوش تشبه الغراب!

فجأة علا نعيق، آتٍ من خارج الشرفة، جعل جسد خديجة ينتفض
مبتعداً، استدارت تتبع خطوات جلال الدين، الذي سار بتمهل حيث
الصوت.

خرج إلى الشرفة لكنه لم يجد شيئاً، لكن الهواء كان ساكناً، كأن
الزمن توقف فجأة، كان بستانه الأشد جمالاً من كل الحكايات في الأسفل،
قابلاً بكل تفاصيله المدهشة، وعلى مد البصر بعيداً، كان سكان النعيم
يجدّون في أعمالهم بنشاط، ويتهامسون بسعادة تنضح بها وجوههم،
ويشيرون بأصابعهم تجاه القصر والشرفة، حيث يقف هو وزوجته.

الغريب أنهم جميعاً عجائز، ألم ينجبوا أبداً!

لم يفسر هذا الأمر حتى الآن، لكنه سيعرف، كل علامات الاستفهام
هذه ستزول، لن يسكن برجه المرتفع، ويترك الناس تتخبط في أمانهم
بشأنه، سيحارب قطاع الطرق، ويهزمهم، فينعم أهل النعيم بالراحة
والأمان.

حتى إنه سيُتمم زواجه بخديجة، وينجب الكثير من الأمراء، سيربيهم
على العدل والحكمة، سيكون حاكماً عادلاً.

ربما تكون خديجة مُحقة وأنهم سيصبحان بخير أخيرًا.
كان من المفترض أن تهدأ نفسه، بعد أن غلفها بكل هذا الأبيض
الناصع من الأحلام القابلة للتنفيذ، خاصةً أن خديجة لم تتوقف عن
التربيت على صدره تُطمئنه، قريبة للغاية، جميلة للغاية...
عقله يشوشه الضباب فيفقد آثار ماضيه... لكن في فؤاده ركنًا
بعيدًا... بعيدًا جدًا... ركنًا مسجونًا، تأتي منه صرخة استغاثة ضعيفة...
بصوت خديجة!

الفصل السادس

الكهف

كانت ضفاف الرمال السوداء تغرق في صمت ثَقِيل، لا يكسره سوى خريز الماء المتكسّر عند أعمدة قصر صقر القاسم المهجور، وقف عابد عند العتبة الحجرية، رداؤه الطويل الذي يرتديه عندما يستقبلهم فقط ينساب على الأرض كظلٍّ ممتد.

على جانبي القارب الذي يزحف متقدماً نحوه انتشرت النساء المتشحات بالسواد، وجوههن نصف مُغطاة، ترانيمهن الخافتة بدت كترنيمة جنازية، تشقُّ صمت المكان، الجسر الخشبي لم يؤدِّ إلى خيمة، بل إلى ممشى ضيقٍ يقود مباشرة نحو باب القصر الخلفي.

انفتحت الأبواب بصرير هائل، فاندفع من الداخل هواء ساخن كريح مقبرة منسية، إنه أفضل مكان للطقوس، البهو الفسيح الذي يتوسطه طاولة العشاء الأخير لعائلة القاسم التي احترق بهم القصر في أثناء جلوسهم حولها لا تزال كما هي!

الجدران المحترقة المشبعة بالظلم والقهر الذي مارسه هذه العائلة ضد الأبرياء والذي كان على رأسهم الابن الأصغر، مالك!

الشيء الوحيد الذي جدَّ على البهو هو ذلك الباب الحديدي الكئيب، المؤدي إلى غرف أسفل قاعدة الدرج الضخم، فُتِح الباب على مصراعيه، وولجت النساء بعتمتهن إلى تلك الغرف الزجاجية المبنية فوق شبكة من الأنفاق المتداخلة الفسيحة.

ابتسمن برضاً، وقد أخذ كل شيء مكانه كما أَراده سيدهن بالضبط، كل واحدة منهن تتخذ مقعدها الكبير في منتصف الغرفة، وتظهر من أسفلها منصة صخرية، تجعل القادم يقف عليها تحت أعينهن، يراهن كظلال بعيدة، فيما لا يُتاح له أن يلمحهن.

وفي أحد الأنفاق البعيدة عن المنصة الصخرية، تكومت قمر في حجرة ضيقة، هاربة من العالم، ومن نفسها، إنه آخر مكان فكرت أن تهرب إليه بينما قبيلة كاملة تطاردها، يطالبون بالقصاص.

القصاص ممن؟

هل شاهدوا الجريمة؟

هل لديهم دليل؟

هل ما حدث معقول؟ لا!

فقط استمعوا إلى شيخ رأوه لأول مرة، ظهر من العدم وسط دارهم، بين الجثث، وقال بأنها قاتلة فصدقه، لم ينقذها سوى القابلة التي جذبتها داخل الغابة المهجورة من بين الأسوار.

لا تعرف كيف فتحت لها الطريق نحو هذا المكان، جاءت بها إلى هنا كأنها تؤدي مهمة أوكلت إليها، حذرتها من الخروج، قالت لها بصوت حاسم:

- هذه الحجرة صارت هي عالمكِ الوحيد، وعليك أن تطيعي أوامر
الأسياذ إن أردتِ النجاة!

في المقابل، وعدتها القابلة بالحماية، بل وبالنعيم؛ أن تنام وتأكل كسرة خبز، قطعة لحم، وثمرتين... وهذا أكثر مما سيناله أهلها وأهل داو، الذين سيجوعون قريباً حتى ينسوا طعم الفاكهة، وسيُحرَّم عليهم أكلها، كما ستُحرَّم عليهم زراعتها.

وحدّهم الفتیان والفتيات الذين يأتون إلى الأنفاق بكامل إرادتهم، ويقدمون عروضاً ترضي الأسياد الجدد، يُكافؤون بثمرة واحدة لكل عرض، ولا يُسمح لهم بالاحتفاظ ببذورهم.

وقبلت قمر لم تجادل، حتى لم تعترض حين نادوها «سعادة»، كأن الكلمة سقطت عليها مثل ثوبٍ ضيق لا يُناسبها لكنها ارتضت ارتداءه بدلاً عن عُريِّ الهزيمة إن عادت إلى الخارج.



جلس عمار أعلى الصخرة يحدّق إلى البعيد، السماء تنبسط أمامه بلا حدود، بينما جسده مثقل بالإرهاك، درّبهم عاصف حتى انقطعت أنفاسهم؛ عندها فقط أدركوا أن ما يعدّونه هم تدريباً شاقاً لم يكن بالنسبة له سوى عادة يومية، روتين اعتادت عضلاته ممارسته منذ نشأته في الجبل.

آخر زيارة قامت بها وصال إلى نصر الراوي حملت أمراً قاطعاً: أن لا يهبطوا من الجبل، لكنه أراد زيارة سريعة ليطمئن عليه، ولكنها كانت الأخيرة.

الجميع كان متأهباً، الفزع من «اللعة» جعلهم يصدّقون كلمات عجوز البركة بلا جدال، ومع هذا، كان كل شيء يتداعى خاطر قُتل، الشيخ فاضل لقي المصير نفسه، والبحث جارٍ عن قمر لتنفيذ القصاص عليها.

لم تكن هناك حاجة إلى محاكمة، فالعيون رأت الدماء تقطر من يديها، وما قالته زهرة لا وزن له وسط هذا البحر من الاتهامات. شهادتها كحبة رمل أُلقيت في بحر رمال متحركة، لا تثبت أحدًا بل تبتلعه معها، لكن زهرة لم تصمت، ظَلَّت تصرخ بما رأت:

«خاطر حاول قتل زوجته»!

فيرد الشيخ الغريب ساخرًا: «وما الغرابة؟ كلنا نفعل، لكننا لا نقتل!». قالت: «خاطر حاول قتل الشيخ فاضل، فقمر دافعت عن أبيها!». قال: «كذب! كانا حليفين، ربما شجار عابر استغلَّته قمر لتغدر بهما». صرخت: «ولماذا تقتل فتاة أبيها؟». قال: «لأنه رفض أن يطلقها من خاطر، الذي كان يضربها باستمرار». قالت في يأس: «رأيتَه يتحوَّل إلى شيطان، عيناه اسودَّتا أمامي!». قال الشيخ الغريب: «فتاة صغيرة فقدت عقلها».

هكذا كذبوها جميعًا، وصدَّقوه، استحقُّوا اللعنة، استحقُّوا أن يسري الجنون في عروقهم كما يسري الغضب في عيني زهرة وقد فقدت كل من حولها، قتيلاً أو مفقوداً.

في إحدى الليالي، استيقظ الشيخ نصر على صراخ ينبعث من غرفة الحاجة وسيلة، اندفع إلى الداخل ليجد زهرة واقفة قبالة الجدار، الجدار نفسه الذي وقف أمامه عمار يوماً يحدِّق إلى الوشم الغامض الذي بدا كأنه ارتسم وحده هناك.

لكن زهرة لم تكتفِ بالذهول، كان بؤبؤاها يضطربان بعنف، يتحركان بلا انتظام كأنهما يتبعان شيئاً غير مرئي، كانت تشير إلى الجدار، تتشَهَّق، تختنق بأنفاس لا تدخل صدرها من فرط ما امتلأت به الغرفة من هواءٍ ثقيل خانق.

وفجأة هرعت تجري خارج الدار، حاول نصر اللحاق بها، لكن خطواتها كانت أسرع من إدراكه، بحث عنها طويلاً، حتى أبصر النار ترتفع عالياً من جرن الغلال في السوق

تجمع الناس من كل حذب وصوب، أصواتهم تتعالى بالذعر، تدفق الرجال والنساء يحملون الجرار والدلاء يحاولون إخماد النيران، لكن ألسنتها كانت تعلو كلما صبوا عليها الماء، كأنها تزداد سخرية من جهدهم.

الوجوه شاحبة، الأطفال يبكون، والعجائز يتمتمون بأدعية متقطعة، بينما يتردد اسم «قُطَاع الطرق» في الأرجاء كأنه حقيقة لا تحتل النقاش.

أما نصر، فوقف عند طرف الساحة يتابع المشهد بعينين مثقلتين، يعرف مصدر النار الحقيقي، إنه من صدر زهرة المحترق، ومن شيء آخر؛ شيء رآه في عيني زهرة قبل أن تهرع إلى الخارج، شيء لا يستطيع أن ينطق به للناس.

وقد أيقن بداخله ما كان قد أيقنه من قبل حين جاءه خبر غرق خديجة، لكن الآن وبعد كل هذا الظلم والقهر، فهؤلاء القوم لا يستحقون لعنة واحدة فقط، بل يستحقون كل اللعنات.

وفي طرف السوق، بين الزحام والظلال، كان عمار يرمق المشهد بصمت، وهو يستمع إلى اتهامات الناس لهم وضجيجهم باسم قطاع الطرق، ويرى زهرة تجري تجاه الجبال والنار مشتعلة بطرف وشاحها، وسؤال يطرق عقله، هل بدأت اللعنة الآن؟!

- عمار...!

اقتربت وصال تقف من خلفه بينما هو ينهض مستديرًا تجاهها،
فقالت:

- أعتقد أن زهرة مريضة.

أوماً يوافقها وهو يقول بخفوت:

- أعرف.

عقدت بين حاجبيها ورفعت رأسها للأعلى متسائلة:

- وكيف عرفت؟

- الجدة أخبرتني أنها منذ جاءت إلى هنا وهي ترفض الطعام وصامتة.

أطرقت قليلاً وكادت أن تلتفت لتذهب لكنها نظرت إليه كأنها تذكرت شيئاً:

- هل نخبر الشيخ نصر؟ أخشى أن يحدث لها مكروه.

قال على الفور وهو يخطو إلى الداخل:

- لا... لا داعي لإقلاقه... أنا سأحدث إليها.

وقفت أمامه مباشرة فتوقف ينظر إليها بدهشة هي تسأله بريية:

- ولماذا تثق بأنها ستستجيب لك أنت بالذات!

ندت عنه ابتسامة جانبية خفيفة، بالكاد ترى في عينيه، وقال وهو

ينظر إلى الاتجاه الآخر:

- لا شيء... هي لا تستجيب لأحد منذ مدة طويلة... سأجرب.

مر بجانبها وتابع طريقه داخل الكهف بينما هي ترمقه بشك ثم

تتبعه.

انحنى هو يعبر للداخل، اعتادت زهرة منذ أن جاء بها عمار هنا

أن تجلس في ركن مظلم، أشد ظلمة مما تتخذها والدته وصال وعاصف

والنساء الثلاث معها، والغريب أن بومة عاصف ألفتها سريعاً دوناً عن كل الموجودين في الكهف، فصارت تطير في العتمة إلى طرف الصخرة جوارها، خاصةً وهي تحدد إلى الفراغ كجثة لا ترمش!

- زهرة...!

ناداها عمار وهو يتربع قريباً منها ويضع المصباح بجوارهما ليستطيع رؤيتها، لم تجيبه، ضلت تحدد والبومة تسكن جوارها، فتابع:

- إنك هنا منذ شهور... هل تدركين هذا؟

لم ترد، فتنهد وقال مسترسلاً:

- ألن تخبريني ماذا رأيت في غرفة الحاجة وسيلة؟

رمشت بعينيها، أخيراً حصل على استجابة ولو بسيطة، لقد روى له الشيخ نصر تفاصيل ما حدث، ولقد فهم دون شرح أنها رأت ما رأى هو من قبل، لكنها لم تحتمل، وربما تعرضت لأذى أكبر، وإلا لما كان الشيخ نصر واثقاً بأن ما قامت به وإشعالها للحريق لا يمكن أن يخرج من فتاة صغيرة مثلاً.

وقفت وصال بعيداً تتابع ما يحدث، حتى الرمشة لم تغب عنها وإن كان ضوء المصباح باهتاً وضعيفاً، تراجعت للخلف جالسة جوار الجدة المنشغلة بالتسبيح وبدأت تحرك ساقها وتهزها بقوة ما لفت أنظار الجدة ورفعت رأسها إليها، وعندما وجدت عينيها مسلطة كالسوط على جلسة عمار مع تلك البائسة الصامتة... ابتسمت، ثم أطرقت قليلاً حتى أنهت وردها من التسبيح، وأخبراً غمغمت تقول لوصال:

- ماذا فعلتِ بشأن المؤونة يا وصال؟

التفتت نحوها متفاجئة وند أخرجتها من أفكارها المشتعلة للتو، ابتلعت ريقها وقالت بخفوت:

- القبيلة تمر بحالة جوع ونقص شديد في الثمرات ولم يعودوا قادرين على الصيد فالبحيرة كما تعلمين...
- صمتت الجدة وهي تتابع حديثها وتومئ لها للتتابع:
- لكن هناك شيئاً ما يحدث... عرفته اليوم فقط.
- اقتربت من الجدة ومالت نحوها هامسة:
- القابلة تدخل الدور وتُحدث الناس عن العمل في الحديقة!
- زمت الجدة شفتيها عاقدة حاجبها بينما وصال تحكي:
- وخاصةً الفتية والفتيات... تجمعهم وتدخل بهم الحديقة من باب غريب لم أره من قبل يجاور السور.
- ساد الصمت بينهما ودون أن تشعر وصال توقفت عن تحريك ساقها لكنها لم تتوقف عن مراقبة جلسة عمار مع زهرة، شعرت بالجدّة تضع كفها على يدها وتسالها باهتمام:
- ألم تعلمي نوع العمل هذا؟
- رفعت كتفيها وأخفضتهما علامة عدم معرفتها وهي تقول محذرة:
- ربما في زراعتها!...
- لو كان العمل في الزراعة فلم يدخلون من هذا الباب الذي وصفته يا وصال!
- قطع حديثهما ظهور عاصف عند مدخل الكهف ومن خلفه يحيى وياسين وصالح وأنس، ارتموا جميعاً أرضاً على فرشهم بينما عاصف يضحك وهو يتقدم نحو الجدة، جلس أمامها وهو يقول بغرور مُصطنع:
- لو رأيتهم يا جدة وهم يناشدوني لأكتفي بتدريب اليوم.
- ثم التفت إلى عمار الغارق في الضوء الباهت مع زهرة وقال:

- حتى عمار انسحب سريعاً متعللاً بتشنج حدث لذراعه.

قال يحيى بصوت يلوكه التعب والإجهاد:

- لم أناشدك.

ابتسمت الجدة للمرة الثانية، لقد اعتادت الابتسام منذ عام كامل، منذ أن خطا يحيى ورفقته نحو الكهف وبقوا هناك حتى باتوا من أهله، الآن تصدق أنها جدة بالفعل وليس مجرد لقب، حتى زهرة استقبلتها بحنوٍ وهي ترى عينيها المصدومتين ووشاحها المحترق بينما عمار يقص عليها ما حدث في القبيلة ووصية نصر له بأن يأخذها ويُخفيها فلقد باتت مطلوبة مثلهم!

هل هم مطاريد حقاً؟!

حينها دوت صرخة زهرة من الزاوية فانتفضوا صوبها، حاول عمار تهدئتها لكنه لم يستطع، فبمجرد أن سألها عن الوشم، مجرد سؤال لتخرج عن صمتها، اتسعت عيناها ودفعت المصباح واقفة وهي تصرخ، ربما سؤاله أنعش ذاكرتها أو جعلها تفيق من غيبوبتها التي سبحت بها لشهور، هل صدمها، لا يعرف، كل ما يعرفه أنها ظلت تشير إلى شيء وهمي وتصيح بجنون:

- خطوط أبدية... لا تنتهي... وعين... عين رمشت... العين حدثتني...
العين...

وصلت الجدة إليها، ووضعة يدها على رأسها بيد وهي تحتضنها باليد الأخرى، زادت صرخات زهرة وهي تحاول التملص، لا تحتمل لمسة، لا تحتمل كلمة، تريد الخلاص، نار تشتعل بداخلها لا تعلم من أين ولا متى تنتهي.

وهربت، تملصت من بينهم على حين غرة وهرعت للخارج، كانت البومة أول من لحق بها، وعندما خرجوا خلفها كانت تدور في دوائر وهي تصرخ بينما البومة تدور حول رأسها كأنها ترسم لها دوائر وهمية:

- أين الحافة؟ أين الهاوية؟ أريد الخلاص.

كانت تبحث بينما الحافة أمامها، لكنها لا تراها، ضاعت بين صخرتين فقط، بدت لها الصخور كأنها لا نهاية لها كأنها تمشي على أرض منخفضة وليس جبلاً مرتفعاً!

في النهاية اضطر عمار وعاصف إلى تكبيلها وإعادتها دخل الكهف، ولم يتركوها حتى وضعت الجدة كفها على رأسها مجدداً وظلت تردد الآيات وتهمس بها، بينما السكينة تتسرب بينهم وتغشاهم، حتى هدأت زهرة ومعها قلوبهم، نامت أو ربما فقدت الوعي، لا أحد يدري، مرَّ وقت طويل حتى همست الجدة أخيراً:

- إن شاء الله ستتحسن مع الوقت... لا تقلقوا... فقط ضعوا أعينكم عليها.

همست وصال وهي تجفف دموع الانفعال الذي تملكها وهي ترى زهرة بالخارج تبحث عن الحافة:

- أنا سأظل معها.

أشارت لهم الجدة أن يلحقوا بها بعيداً عن زهرة، وعند ركنها الخاص بها في الكهف قالت توجه حديثها نحو وصال:

- زهرة ستبقى في رعايتي ووالدتك والنساء هنا... أما أنت فيجب أن تذهبي إلى داو.

هتف صالح معترضاً:

- ولماذا؟

صمتت تنظر إليهم بروية، فقال يحيى وهو يقترب منها برأسه:

- لماذا يا خالتي؟

أرسلت تنهيدة عميقة وقالت بوضوح:

- القبيلة حالها يتدهور ونحتاج إلى مؤونة تكفيها... وهي الوحيدة التي لن تكون مثار شك... تستطيع أن تفعل هناك ما كانت تفعله في القبيلة.

قال عاصف على الفور:

- لكن المسافة التي ستقطعها طويلة جداً... من المستحيل أن تفعل هذا يومياً.

حرك عمار رأسه معترضاً على الاقتراح وقال كأنه ينهي الحديث:

- يا جدة هذه ليست القبيلة... إنها داو... وأنت أكثر من يعرف! تدخل ياسين في الحوار للمرة الأولى وقال مقترحاً:

- لدي من يساعدها هناك.

عقدت الجدة حاجبها متسائلة فقال موضحاً:

- ابنة عمي... إنها ليست مثلهم.

قال أنس دون تروٍ وقد غلبته الفكاهة:

- اممم... صافية.

التفت إليه ياسين بغضب فرفع يده معتذراً وهو يضعها على فمه.

ابتسم صالح وهو يضرب أنس على رأسه، وقال عاصف بجدية:

- أنا أيضاً وجهي غير مألوف لهم، سأذهب معها لأتقصى الأخبار وأساعدها... وإن لزم الأمر أحميها.

استند يحيى بجلسته المعهودة يمدد ساقًا ويطوي الأخرى يستند إليها مما جعل عمار ينظر إليه في انتظار ما يفكر به، يحيى أفضل من يرسم الخطط وهم يعرفون تلك النظرة فصمتوا ينتظرون تنهيدته التي تسبق إمساكه بغصنه اليابس الذي يلزمه منذ عام.

ولم يتأخر كثيرًا، أمسك بالغصن اليابس وبدأ يرسم خطوطًا تشبه الخريطة ويوجه حديثه إلى عاصف ووصال قائلاً:

- كل المطلوب منكم أن تعرفوا الطريق إلى بيت عمار حتى إذا لم تستطيعوا الوصول إلى صفية، فهناك مؤونة وبذور سنحتاج إليها في المستقبل.

ضرب عمار رأسه، لقد نسي تمامًا أمر البذور، وكذلك فعل ياسين وصالح وقال أنس بشغف:

- ألم نحكِ لكم... لقد غزونا الغابة من قبل عندما بدؤوا في بناء السور حولها.

التفت الجميع نحوه فابتسم، فقالت وصال مصححة:

- لم تعد غابة الآن... لقد بدؤوا يطلقون عليها حديقة النعيم.

غمغم يحيى بينما عيناه تلمعان:

- حسنًا... ربما يأتي يومٌ ونغزو نعيمهم هذا.

تسلَّلت وصال بحذرٍ عبر الطريق الذي رسمه يحيى في ذاكرتها، كأنها تخشى أن تضلَّ خطوته أو تنسى منعطفًا واحدًا.

لم تفارق شفتاها الذكر الذي لقَّنها عمار إيَّاه، تُردِّده همسًا متتابعًا، فيما كان صوته يرنُّ في داخلها «لا تتوقفي... ردديه بيقين».

فتمسّكت بالكلمات كمن يتشبّث بخيط نجاة وسط هلوية مظلمة.
كلما تعمّقت وصال في الدرب، كان الذكر يتردّد في صدرها أثقل
وأبطأ، كأن الطريق نفسه يبتلع أنفاسها. وعندما بلغت الركّام، توقفت
قدماها دون وعي، عيان متسعّتان على ما كان يوماً بين السلطان كما
وصفوه لها تماماً.

تردّد طنين غامض يشبه أنيناً يخرج من جوف الركّام، كأن الخراب
لم يكتفِ بابتلاع المكان بل ما زال يتنفس عبره.

كانت تسير في الطريق الضيق من بعد السوق كما رسمه يحيى،
تراقب الحجارة المهذّمة والجدران المتشابهة، حتى كانت تياس. لكن
عند منعطفٍ بعينه توقفت، الجذع اليابس المعوج.

انحرفت عند ناصيته وواصلت السير، حتى وقعت عيناها على
الجدار الذي ذكره يحيى، حجر داكن عليه دوائر متشابكة مرسومة
بالفحم والرماد، باقية رغم السنين والأمطار. كانت أم عمار قد اعتادت
أن تخطها في كل حصاد، والآن صارت العلامة الوحيدة التي تدل على
أن هذا هو بيتهم.

دخلت وصال البيت بخطوات حذرة، الباب الخشبي انفتح لها بصريـر
خافت، كأنه يعلن عن زائرة غريبة تطأ أرضه لأول مرة.

المكان ساكن على نحو يوجع، الغبار يتطاير في أشنة ضوء وحيد
يتسلل من الجزء المتهدم بالسقف، والهواء محمّل برائحة حجر قديم
وقماش نُسي في الصناديق.

أخبرها عمار أن الصناديق لا تحوي إلا ثياباً، وعليها أن تجمعها
وتُحضّر معها حقيبة مالك التي كان قد هيّأها ليحملها على متن القارب

قبل الغرق. تلك الحقيبة التي تسللوا إلى الغابة بعدها ليحصلوا عليها بعد أن علموا أن هناك أسوارًا سترتفع حول الحديقة والقصر.

اقتربت من الفراش، وضعت كفيها على خشبه البارد وبدأت تدفعه ببطء وحذر حتى انزاح عن الجدار، ثم أزاحت السجادة البالية، فإذا بالحفرة تظهر أمامها.

مدّت يدها فأخرجت الحقيبة الثقيلة، وأتبعتها بما استطاعت جمعه من صناديق ولفائف.

جلست تستند إلى الجدار، أنفاسها متلاحقة، والظلام يزداد حولها كثافة في انتظار عاصف والفتية الثلاثة.

وجوه لم تعتدها داو من قبل، سيأتون من طرق متفرقة ليلتقوا بها في هذا المكان الضيق. وحسب الخطة المرسومة، سيحمل الفتية ما جمعته عائدتين إلى الجبل، بينما تبقى هي وعاصف للبحث عن صفية عند الشروق كما أوصاهم ياسين، داعيًا أن تكون صفية لا تزال لم تتخلّ عن عاداتها التي يعرفها جيدًا.

وعند الشروق أيقظت وصال أخيها بصعوبة لملاقة صفية عند بئر الماء، حملت قربة الماء التي وجدتتها في بيت عمار وسلكت طريق البئر بينما عاصف يتبع خطواتها عن بعد.

وعندما وصلت وقفت ترقب البئر قليلًا بشك، لقد أخبرها ياسين أن الفتيات كلهن يذهبن إلى هناك لملء قربة الماء عند الشروق، لكنها لم تجد سوى بعض النساء العجائز وفتاة واحدة تساعدهن في جذب دلو الماء من البئر.

انتظرت حتى ذهب آخر النساء وبدأت الفتاة تملأ قربتها، حسمت أمرها واقتربت ترتعش الابتسامة على وجهها، لم يستطع ياسين وصفها، فقط قال إنها مليحة!

وقفت جوارها وهي تهمس:

- صباح الخير.

التفتت الفتاة وبادلتها التحية وهي تتفحصها بابتسامة مجاملة، وضعت يدها على خصرها وهي تسألها بفضول:

- لم أرك هنا من قبل!

أومأت وصال بارتباك، وهمست:

- الطين الجيد يعرف صاحبه.

اتسعت عينا صفية دهشة متفاجئة، هذه كلمات ياسين، تلفتت حولهما ثم اقتربت منها تبادلهما الهمس:

- هل هو بخير؟

عادت تومئ مجدداً، وهي تتظاهر بالاهتمام بقربة الماء قائلة:

- بخير...

عادت صفية إلى التظاهر بأنه مجرد حديث فتيات، ظلت تبتسم ابتسامة متشنجة وهي تحذرهما:

- أخبريه أن يحذر... فهنا كل مصيبة تقع يجمعون الناس في السوق ويقولون إن أهل الجبل هم من فعلوها... سرقة، حرائق، ولعنات... ونشروا بين الناس أسماءهم وصفاتهم والكل الآن يبحث عنهم لتنتهي اللعنة.

وجدت صفية بعض النساء تقترب منهما فهمست لها أن تحمل القربة وتتبعها، ففعلت، ومن بعيد، كان عاصف يراقب بتوتر متأهباً، ثم ما لبث أن استرخى حين رآهما تتبادلان الهمس بلا أثر للريبة.

قالت وصال وهي تسير خلفها وعلى مسافة قريبة منها:

- لقد وصلتنا الأخبار... لكننا في حاجة إلى مؤونة... لذلك جئتك اليوم أنا وأخي نبحث عن عمل.

وعندما اقتربت صفية من دارها، التفت حوله حيث الممر الضيق من الخلف لتسطيع التحدث معها بأريحية بعيداً عن الأنظار. وهي تقول بجدية:

- إن كان أخوك يتبعنا فاجعليه يتوقف الآن.

أشارت وصال بيدها إشارة خفية إلى عاصف كي لا يقترب أكثر، فاكتفى بأن تجمّد في مكانه عند أول الممر، عيناه تتابعان كل حركة منهما كظلّ مستنفر. عندها انحنت صفية قليلاً للأمام، وواصلت همسها:

- العمل أمره سهل... كل دار في النعيم تحتاج إلى من هم في مثل عمرك للعمل.

عقدت وصال حاجبيها وهي تتساءل:

- لماذا تسمونها النعيم؟!

حركت صفية عينيها كأنها لم تفكر في الأمر من قبل وقالت ببساطة:

- لا أعلم... فلقد بات الجميع يقول النعيم منذ أن بدؤوا ينزلون إلى الأنفاق ويأكلون من الفاكهة المحرمة.

شعرت وصال أن رأسها يثقل، ضغطت صدغيها بكفّيها، لا تكاد تفهم كلمة مما يُقال. رفعت نظرها إلى الأعلى تتمنى فقط أن تجلس وتحرك ساقها المتشنّجة. لكن في داخلها تملّكها نفور غريب، مجرّد

ذكر الفاكهة واقترانها بوصفها محرمة جعل معدتها تنقبض، كأنها
تتذوق مرارة لم تدخل فمها قط!

لكن صفية لم تترك لها فرصة، تابعت وهي تزفر:

- كل الفتيات هنا والفتيان لم يعودوا يريدون العمل، منذ شروق الشمس
وحتى ينتهي النهار لا يفعلون شيئاً سوى التفكير في الأنفاق وكيف
يبهرون أصحاب النعيم ليرموا لهم ثمرة... لذلك أصبحت كل الأعمال
تقريباً فارغة... حتى قرب الماء... العجائز هم من يملؤونها.

كان أول ما فعله عندما قام بفتح الأمتعة هو أن ابتسم، مد يده ليخرج
ذلك الشيء الذي حرصت وصال أن تضعه بين الثياب، لعبة قديمة لم
تفارقه في طفولته، بادلته الجدة الابتسام وقالت تُعقب على ابتسامته:

- هل طلبت منها أن تعيد إليك لعبتك؟!

رفع وجهه نحوها بينما الابتسامة لا تزال عالقة فوق ثغره متساءلاً
بدهشة:

- وهل لدينا رفاهية اللعب يا خالتي راوية!

أصبحت تحب لقب خالتي منهم بشدة، يشعرها بالألفة ويذكرها
بأختها وعائلتها التي تركتها في داو هاربة إلى حضان الجبل وبصحبة
العُقاب.

غامت عيناها للحظات وسمعتة يقول وهو يعبث بحصانه الخشبي
الصغير:

- أتعلمين يا خالة... هذا الحصان منحه لي جلال الدين عندما قابلته في المرة الأولى... طلب مني وقتها أن أحافظ عليه لأنه هدية من ابنة عمه.

قالت تجاري ذكرياته المتدفقة كأن الحصان أعاد له كل حينه المفقود:

- ولماذا منحك إيَّاه... إن كان هديته؟!

اتسعت ابتسامته وهو يقول ببساطة:

- كنت أخشى الذهاب إلى المدرسة لكن يحيى سخر مني واتهمني بالطفل فذهبت فقط لأثبت له أنني كبير كفاية... لكن بداخلي كنت أرجف فلقد كنت أسمع والدتي تقول عن جلال الدين إنه مثل سلطان العاصي والجزيرة كلها كانت تخشى سلطان...

شردت نظراته بعيداً بينما الحديث ينهمر من قلبه على لسانه:

- لكن... ومن الوهلة الأولى لم أشعر أبداً بأنه مثل الساحر... لقد لاحظ ارتجافتي المختبئة خلف الشجاعة التي أحاول إخفاءها عن الأعين... ربّت على كتفي وقال بأننا بتنا أصدقاء ومنحني هذا الحصان كهدية... قال إن خديجة من صنعته له خصيصاً، وإذا علمت بأنه فرط فيه ستقتله حرفياً!

ضحكت الجدة ضحكة رائقة أدهشتها هي نفسها قبل أن تُدهش عمار الذي بادلها الضحكة الوقورة بالابتسامة الواسعة، وقد شعر بأنه فعل شيئاً جميلاً للمرة الأولى منذ سنوات، حينها استمعا إلى صوت والدة وصال آتٍ من بعيد وهي تقول بدهشة وبنبرة مريضة:

- لم أسمعكِ تضحكين منذ جئنا إلى هنا يا راوية!

همست راوية لعمار تتصنع العتاب:

- اصمت يا ولد... ستذهب بسمعتي المخيفة هنا.

أطرق برأسه باسمًا وعمَّ الصمت للحظات، قبل أن تسمعه يهمس لنفسه كأنه لم يخرج لحظة من ذكرياته البعيدة:

- ست سنوات مضت وبداخلي يقين بأنه على قيد الحياة... قبل حتى أن أجد وشاح خديجة ثم قلادة سلام... الأستاذ لم يمت يا خالة... صمت فجأة قبل أن يرفع رأسه نحوها ويسألها بنبرة راجية:

- أصدقيني القول يا خالة ولا تصمتي ككل مرة نسألك فيها... كيف رفعت لنا البئر الوشاح والقلادة... ويوم ذهبنا إلى المدافن أخبرتنا كيف نحمي أنفسنا كأنك تنقلين إلينا رسالة ما!

كانت تنظر إليه كأنها لم تسمعه، ولما طال صمتها أطرق وقد علم أنها لن تجيب كالعادة، ولما تملَّكه اليأس سمعها تهمس:

- ست سنوات؟! هل هذا يعني أن العقاب أحضرنا إلى هنا منذ سنة كاملة!

أنهت حديثها وهي تنهض وتطلب منه أن يتبعها، خرجت من الكهف تنكئ على العصا خاصتها وسارت في المنحنى المؤدي إلى البئر، وهو كان يسير خلفها ونبضاته تهفو إلى ما ستخبره به، لقد حدثتهم من قبل عن البئر بحديث مستتر كلما سألوها، عاصف ووصال على الرغم من أنهم تربوا على يديها داخل الكهف لكن ليست لديهم إجابات كثيرة حول كل هذا الغموض الذي يعايشونه، كانت تراهم دائمًا صغارًا ويكفي ما يعانونه بعد أن عرفوا حكاية والدتهم، وكذلك الفتية الثلاثة، كلُّ لديه معاناته التي تغمره فيغرق فيها.

جلست الجدة عند حافة البئر ونظرت للداخل، المياه هادئة خريها
يتردد بين الصخور، الماء الذي يعتمدون عليه بالكلية في الجبل والذي
كان العقاب سبباً في العثور عليه... وقالت بخفوت:

- هذا الجبل ورغم تطرفه في الصحراء إلا أننا لم نخشِه يوماً...
مجرد جبل مررت به كثيراً في صباي وشبابي ليلاً أو نهاراً... على
العكس كنا نخشى جبل داو والذي هو يقف منتصباً معنا في قلب
الجزيرة وقريب من بيوتنا والذي يصعده كل ساحر ليتم طقوسه
عند المغارة المسكونة أعلاه...

زفرت تنهيدة طويلة، بدت كأنها خرجت من عمق زمن بعيد:

- السحر الذي قام به الصعلوك وعجوز البركة لم ينعكس صداه
على عالمنا نحن فقط، لقد أيقظ كل العوالم الأخرى... فُتحت بيننا
وبينهم ثغرة وجيء بهم إلى هنا... هم أيضاً يا ولدي أمم أمثالنا...
منهم الفاسقون والصالحون... وكما أن الشر يجيش جيوشه
فالحق أيضاً يفعل... وما يعلم جنود ربك إلا هو.

ثم أشارت إلى البئر وهي تقول مؤكدة بيقين لا يشوبه شك:

- هذا البئر هو أحد الثغرات...

نهضت ببطء وعمار يتابعها بعينين متسعيتين وهو يشعر بأنه يتنفس
من ثقب إبرة، ورآها وهي تضع كفها على الجدار الرطب الملاصق للبئر،
ومسحت بباطن كفها على خيوط الماء المنسابة لتجري بين شقوق
الجدار وهي تتابع بنفس النبرة الخافتة الشاردة:

- أنا أعلم أن هناك كهفاً آخر ليس من عالمنا خلف هذا الجدار،
أحياناً أستمع إلى كلمات تردد من خلاله ولكن لا أفهمها... لكنني
أميز التسبيح والذكر فيها...

ثم التفتت إليه، وفي ملامحها راحة غريبة، كمن أزاح عن صدره حملاً أثقل عمره:

- علمت أن العقاب كان منهم منذ البداية، وزاد يقيني عندما قاموا بعلاج والددة وصال وعاصف والنساء الثلاث... جميعهن كن مسيطراً عليهن بطقوس شيطانية... لذلك أعلم الآن أيضاً أن زهرة ستتحسن مع الوقت.

همس عمار بينما يلهث دون أن يبذل مجهوداً يُذكر وهو يتقدم نحوها:

- والددة وصال وعاصف؟ جميع النساء في الداخل!

استندت إلى عصاها وهي تطرق متنهدة براحة:

- نعم... لكن من الأفضل أن تخبرك وصال نفسها بحكايتهم.

وحين نظر إليها بدهشة قالت وهي ترفع يدها لتسكته:

- أعرف أنها كتومة ومتحفظة معك... لكنها بالتأكيد ستتغير عندما تخطبها من أمها وأخيها.

ملأت الدهشة وجهه هذه المرة وقد تعثرت كلماته المعترضة وهو يقول بانفعال:

- أخطبها... من؟ وصال؟ خالتي... هل نحن نمتلك هنا في الجبل فضلاً عن وجودنا داخل داو نفسها رفاهيات الخطبة والزواج والسكينة... هنا في داو؟! حيث الجوع واللعنات وجفاف الثمار... حيث الصعلوك والعجوز!

عقدت حاجبيها وهي تمتص جميع انفعالاته بابتسامة هادئة، تعلم أنها صدمته، وتعلم أن هناك درساً أخيراً ربما يجب أن يتعلمه:

- من تكلم عن الرفاهيات هنا، أنا أتحدث عن النضال الذي اخترت طريقه أنت ورفقاؤك... الزواج والإنجاب أيضًا جزء من هذا النضال... إن أردت أن لا تموت مقاومتك.

- أوافقك الرأي يا جدة.

كان هذا صوت عاصف الذي كان يقف مستندًا إلى الجدار عند حافة المنحنى ويستمع إلى الحوار دون أن يغيب عن نظر الجدة منذ وقوفه، لقد كانت تحدثه هو الآخر، لم يكن عمار وحده المَعْنى بالكلام!

إنها المرة الأولى التي ينفردان فيها وبأمر من الجدة، ظلت وصال صامته على غير عادتها، هادئة بطريقة جعلته يشك أن الجدة قد سحرتها لتهدأ هكذا!!

كانا يتجاوران عند السفح، الهواء يبذل كل جهده ليعثر وشاحها لكنها متمسكة به كما تمسكت بالصمت.

استند بمرفقيه إلى ساقيه والتفت نحوها، لأول مرة يراها تجلس كالفتيات مما جعله يبتسم، تنظر أمامها يداها مستريحة على قدميها، لاحظ أنها تجتهد كي لا تنظر نحوه فابتسم ثانية واختار مدخلًا يناسبها وقال:

- قالت الخالة راوية أن هناك ما يجب أن أعرفه.

هنا فقط نظرت إليه، كأنها كانت تمنع نفسها في انتظار أول كلمة منه، وقالت بنبرة هادئة جعلته يُقسم بداخله أنها تدرت عليها كثيرًا من قبل:

- نعم يوجد أمر هام...

زمت شفيتها وعادت تنظر أمامها مجددًا، كأنها تبحث عن مدخل ما،
وأخيرًا غمغمت:

- أُمي جاءت إلى هذا الجبل هربًا من عائلتها.

ابتلعت ريقها وقاومت مجددًا لتبقي نظراتها بعيدة عنه، خشيت من
نظرة ما تعلم أنها ستجدها في عينيه حين يعلم، لكن هذا بات حقه...
أردفت:

- كانت تعمل في قصر صقر القاسم... وكما تعلم هذا الرجل كان
يستحل الأعراض.

قاطعها عمار مسرعًا وهو يعتدل ليجلس باستقامة متنازلًا عن
جلسته المتراخية، ويقول بجدية:

- أعلم هذا الرجل جيدًا يا وصال وإن لم أره... لقد أذى هذا الرجل
وأبنائه وزوجته صديقي «مالك» بأبشع الطرق وهو ولدهم...
وأستطيع أن أعرف ببعض الخيال ما هو بقادر على فعله بمن
يعملون لديه.

نظرت نحوه وقد غامت عيناها وبدخلها ممتنة له لأنه جنبها
التفاصيل، وقالت مغممة، مطرقة برأسها:

- أُمي لجأت إلى القابلة فأوتها حتى وضعت حملها الثقيل... أنا
وعاصف.

همس وهو يومئ برأسه:

- هل اكتشفوا مكانها؟

غمغمت وهي ترفع رأسها للسماء:

- خافت... من عائلتها... ومن صقر القاسم... لو اكتشف أمرها
لقتلها وقتلنا معها ودفننا في حديقته... اضطرت إلى الهرب بعد
أشهر قليلة... ووجدت نفسها أمام الجبل... وأنت تعرف البقية.
ظل صامتًا، يلعن بداخله صقر القاسم وقصره ونفوذه وأمواله
وحديقته، هذا الرجل ألعن من الشياطين نفسها، لم يشعر بالشفقة
نحوها وعاصف فقط، بل زادت شففته على مالك أيضًا... البريء الوحيد
الذي كان يسكن هذا القصر الملعون!

سمعتها تقول بارتباك كأنها تدفع عن أمها الخطيئة:

- أُمِّي كانت مُجبرة... ورغم ذلك لم تسامح نفسها أبدًا... لذلك هي
دومًا مختبئة بعيدًا في الظلام... لا تتكلم... لا تأكل إلا ما يقيم
صلبها... ومريضة لا تُشفى... إنها ليست عجوزًا كما تظن... لكن
المرض الذي لا يفارقها وحياة الجبل جعلت منها مُسنة...

قال بتردد متسائلًا:

- وهل النساء الثلاث؟

أومأت مؤكدة وهي تقول:

- نعم... والقابلة فعلت معهن نفس الشيء... أوتهن حتى حان وقت
الوضع.

قال عمار منفعلاً رغمًا عنه:

- إنها شريكته إذن...!

رفعت كتفها وقد انسلت دمة رغمًا عنها على وجنتها، وهي تهمس:

- هذا ما اعترفت به أمامنا فيما بعد... بعد أن وضع عاصف الخنجر
على عنقها في نفس الليلة التي صارحتنا أننا بالحقيقة.

نظرت إليه، وقد بدأت الدموع تنهال من عينيها وهي تستدعي الذكرى المؤلمة:

- قالت القابلة إنه كان يُجبرها على قتل كل من تلجأ إليها... قالت إنها كانت تكذب وتجعله يظن أنها تقتلهم كما أمرها... ثم تدفعهم للفرار بعيداً دون أن يعلم.

- وهل صدقها عاصف؟!

أومأت وقد تملكها النفور وهي تراقب سور الحديقة البعيد الشاهق المختبئ في العتمة وقالت:

- عاصف كان غاضباً... لكنه لم يقتل في حياته إلا في الصيد فقط... صمت عالماً بأن مشاعر الخزي والقهر يتناوبان الآن على قلبها، ربما لأنها وحيدة جداً، لم تخالط الناس كثيراً، حتى عندما تذهب للبحث عن الرزق وتدخل بيوت الرواة لمساعدة نساءهن تكون صموتة مستمعة فقط، لا تتفاعل، كيف لفتاة أن تعيش هكذا بلا صديقة واحدة، أمها مريضة مكتئبة مختبئة على الدوام، الجدة غامضة تكسوها الرهبة، تتكلم مع عوالم خفية، هناك ثلاثة فتية في الكهف يتفاعل عاصف معهم، أما هي فوحيدة مضطرة إلى لعب دور الرجل دائماً، أن تحفر في صخرٍ لا يناسب أناملها الناعمة.

وصال لا تستحق كل هذا الحمل الثقيل الذي تحمله على ظهرها ويثقل أنفاسها، أراح باطن كفه على الصخر بينهما، وبدا كأنه سيقول شيئاً هاماً فأنصتت... قال مكرراً ما قالته منذ قليل:

- نعم هو لم يقتل في حياته إلا في الصيد... لكنه سيفعل للتو.

شهقت وهي تلتفت إليه بدهشة، فقال وهو يشير بعينه إشارة خفية للأعلى:

- سيقتلني في الحال لو رأني أمسح دمعك الآن!

حدقت إليه، لم تستوعب المزحة إلا بعد لحظات ليست بالقليلة، زفرت بقوة ثم رفعت حاجبها بتعجب هاتفة:

- حقًا! تمزح؟

نظر إلى الأعلى وهو يهمس بخطورة:

- انظري إليه... يترقبني كقاتل متسلسل!

ابتسمت وهي ترفع رأسها، وضعت كفها على فمها وضحكت بخفوت شديد، كأنها تخجل من ضحكة تنتابها في هذا العمق المظلم الذي تعيشه.

عمار شعر بالراحة حين جعلها تبتسم، فقال وهو يحاول طمأننتها:

- هناك حكايات كثيرة مؤلمة يا وصال... فيما بعد سأروي لك الكثير عن أمي ووالدي وأختاي اللتين اختطفتا في الغابة... لكن الله لم يتركني وحدي... أرسل إليّ جلال الدين وزوجته ومالك...

توقف فجأة عن استرساله، ثم قال كأن الفكرة قد خطرت له للتو:

- ألهذا سبق وأشرتي أن الحديقة تخصكم أيضًا؟!

تلّون وجهها بخجل وقالت مدافعة:

- لم أكن أعني الكلمة... كنت حانقة فقط.

قفز عاصف يعبر الصخور التي تفصله عنهما وصاح وهو يقترب متبرمًا:

- لقد قالت الجدة عشر دقائق فقط.

نهضت وصال وهي تصعد مبتعدة بخجل دون تعليق، بينما اقترب عمار من عاصف قائلاً بجدية:

- أَلَمْ تفكر في استعادة حقك من هذا القصر وحدائقه يا عاصف؟
عقد عاصف حاجبيه محدقًا في وجه عمار، متسائلًا باهتمام:
- ماذا تعني؟!



استيقظ أهل داو فزعين، وقد ارتجّت جدران دورهم، هرعوا إلى الساحة وإذا بالنار متأججة في الحديقة، بينما قد تداعى منه السور جزء ضئيلًا، ففتح نافذة على الأشجار بالداخل، الفاكهة المحرمة عليهم، رائحة الحريق والهدم غطى على عبير الثمار ولكنها لم تطمسها تمامًا. البارود لم يكن بالقوة التي حسبوها، حيلةٌ دقيقة، لكنها كافية لأن تُشعل قلوب الناس أكثر من الحطب.

انتشر الحرس والجند في لحظات، لكن لا أثر للفاعل، لم يستطيعوا العثور عليه، ورغم ذلك تعالت الصيحات، «قطاع الطرق... المطاريد... الملاعين».

جذبت صفية أمها وهي تحتضنها لتهديء من روعها، حين اجتمع جيرانهم من حولهما ينظرون إليهما باتهام، بل ومنهم من لم يكتفِ بالنظرات.

صاحت فتاة من الحشد تسبهم:

- عليكمم اللعنة أنتما والمجرم ياسين ومن معه...

تعالى صوت فتى قادم من بعيد يسرع الخطى نحوهما بغضب:

- لقد دمر المطاريد الباب الذي ننزل منه إلى الأنفاق...ربما لن يسمح السادة لنا بالنزول... سيحرموننا من الفاكهة بسببكم.

صاحت صفية بخوف وهي تحيط أمها بذراعيها، وتبعدها عن هؤلاء الغضبى:

- لنعد إلى الدار يا أمي...

جذبتها وهي تخترق الجمع بينما ضربات قلبها تضرب بقوة في صدرها، لو رفع أحدهم يده نحوهما لتجراً البقية، وربما قتلوهما في الحال، أعينهم تفيض غضباً وحنقاً، ليسوا في حالتهم الطبيعية أبداً، كل هذا لأجل ثمرة تُرمى لهم كالحيوانات الأليفة من غرف الأسيا!

أغلقت باب الدار من خلفها، واضعة كلتا يديها على قلبها، تلهث من فرط الجهد والخوف معاً، لكن والدتها الغاضبة لم تمنحها الكثير من الوقت، كانت تهتف وتلطم خديها:

- هل ترين ماذا فعل بنا ياسين! اسمعي منذ الغد سنقف في الساحة ونتبرأ منه وممن معه... وإن دعت الحاجة سنلعه... سنلعه... جميعاً... وعند أول ليلة مقمرة سنقدم القرايين عند التمثال كبقية أهل النعيم.

نظرت إليها صفية بجمود لا يتناسب مع الخوف المشتعل بداخلها، وقالت باقتضاب:

- فلتذهبي وحدك يا أمي... لقد طاوعتك كثيراً... لكن إلى هنا فهذا يكفي.

انقضت الأم عليها كالعاصفة، تجرها من ضفيرتها، تطرحها أسفل قدميها وتنهال عليها ضرباً، لم يكن الكره من يحركها بقدر الخوف، الخوف من شيء قادم لا تدركه، هي تريد فقط أن تعيش في سلام، تُزوج ابنتها وتكتفي بكسرة خبز، تذهب إلى ساحة قصر الحاكم وتأكل من لحم القرايين.

مطالب بسيطة، لكن ابنتها لا تفهم، صفية لا تفهم، تتمسك بخطبتها من ابن عمها، ترفض النزول إلى الأنفاق لتقدم عرضاً وتأخذ ما يُرمى لها من ثمرات، ابنتها المجنونة، لماذا ليست مثل كل فتيات الجزيرة، لماذا تتبع القلة الغبية؟!

أما عند الجبل، وعلى خلاف ما يحدث بالأسفل، فلقد شعر عاصف وهو يصعد الجبل بالنشوة، بالسعادة ربما للمرة الأولى خلال سنوات عمره، لأول مرة يؤذيهم كما أذوه، لأول مرة يشعر بأنه أخذ ولو جزءاً بسيطاً من حق والدته، شعر بأنه رجل، رجل يقدر على الانتقام.

لقد أيقظ عمار بداخله جزوة مشتعلة، فقد أخبره عمار أنه سحب بعض البارود من تحت القش المدفون في العربة قبل أن يغادروها، ودفنه تحت صخرة عند السفح. لم يعرف عمار سبب فعلته، لكنه شعر بحدسٍ أنه سيحتاج إليه في يوم من الأيام.

هتف عاصف بانفعال صاخب وهو يقفز الصخر:

- هل تعلم ما ستفعله الجدة بنا عندما تعلم؟

بادله عمار الهتاف:

- ستلقي بنا في البئر.

ضحكا بصخب، لم يقطعه سوى صياح يحيى الغاضب:

- أين كنتما؟

لم يكن وحده هو الذي تتقد عيناه شرراً، بل لقد كان ياسين من خلفه ووجهه شاحب بينما أنس وصالح يرتجفان، لقد شاهدوا النار ترتفع وسمعوا أصوات الانفجار، رده الجبل فأضاف عليه هولاً كأن القيامة قد قامت.

أمسك عمار بيد يحيى الذي جذبه للأعلى، بينما عيناها تلمعان كعيني عاصف، متعجباً من حالة الطفو العجيبة التي يمر بها هذان الاثنان، كأنهما ثملان، بينما عمار يهتف بانتشاء:

- وَبِتْنَا نَقْبُلُ أَسْيَافَنَا... وَنَمَسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَا
لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ... وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ أَنِّي الْفَتَى
وَأَنِّي وَفَيْتُ وَأَنِّي أَبَيْتُ... وَأَنِّي عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا

كان عاصف يضحك كأنه جُن، وتسالت الحماسة إلى أنس وصالح رغم خوفهما، تبادلا نظرة مرتجفة وابتسامة صغيرة.

وقد أعادهم صوت عمار إلى ذاك النهار في المدرسة حين كان جلال الدين يجلس بينهم يقرأ لهم شعر المتنبي، يعلمهم أن الأدب يمكن أن يكون سلاحاً، وأن بيتاً من الشعر قد يشعل القلب كما تشعله شرارة البارود.

لكن تلك السعادة لم تدم كثيراً، فلقد غضبت الجدة وبشدة، ولم تستطع السيطرة على غضبها، ودوت الصفعة على وجه عاصف الذي نقل لها الخبر ظناً منه أنها ستنفعل قليلاً ثم تهدأ، لكنها لم تهدأ قط، صفعت عمار أيضاً ولكن بطريقة مختلفة.

وقفت أمامه وعيناها تتقد شرراً وهي تكاد تصرخ به:

- أنت متهور مجنون... ستظل في الجبل حتى أعفو عنك... لن تعود إلى داو ولا إلى القبيلة... لن تزور نصر الراوي... حتى لو سجنتك هنا أعواماً.

النعيم

مرت نسمة رقيقة أيقظته، لم يكن متأكدًا أن هذا صباح اليوم التالي مباشرة، فهو يعرف ألم الظهر الذي يعانيه عندما ينام أكثر مما يحتاج جسده.

الستائر الشفافة البيضاء تلاعبها الرياح القادمة من الشرفة جعلته يبتسم، لقد أصرت خديجة ليلاً أن تتركها مشرعة لترى هذا المنظر الملكي عندما تستيقظ في الصباح:

- صباح الخير يا مولانا!

ابتسم وهو يستدير نحوها، نائمة جواره وهذا يكفيه، تبتسم، تضطجع، تستند على راحتها بخفة، تنظر إليه هكذا، فتفيض روحه بكل سعادة تمنّاها معها ذات يوم.

داعب بأنامله ذقنها ضاحكًا وهو يقول:

- هل راقكِ اللقب إلى هذا الحد!

كالعادة يقشعر جلده بعد كل مرة يلمسها، ليته يعتاد تلك الشرارة الخفيفة التي تصيبه بمجرد اللمس.

أما هي فتضحك، وتخبره بأن العاصفة قد شحنتها بطاقة تكفي لإنارة النعيم عامًا كاملاً!

وحين نهض يعدل من هندامه أمام المرأة الضخمة، وقفت قربه تتأمله وتهمس بإعجاب يجعل عينيها تلمع بغموض:

- يليق بك.

أراد أن يرد بابتسامة، لكنه منزعج منذ أن نظر إلى صورته المعكوسة في المرأة، تلك الثياب الفاخرة البيضاء، ذات الحواشي المذهبة تثير في نفسه شيئاً ما يكرهه لا يدري كنهه.

ذاكرته لا تزال معطوبة، بالكاد يتعرف إلى نفسه، خاصةً وقد أصرت زوجته على أن يحتفظ باللحية لأنها تمنحه وقار الملوك وتزيده وسامة. أول جلوس له على العرش -هكذا يسميه العجوز- طاولة كبيرة أمامه تحتضن أوراقاً سميقة صفراء يضمها دفتي كتاب كبير، أكبر من المعتاد، حتى أن جلال الدين دُهِش، ولكنها ليست الدهشة الأولى هنا! كان في استقباله قائد الجند، لا وزراء ولا مستشارين غيره، لا يعلم حتى الآن ما هي وظيفة العجوز الذي ينحني له قائد الجند والحرس ويطيعون أوامره قبل أن ينطقها كأنهم مُدربون على ذلك منذ أزمنة سحيقة.

أشار قائد الجند إلى الكتاب وقال بصرامة:

- قوانين النعيم يا مولانا.

مد يده متردداً، شعر بنفس الشرارة الخفيفة عندما لمس حافة الكتاب، تراجع للحظة قبل أن يتنحج ويكرر المحاولة متماسكاً، كانت أعينهم منصبة فوق يده كأنهم في انتظار نفس رد الفعل!

كان الكتاب أشبه بكتلةٍ من الزمن القديم، دَفَّتْه من جلد داكن متيبس، حوافه مطرزة بخيوط ذهبية باهتة.

لكن ما شده لم يكن حجمه أو ثقله، بل تلك النقوش التي غطَّت جلده وصفحاته الأولى؛ أشكال متداخلة، كنجومٍ تنكسر حوافها وتتشابك لتكوّن دوائرٍ مربكة، خطوطها لا تبدأ من نقطةٍ ولا تنتهي إلى أخرى. مدَّ إصبعه مترددًا فوق الخطوط، فأحس بشيء يشبه ارتعاشًا خفيًا تحت جلده، كأن النقوش حيّة!

فتح جلال الدين الصفحة الأولى، فتوقف قلبه لحظة، لم يجد سطورًا ولا قوانين، بل جملة واحدة فقط، محفورة كأنها وُسمت على الورق بالنار:

«عشر سنين مضت، تغير فيها كل شيء، إلا المكان الذي ابتلعك».
انتفض كمن لدغ عندما قال العجوز فجأة:
- تبدأ القوانين من الصفحة التالية.

نظر نحوه بذهول كأن العجوز قد أيقظه من غيبوبة طويلة، قبل أن يُعيد عينيه إلى الكتاب من جديد، اصطدمت عيناه بالصفحة الفارغة، كأن الجملة قد تبخرت، أدار نظره نحو القائد، فوجده يطأطئ رأسه بصمت مطبق!

زفر ببطء، ثم مد يده ليقلب الصفحة، بينما قلبه يطرق صدره كطبول حرب وهو يتساءل إن كان قد جنَّ!

مر وقت طويل وهو يقرأ دون أن يفهم شيئًا، يقلب صفحة خلف أخرى، هذه القوانين قرأها حتمًا يومًا ما، تبدو كذكرى بعيدة مموهة التفاصيل.

رفع رأسه ينظر إلى العجوز عاقدًا حاجبيه، وهو يشير إلى الكتاب كمن يحاول تفسير أحجية:

- ماذا يعني أن العمل موروث بالولادة وأنه غير مسموح بالانتقال من طبقة إلى أخرى!

ظهر شبح ابتسامة على وجه العجوز، ثم زم شفثيه وقال بنبرة مُحايِدة:

- يعني العدل يا مولانا؛ أن يبقى أبناء العمّال عمالاً، وأبناء المزارعين مزارعين، وأبناء الجند جنداً... هكذا يُحفظ النظام والاستقرار.
عاد جلال الدين إلى الصفحات شاردًا، قرأ أخرى بصوت أخفض:
- غير مسموح بالزواج بين الطبقات!
تنحنح العجوز وقال:

- ذلك هو التوافق... بها تدوم الحياة الزوجية ويسيطر عليها الانسجام والتفاهم... كما أراد لها الحكماء الأوائل.
أوماً دون اقتناع وقرأ مجددًا:

- من سرق من النعيم ثمرة أو بذرة... يُمحي كل أثر له من الأرض.
أخيرًا نطق قائد الجند، وقال مُعقبًا بجدية:

- الأمان وحفظ العهد يا مولانا، فالحقائق أمانة في أعناقنا.
رفع جلال الدين رأسه إلى قائد الجند متسائلًا:

- من يملكها؟!

- الحقائق غرسها رجل من الأولياء الصالحين.
قاطع العجوز كلمات قائد الجند وقال متابعًا:

- عبدٌ عابرٌ حمل سرًّا في قلبه، بكاؤه سقى البذور، ودمه خالط التراب، فأثمرت الأرض من أجله وبعد أن كانت يابسة محترقة يخاف الناس منها... صارت نعيمًا. وأصبحت حمايتها في أعناقنا.



telegram @
yasmeenbook

سرت قشعريرة على طول ظهره، لقد أكل منها دون إذن، ترى هل يجب أن يسترضيه؟ وبينما هو يفكر وقعت عيناه على القانون الأخير:

- الحاكم ظلَّ القوانين، وهي ظلُّه، لا يُبدِّلها ولا تُبدِّله، باقٍ ببقائها، زائلٌ بزوالها.

نهض متعجبًا غاضبًا، لقد كان يفكر منذ أن بدأ القراءة أن يحاول تغيير بعض التفاصيل التي لم يقتنع بها، فإذا بالكتاب يسخر منه بجملة قاطعة:

- لا يُبدِّلها ولا تُبدِّله.

ضغط على صدغيه بعنف، وهو يهمس بين أسنانه:

- أي كتاب هذا؟! من وضع هذه القوانين؟

لم يُجب العجوز للوهلة الأولى، بل اكتفى بالتحديق إلى وجهه كأن السؤال تكرر لشيء يعرفه منذ الأزل.

ثم تنحنح وقال بصوت رخيم يختلط فيه الجد باللغز:

- إنه ميثاق قديم... لا يقرأه إلا من كُتب عليه أن يحكم النعيم...

خرج إلى بستان القصر، وهو يشعر بالغليان، قلبه يصرخ، عبث، هراء، جنون، جنون!

- جلال الدين!

نداؤها انتشله من جحيم كاد يسوقه إلى الصراخ، التفت إليها وفي عينيه استغاثة، وجد خديجة تقف بين الأشجار، ثوبها الأبيض يتميل مع الريح، وابتسامتها هادئة كنسمة فجر.

اقتربت منه ببطء، مدت يدها تلمس جبينه كأنها تُطفئ نارًا تتأجج داخله.

العجيب أنها انطفأت بالفعل!

ابتسم ابتسامة مشحونة، وهمس وهو يشيح بوجهه:

- ميثاق لا أفهمه، كتاب يقرؤني أكثر مما أقرأه، روعي مثقلة،
اكتفيت.

رفعت خديجة عينها إلى السماء ثم قالت بهدوء غامض:

- لا شيء هنا يمكن أن تفهمه بعقلك... بل بقلبك!

أطرق برأسه لحظة وهو يغمغم:

- قلبي؟!

رفعت يدها تربت بها قلبه، وهمس جوار أذنه:

- منذ متى ما يحدث معنا يحتاج إلى منطق وعقل، جفاف البحيرة،
الساحر، خروجنا في العاصفة، وجودنا هنا، كل هذا لم نفعله
نخوضه بربع عقل حتى، فلماذا تريد تحكيم عقلك كله الآن!

نظر في عينها فوجد يقيناً بما تقول، يقيناً لا يملكه، وهي تتابع:

- دع العقل جانباً الآن، وانظر خارج الأسوار، هناك أناس يحتاجون
إليك، ينتظرونك كنبوءة، حارب لأجلهم، تذكر السبب الذي كانت
تنقم عليك سلام لأجله.

شعر بها تمسح على شعره فاقتحمته ذكرى بعيدة لوجه سلام
الغاضب منه، كرهها له، كلماتها التي أرادت أن ترديه بها:

«كنت ترانا كل عام تأخذنا الأسياذ واحدة تلو الأخرى في يوم الحصاد،
وكننت تجلس في بيتك لا تحرك إصبعك لنجدتنا، لا بل تخرج بين أحصنة
الحاكم تروضها له وتستمتع بينما إحدانا حبيسة غرفة ممثلة بالجن
والشياطين».

مسحت على شعره مجدداً فانتفض كأنها سحبت كرهها من الذكرى،
نظر إليها بعينين متسعيتين لوهلة قبل أن يزفر متنهداً قال بفتور:

- معكِ حق... لن أتشبث بالتفكير المنطقي وأترك الناس يعانون كما فعلت في داو مكتفياً بحماية نفسي والسخرية منهم.

تفتّحت أبواب قصر الحكمة الأبيض الثقيلة ببطءٍ مهيب، كأن الحجر نفسه يتهيّب من اللحظة، اندفع الضوء الذهبي المنعكس على جدرانه الناصعة فغمر الساحة كلها، ومن عتبه العاليا خرج جلال الدين بخطوات ثابتة، رداؤه الناصع ينسدل حوله كسيلٍ أبيض يقطع رماد الأرض.

ومن خلفه خديجة تسير ببطء محسوب، رأسها مرتفع كملكة وترفل في ثوبها الذهبي المنساب ذيله من خلفها كخيوط الشفق، تلتف حول قدميها كأنها لا تمس الأرض.

في الساحة الممتدة أمام القصر، اصطفت صفوف الجند في نظام صارم، الرماح مرفوعة، والدروع تلمع تحت شمس الظهيرة.

على الأطراف احتشد الناس، وجوههم متعبة لكن عيونهم مشدودة إلى القامة المهيبة الخارجة من بوابة القصر. كان في نظراتهم مزيج عجيب من الانبهار والرغبة، كأنهم يرون فيه خلاصاً يتأرجح بين الرجاء والخوف.

كان جلال الدين يتأمل الصفوف بعينٍ خبيرة، أدرك ما غاب عن عيون العامة؛ أعداد الجند لا تتجاوز كتيبة، وربما أقل.

لكن كيف يحوّل هذا الجمع الضئيل حضوره إلى ظلّ كثيف كأنه جيش جرار؟!

وحين اقترب أكثر، لمح تحت الخوذات الحديدية بريقاً غريباً؛ عيون متشابهة حد التطابق، يكسوها لمعان بارد لا يخص البشر.

وقفوا في صمتٍ خائق، انضباطهم يتجاوز حدود التدريب، حتى
الهواء بدا كأنه عاجز عن التسلل بين صفوفهم.
هكذا بدا المشهد في أعين الناس: قوة لا تُقهر، طوفان من الحديد
والرهبة.

أما هو، فكان يدرك أن ما يراه ليس مجرد جنود، بل شيئاً آخر، أعمق
وأشد رعباً.

ارتجف قلبه وقد أطال التحديق إلى ذاك السواد الذي انطفأ من
تحديقهِ داخل أعينهم، لم يستطع نزع عينيه، كأن قوة خفية تشدُّهما إلى
القاع، تجبره على النظر بلا انقطاع، ومطارق خفية تتكالب على رأسه،
طرقٌ متلاحقٌ يهدد أن يُسقطه أرضاً كلما صرخ بداخله صوتٌ ما بأن
هناك كلمات لا بد وأن يتمتم بها الآن، انفرجت شفتاه يحاول التمتمة بها:
- الله... لا إله...

لماذا تتقلص معدته كعقدةٍ من نار، ويتصاعد منها سائل مر يحرق
رئتيه ببطء فتتساقط الكلمات بعيداً كما تتساقط أوراق ذابلة في ريح
عاتية؟

وفجأة، انزلقت يدها على طول ذراعه وهي تكمل عنه بسرعة:
- الحليم... الكريم.

نظر إليها بدهشة كأنه قد نسي وجودها تماماً، ثم جاءه صوت قائد
الجند من الخلف يسأله عن الخطة المقترحة، أما الجنود الذي كان يحدق
إليهم، فقد ظلوا ساكنين، كأن شيئاً ما في الهواء ارتجَّ للحظة ثم انطفأ
سريعاً.

لا يعلم كم مضى على بقاءه هنا؛ أيام؟ أسابيع؟ أو ربما أكثر؟ لم يعد للوقت معنى.

كل ما يعرفه أنه يمضي وقته مغمض العينين، يخشى ذلك الوحز الوحشي الذي ينقض عليه كلما جرّب أن يفتح جفنيه.

وكلما شعر بالجوع يكاد يفتك بجسده، يلجأ إلى الفطر الذي وجدته نابتاً بين الظلمة والرطوبة في زاوية الصخور، قوامه لزج يبتلعه بصعوبة فيترك في حلقه مرارة تنزلق إلى معدته لكنها كافية لتبقيه حياً.

ثم يتحسس الجدار براحتيه، صخر بارد خشن، كأنه جلد كائن حي يتقلب تحت أصابعه، يبحث عن مجرى الندى الذي يتجمع في تجويف قريب، يشرب منه رشقات قليلة، يبتلُّ بها حلقه اليابس، ثم يسجد ويصلي.

كان صوته في الصلاة هو الشيء الوحيد الذي يبّد الصمت الثقيل للكهف.

يبقى ساجداً طويلاً، حتى يظن أن الأرض ابتلعتة، ثم يرفع رأسه، وهو يشعر بأن صخر الجبل يستمع إلى همسه ويحتفظ به في أحشائه. بين الحين والآخر، يظن أن النار الباردة أمامه تخفت، حتى إذا دخل في الصلاة وبدأ يتلو القرآن يشعر بها تقوى من جديد، يملكه شعورٌ قويٌّ بأن هناك من يصلي خلفه! حتى إنه يستمع إلى همسات بكلمة «آمين» عندما ينتهي من تلاوة الفاتحة!

فلا يجرؤ على الالتفات ولا محاولة فتح جفنيه، فيطيل السجود كأنه يريد الاحتماء فيه إلى الأبد، ومع طلوع الفجر، يزدحم الكهف بالظلال!

لم يكن قادرًا على النظر، جفناه لا ينفرجان إلا بمقدار يسير، لكنه لمح من خلال الفرجة الضيقة ومضات غريبة تتراقص بين العتمة والنور.

لم يعرف أهي أشكال مخلوقات طيفية، أم مجرد خداع بصري، لكن كل شعرة في جسده شهدت أنها حقيقية، كأنها تراقب أنفاسه لم يعد يعرف، أهو سجين هذا الكهف، أم الكهف نفسه صار أسيرًا داخله؟

كل ما يدركه الآن أن هذه الظلال تريد التواصل معه، وبخبرته السابقة، فهو موقن أنهم ليسوا كشياطينه السابقة، كل ساعة تمر عليه تجعله على يقين بأنهم أختيار، فيدرب نفسه على تقبلهم.

حتى جاء النهار الذي سمع فيه خفق جناحين هائلين، دوى الصوت في أرجاء الكهف، كأنه زلزال ينهض من تحت الأرض.

لم يكن مجرد خفق، بل ضربات تهزُّ الحجر من أساسه، فتساقط الغبار على وجهه ورأسه، وارتجف صدره مع كل رفة كأن قلبه يحاول مجاراتها.

لم يرَ شيئًا، عيناه مثقلتان، لكن كل جوارحه شهدت أن شيئًا عظيمًا يملأ الفراغ حوله. هواء بارد اندفع فجأة، تسَلَّل إلى صدره.

ارتعش وهو يمد يده نحو الفراغ، فإذا بالنسيم يتلقَّفه، يحيطه من كل جانب، ورائحة الحرية تحيط بأنفاسه.

وحين غالب ألمه وغامر برفع جفنيه قليلًا، انعكست على الجدران ظلال جناحين عريضين تضربان الهواء، يهدر صوتهما في جنبات الكهف.

شيئًا فشيئًا خفت الخفق، حتى تجلَّى له العُقاب جاثمًا عند العتبة، يرقبه بعينين تتقدان كالشرر، كأنه حارس البوابة التي آن لها أن تُفتح.

مدَّ يده اليمنى يستند إلى الصخر الخشن، وكل خطوة كانت تُقَرِّبه من الضوء المائل إلى الصفرة، ضوء لم ير مثله منذ زمن، حتى خِيلَ إليه أن الكهف يزفره زفرة أخيرة ليلفظه.

وحين بلغ العتبة، رفع بصره فرأى الأفق منبسّطاً أمامه، أرض ترابية ممتدة لا يحدها سوى خط جبلي بعيد. بدأ الألم يخف تدريجياً لكنه لم يختفِ تماماً، لا يزال فتح جفنيه مؤلماً بطريقة ما.

أطلق العقاب صيحةً حادةً، ارتجّ لها صدره لقربه الشديد منه، ثم حلق على مسافة قريبة خافقاً بجناحيه كأنه يخبره بأنه ينتظره.

أول ما أحس به سلطان كان ثقل الصمت الذي يلف الجبل، لم تعد الأصوات الغامضة تلاحقه، لا الهمس ولا الصرخات، فقط دقات قلبه التي تتسارع كمن يسمعها لأول مرة، وهمس:

- الحمد لله الذي أخرجني حياً.

الوادي يمتد أمامه شاسعاً، يدرك أنه لا يزال غريباً، وأن خروجه لا يعني نجاة كاملة، شعر كأن خطواته تقوده إلى موعد قديم كُتب له قبل أن يولد، موعد مع دروس لم يخضها بشر من قبل.

ظل جناحا العقاب يرشده، يتغير ويتحرك مع كل ميلٍ يقطعه، يضيء الطريق أمامه ويخفي خلفه المخاطر التي لم يرها بعد، عندما أنهى سلطان آخر خطوة في الوادي، توقف العقاب على حافة منحدر صخري، أجنحته المظلّمة تمتد كظلٍّ يحميه من كل اتجاه.

أمامه تمتد رقعة من الماء، شاطئ غريب لم ير مثله من قبل، مهجور وهادئ بشكل مخيف، كأن الزمن توقف هناك منذ قرون، على الرمال، يقف قارب بسيط خشبي، يتمايل برفق مع حركة الماء، بلا أي شخص

على متنه. الضباب ينسل من سطح الماء، يلف الشاطئ كله، والضوء الباهت للقمر ينعكس على القارب كأنه يدعو له لركوبه.

وقف سلطان على حافة الشاطئ، قلبه يخفق بين الخوف والفضول، والنسيم البارد يهمس في أذنيه كلمات غير مفهومة. العُقاب لم يبتعد، ظل يراقب، كأنه يترك له حرية الاختيار لكنه يشجعه أيضًا على المضي. تقدم سلطان خطوة أخرى، حتى أصبح على بُعد ذراع من القارب. كان كل شيء صامتًا، ما عدا صوت الماء الخفيف وهو يلامس جوانب القارب، كأن الشاطئ نفسه يهمس له أن الرحلة الحقيقية على وشك البدء.

جلس سلطان في القارب البسيط، يدفع بنفسه بعيدًا عن الشاطئ بهدوء، بينما يرفرف العُقاب خلفه ويحوم فوق الماء، كأنه يضمن له أمان الطريق، الهواء مليء برائحة الرطوبة، والضباب يلتفُّ حول القارب كما لو أنه يغلق عليه في عالم خاص، منفصل عن الزمن والمكان.

بعد دقائق من الإبحار، بدأ يظهر في الأفق قمة جبل آخر، ينساب من حولها ضباب خفيف، وعند قاعدة الجبل، كانت زهور الزعفران الذهبية متناثرة على الأرض، تتلألأ كنجوم صغيرة تسقط من السماء، كأنها تشير إلى مسار مقدس.

هبط من القارب برفق على الشاطئ المقابل، ووضع قدميه على الرمال الرطبة. وقف للحظة، يتأمل المنظر دون أن يفكر لحظة في شعور الألم الملازم للنظر، الصخور الشاهقة، ورائحة الزعفران التي تعبق في الهواء.

بدأ سلطان صعوده، كل خطوة يخطوها على الأرض المبللة بالزهور الذهبية كانت تصدر خريفًا خفيفًا، كأن الأرض نفسها تشهد على قدومه وتختبر قلبه. الصخور الشاهقة تحيط به من كل جانب، ظلالها تمتد مع

ضوء القمر الباهت، القمر؟! لقد خرج من الكهف نهارًا، كيف ومتى حل الليل فجأة!

الضباب يلتف حوله كثوبٍ خفي، يخفف من رؤيته ويزيد من شعور الغموض والرغبة. مع كل ارتفاع، شعر بثقل الهواء ورائحة الرطوبة تتزايد.

ومضت حبات الزعفران من الأسفل إلى الأعلى، كأنها ترسم سهمًا للمنحنى الصحيح، كأن الجبل يهمس له بأسرار قديمة، يختبر صبره وثباته.

في الأعلى، على قمة الجبل، لمح كيانًا غامضًا يلوح له بين الضباب، جسدًا ممتدًا من نار صافية، لم يصله منها لهب، كأنها نجوم فضية تشع دفنًا عميقًا، تتماوج حوافها بهدوء، ترسل نحوه خيوط ضوءها تلمسه كأنها تكشف عن صدقه ونقاء روحه ثم تتلاشى وتعود!

لقد قابل كيانات كثيرة، أكثر مما صادف من البشر، منذ أن علمه والده صخر العاصي أصول المهنة، «كيف تصبح دجالًا في أربعين ليلة!».

لهم طريقة استقبال احترفها، كلمات وحروف تشبه ما يتكلم به البشر لكن بترتيب مختلف، شياطين أبيه لا يختلفون كثيرًا عن ما قابلهم لدى عابد في خيمته في الصحراء، أما هذا المخلوق فله تركيبة خاصة، ليس ملاكًا بالتأكيد هو أعقل مما يظن ذلك.

وبرغم الطمأنينة التي تغمره إلا أن صوته ارتعش وهو يقول:

- السلام عليكم يا عباد الله.

ما أجابه لم يكن صوتًا يخرج من حنجرة بشرية، كان يشبه الرنين، أو ربما صدًى ينتشر بين الصخور ويصله بلغة يفهمها:

- وعليك السلام يا ابن آدم... اتبعني... ملُكُنَا في انتظارك.

مع كل خطوة يتبعه، تتبدد بها حواف العالم المادي؛ الحصى تحت قدميه يصبح ناعمًا كطينٍ متصلَّب، روائح الصحراء تُستبدل بعبير عتيق، خليط من عودٍ محترق وعبق الزعفران.

كان يتبع ذلك الوهج المتماوج حتى توقَّف فجأة أمام جدارٍ صخري أملس، لا منفذ فيه، رفع رأسه وشعر بأن الصخور نفسها تحرَّكت من الداخل.

أطبق السكون للحظة، ثم انبعثت في الجدار دوائر متَّسعة من نورٍ داكن، تشبه تموجات الماء إذا ألقى فيه حجر. في لحظات صار الجدار كله فوهةً مفتوحة، يتدفَّق منها هواء بارد شديد الغرابة!

تراجع خطوة، لكن الأرض جذبت قدميه من جديد. عرف أن ما انكشف أمامه لم يكن مجرد مدخل، بل دعوة، طريقٌ فُتح خصيصًا له، ليس لأحدٍ سواه.

الأرض تحته انحدرت بخفةٍ تدفع جسده إلى الداخل، كما لو أن الفوهة نفسها قررت ابتلاعه، وفي اللحظة التي اجتاز فيها العتبة، ارتجَّت حواسه كلها دفعة واحدة.

أذناه التقطتا أصواتًا لا حصر لها؛ سهيل خيل، هتاف جموع، أصوات أخرى كثيرة، كلها في آنٍ واحد تتداخل مع دوي طبلٍ عميق، جسده خفَّ حتى حسب أنه معلق بين السماء والأرض، بلا وزن، بلا اتجاه.

وفي ومضةٍ واحدة وجد نفسه قائمًا في ساحةٍ مهيبية لقصرٍ مُشيَّد من حجارةٍ لا تشبه حجارة البشر، أبراجه ترتفع إلى ما يتجاوز النظر،

يلامس قممها السحاب، وفوقها حُرَّاسُ مجنَّحون، أجنحتهم مبسوطه
كصفحاتٍ من كتابٍ قديم خطه القدر.

ومع انفتاح الباب الأعظم خفق الحُرَّاسُ دفعةً واحدة بأجنحتهم،
فارتجَّ الهواء كأن السماء نفسها أعلنت النفير.

خطا خارج الباب كيانٌ مهيب، ملامحه متوارية تحت قناع الحرب؛
قناعٍ أسود فاحم، محفور عليه رموز قديمة، تتلأأ فيها شراراتُ حمراء،
وقف في وسط الساحة، فخفتت كل الأصوات، حتى خفق الأجنحة تجمَّد.
رفع يده، فإذا بالجنود المجنَّحين ينحنون جميعاً، ثم جاء صوته،
دَوَّى كالصاعقة التي لا تُنذر إلا بالحق، تحمل في ارتجافها وعدًا ونقمة،
كأن السماء أرسلتها لتعلن القضاء:

- الممالك السبعة قد أفسدت في الأرض، ولا نجاة لهم من غضب
الرب... استعدُّوا... فالليل مقبل، وما بعده لا يُشبه شيئاً عرفتُموه
من قبل.

فجأةً انقضَّ دخان أسود على الحراس المجنحين فوق الأسوار
الشاهقة، يندفع من أطرافه أجنحة مشتعلة كأن الجحيم يزفرها، قضى
عليهم في غمضة عين، وانجلى الدخان عن كيان مرعب، يتوَّج رأسه تاجٌ
مرصَّع بجماجم صغيرة، لكل جمجمة أعين ملكٍ هوى تحت سيفه، وما
زالت تجاويها تنتقد بشرٍ خافت، كأن الأرواح لم تفارقها بعد.

ثم دَوَّت عنه صرخة زلزلت الساحة، إشارةً للاقتحام، وهو يرفع يده
إلى تجويفٍ فارغ في التاج، ويزأر:

- هنا ستوضع أعين سوميا... أبو الجن!

وما إن دَوَّتْ صرخته حتى تحرَّك الجيش من خلفه كالسيل الجارف،
سيوفهم تتلظى بلهبٍ أحمر، انطلقت الأبواق الجهنمية، أصوات معدنية
متكسِّرة، كأنها أنين الأرض وهي تُساق إلى الذبح.

اشتعلت المعركة على الأسوار وفي قلب الساحة، الهواء يتفتت تحت
وقع النار وخفق الأجنحة، الدماء السوداء سالت فوق الأسوار والصخور،
أجساد الحراس المجنَّحين تتساقط كأوراق يابسة في مهبِّ العاصفة.
وبين هدير الصرخات وزئير الشياطين، انشقت الأرض عند بوابة
القصر، تصاعد منها عمود من لهبٍ أبيض يضرب السماء، ومعه ارتفع
صوت مزلزل.

انشقَّت السماء فجأة بضوءٍ باهر، ارتجفت الأرض تحت أقدام الجن،
وعَمَّ صمت مفاجئ كأن كل المخلوقات حُبست أنفاسها.
ومن الفضاء الساطع انحدرت صفوفٌ لا تُحصى من الملائكة،
أجنتهم كالفضة المصهورة، ووجوههم تلمع بضياء لا يُطاق النظر
إليه.

كل جناح كان يخفق فيُطلق رجلاً من تسبيح، يهزُّ الجبال ويرجف
القلوب، وفي لحظة، دَوَّتْ الصيحة:

- طهَّروا الأرض من رجس الجن!

تراجع الظلام أمام فيضٍ من نورٍ لا يُقاوم، وتقهقرت الأجنحة
السوداء هاربة إلى الجبال والوديان الخربة، ووقع في الأسر من وقع،
وبين الجموع المأسورة، برزت عينان تقدحان شرراً داكناً، يلتف حول
صاحبهما قيدٌ من نارٍ متأججة، كلما حاول التملص اشتعلت عليه.

بدا لسلطان أن الحركة تتباطأ، والأصوات تنحدر كأنها تأتي من بئرٍ
سحيقة، علم أنه ليس جزءاً من المعركة، بل شاهداً من بُعدٍ آخر، تتداخل

فيه الحقيقة بالحلم، والرغبة باليقين، وفي أعماقه دوى صوت خفي، لا يدري أهو من داخله أم من خلف السحب:

- الآن يمكنك أن ترى... وستُسال عما شهدت.

وحينها التقت عيناه عيني ذاك المأسور في الأغلال، فخيّل إليه أنه يبتسم له ويهمس في صدره بكلمة واحدة كأنها تحمل وعدًا ما: «عزازيل!».

الكلمة انغrust في قلبه، كأنها نقش لا يُمحى، حتى إن ابتسامته الشيطانية لم تفارق مخيلته، وظلّ صدا الهمس يطنّ في أذنه...

في لحظة انكسرت الرؤيا من حوله كما ينكسر الزجاج، وتستحيل الأضواء إلى شظايا تتلاشى في الفراغ.

أحسّ بجسده يهوى عبر فراغ بارد، ثم ارتطم صدره بلهاثٍ مفاجئ، فإذا به يعود إلى فوهة الجبل كما كان، الهواء من حوله ثقیلٌ برائحة العود المحترق بالزعفران والصمت يخيم كأن شيئاً لم يحدث.

مدّ يده إلى صدره، فوجد قلبه يخفق بعنف، لم يكد سلطان يستعيد أنفاسه عند فوهة الجبل، حتى تردّد في أذنه صوت عميق:

- لقد رأيتَ ما لا يُرى، وشهدتَ ما لا يُشهد.

ارتجف سلطان وقال متهدّجًا:

- ولماذا أنا؟!

فجاءه الجواب كوقع مطرقة على صخر، يتردد صداها في الأفق:

- لأن عيناك اعتادتَا الرؤية، تحتمل ما لا يحتمله غيرك... احفظ ما رأيت واحرس الحقيقة.

- أي حقيقة؟!

- نحن عباد الله، رأينا أن النهاية قد دنت، سجين الكهف في جزيركم أوشك على التحرُّر، ولا نملك لكم إلا أن نُنذركم، ونختار من بينكم من يحمل أمانة الشهادة ليُخبر القليل المتبقي؛ اللحظة الفارقة قد اقتربت.

- من هو سجين الكهف؟ وما علاقته بكل ما رأيت؟!

- ذاك الذي قَبِلَ بصفقة عزازيل لَمَّا جاءه فوق أرضكم... تحالف معه هناك وجلب عليه كل أتباعه... كل الشرور وأهله... فلم يبقَ للحق إلا قليلًا.

- لكن أنا مجرد بشري واحد... بلا حول ولا قوة.

- منذ متى وأنتم تُنصِّرون بعدد وعتاد؟!

- لماذا تساعدوننا؟

تراجع الصوت في أذنيه شيئًا فشيئًا، لكنه لم ينطفئ تمامًا، ظلَّ يتردَّد في صدره مثل طبقة خفيفة من الصدى:

- ولله جنود السماوات والأرض.

أحسَّ سلطان بالبرودة تتسلَّل من قدميه إلى رأسه، كأنَّ الجبل نفسه يلفظه إلى عالمه. اختفت الفوهة، نظر حوله، فلم يجد إلا الضباب والزعفران الذي خفت ضوؤه مبعثر على الأرض.

همس لنفسه بارتباك:

- سجين السرداب... عزازيل... أنا مجرد بشري واحد!

لم يجبه أحد هذه المرة، وهناك، في أسفل الجبل القارب لا يزال ينتظره على الشاطئ، يتمايل على موجه كأنه يعرف أن راكبه قد عاد.

مدَّ سلطان يده إلى صدره، يشعر بحرارة النقش الذي انغرس في قلبه، صار كل نفس يأخذه يحمل أثر الرؤيا التي خرج منها للتو!

ثم خطأ أولى خطوات النزول، عند حافة الماء جلس قليلاً يستعيد أنفاسه، ثم نزل إلى القارب الذي تحرّك به وحده كما حدث من قبل، لكن هذه المرة لم يكن سلطان كما كان؛ كان يحمل في داخله وعداً وأمانة.

هذه المرة كان يفتح جفنيه دون ألم، وحين صرخ العُقاب من بعيد قادماً نحوه لم يشعر بالخوف، وبينما يشق القارب الماء بصمت، كان ذهنه يعيد كل كلمة سمعها، كل صورة رآها، كل صرخة وصداها، أدرك أن رحلته لم تنتهِ عند القمة، بل بدأت الآن.

ارتطم القارب بضفة مألوفة، حيث الكهف الذي استيقظ فيه أول مرة، وحين ترك القارب وقفز إلى الضفة، اختفى كل شيء خلفه؛ القارب، المياه، الجبل، حتى رائحة الزعفران تلاشت في الهواء وتبخرت... لكن العُقاب بقى، يرشده إلى كهفه، ويعيده إليه دون جهد.

وما إن عبر العتبة حتى تبدّل كل شيء؛ الهواء امتلأ برائحة بخور طيّب، خليط من المسك والعود، أحس سلطان أن الكهف يستقبله لا كغريب، بل كمن كُتبت له العودة منذ البدء.

وفي عمق الكهف، تشكّلت هيئاتٌ كالبحر من موجات نارٍ صافية، لم يكن في حضورهم رهبة الشياطين، رفع أحدهم صوته، صوته يشبه الرنين الهادئ:

- قبل أن تنطلق إلى طريقك... يجب أن تعرف ما فاتك...

عشر سنين مضت، تغير فيها كل شيء... إلا المكان الذي ابتلعك.

الفصل السابع

ظل انعيم

لقد استعاد عافيته، وتعلم من عاصف كيف يقفز مستعملًا الجدار الأقصر من السور ليعود إلى الدار دون أن ينتظر أن يفتح له أحدهما الباب من الداخل.

كان ولا بد أن يتعرف على هذه الأرض الغريبة التي تتمتع بقوانين أشد غرابة!

لقد أخبرته وصال أنهم قريبون من الجبال بعيدون عن الدور، وأن الدار لا يمكن أن تُكتشف إلا إذا تداللتاف حول التلة المرتفعة، ولقد حذرته مرارًا من الخروج لكنه ليس فتاة، الآن فهم لماذا يهرب عاصف كثيرًا ويشرد معظم اليوم ثم يعود وقتما أراد.

كان خائفًا من أن يفقد طريقه، لذلك دقق النظر في الجبال من حوله وحاول تمييزها لكنها جميعًا متشابهة، استعمل غصنًا يابسًا في رسم خطوط عميقة بعض الشيء في الأرض لكن قساوتها خدرت يديه سريعًا من الجهد.

سار كثيرًا وكلما تقدم شعر بالارتباك وتوقف ليحدد طريقه ويتأكد من العلامات التي يتركها خلفه.

أخيرًا بعد أن كان قد فقد الأمل في أن يجد حياة ظهر أمامه سور شاهق، جدًّا السير تجاهه وكلما اقترب شعر بالألفة، ألفة أربكته وجعلته ينسى وضع العلامات!

وقف يتأمل المكان ويلمس السور بأنامله لكن قبل أن يفعل فُتحت طاقة من الأرض وارتفع باب كان مخرج لنفق لم ينتبه له عندما اقترب. خرجت منه فتاة سمراء ترتدي عباءة يعلوها جلباب وحزام على الخصر يحدده، عدلت من ربط الوشاح خلف رأسها تاركة ضفيرتها الطويلة مكشوفة متدلّية على كتفها وهي تنظر له بفضول عاقدة جبينها وهي تسأله:

- هل كنت في طريقك للأسفل؟

حدق إليها في حيرة وهو لا يعلم ماذا يقول، كل ما لفت نظره ثيابها التي تبدو معتادة لعينيه فقالت دون أن تنتظر الرد وتشير إلى الباب:

- حسنًا إن كنت في طريقك فأسرع إلى الخالة سعادة لتحجز لك دورًا.

وعندما وجدته ينقل بصره بينها وبين الباب تفحصته مليًّا قائلة:

- أنت من النعيم... صحيح؟

تشتت نظراته وهو يذكر تعليمات عاصف السابقة فقال على الفور:

- نعم... نعم... أنا من النعيم.

فقالت الفتاة بفخر وهي تثرثر:

- علمت ذلك من لون بشرتك... ولكن...

صمتت ثم أردفت بشك:

- ولكن لماذا عبرت كل هذا الطريق الطويل لتعبر من جهتنا... لماذا لم تستخدم الباب من جهتك هناك؟!

تعثرت كلماته فلم يفهم ماذا تعني فتحوّل الشك إلى خوف ظهر جلياً على وجهها وهي تتراجع للخلف هاتفة وقد اتسعت عيناها:
- أم أنك... أم أنك من قُطّاع الطرق...

قالت كلمتها الأخيرة وهي تركض بقدميها الحافيتين والتراب يتناثر من حول حواف ثوبها الطويل، حاول أن يناديها أن يقول أي شيء لكنها كانت قد ابتعدت بسرعة غريبة كأنها واجهت شيطاناً للتو!

لم تطاردها نظراته المدهوشة أكثر، هو الآن مشغول بلامسة الجدار، أنامله تنزلق بخفة فوقه، بينما يسير بمحاذاته، من المفترض كما يقولون أن هذه هي حقائق النعيم كما حكى عنها عاصف.

لكنه بدلاً من أن يشتم رائحة الثمار والزهور كما حدث له في دار وصال؛ تسربت إلى صدره رائحة دخان خائق، حريق قديم لم يُطفأ أبداً... خراب يعرفه جيداً!

إنها تشبه قبوه الذي سُجن فيه لسنوات وحيداً، تشبه قصر أبيه، صقر القاسم!

لم يعلم كم مر من الوقت وهو يسير، كل لحظة تبدو كأنها تتمطى لتوشك أن تكون دهرًا، حتى لمح كوخًا خشبيًا يتربع وحيدًا بين كل هذا الخواء كأنه الناجي الأخير.

اقترب منه ببطء، طرق مرة، مرتين، وثلاث، بداخله يتردد سؤال مُلح: كيف سيعرّف نفسه لمن سيفتح؟ لكن الصمت وحده كان الجواب.

وعند الطريقة الرابعة اهتز الباب بحركة بسيطة كأنه لم يكن مغلقًا قط بإحكام.

هل يفقد المكان ذاكرته كما يحدث البشر؟! يبدو أن الكوخ تعرف إليه؛ بدا كأن جدرانه لم تنس شيئاً، بمجرد أن خطا أول خطوة داخله، ارتجف الكوخ محدثاً أنيناً حزيناً!

كأنه كان بانتظاره منذ الليلة الأولى التي جاء فيها إلى الحياة بين جدرانه. والآن يعرض له ما خبأه بين ألواح المتشقة: تلك الليلة، على الفرش المهترئة، حيث بدأ كل شيء.

لحظة مخاض أمه الصارخة بين يدي القابلة وفي حضور صخر العاصي وشياطينه، الكوخ ارتج وأنت ألواح وفراشه وحتى قدر الماء على النار، والشمعة اليتيمة التي تلتهب في ركنه، بينما والدته تتمسك بذيل عباءة صخر وتصرخ به: «أريد فتاة اجعلها فتاة».

وضع مالك كلتا يديه على أذنيه، بينما المشهد يُعرض أمامه كما لو كان حاضراً.

رأى نظرة صخر الساخرة، ووجه القابلة الحائرة المرتجفة التي تخاف من أن تخبرها بأنه صبي، شاهد غمزة صخر للقابلة وهو يقول لأمه «هي فتاة».

سقط مالك على ركبتيه وهو ما زال يسد أذنيه، لا يريد أن يسمع حكم الإعدام الذي نطقه صخر في تلك اللحظة، حكم بالموت لم يقطع أنفاسه، لكنه شوه هويته، لقد حكم عليه أن يكون مسخاً، منح أمه المجنونة تذكرة عبور لتقوم بتحويله إلى مسخ.

صرخ بينما جذعه ينحني للأسفل حتى طالت جبهته الفراش:

- لست مليكة... أنا مالك... أنا مالك.

انتفض فجأة حين هزته يد بقوة، رفع رأسه فزعاً فوجدها تقف أمامه
فصرخ:

- سلام.

ظلت سلام ممسكة بذراعه وهي تجلس جواره ونظراتها تملأ وجهها،
اختلطت مشاعرها بين فرحة وخوف هاتفة:

- مالك أنت حي... لا أصدق!

لم يكن هو بأقل منها دهشة وذهول، كان ينظر داخل لجة عينيها
الزرقاوين هامساً:

- أأنتِ حقيقية!

أومأت وهطل دمعها يجري على وجنتيها، لقد وجدته، بعد أن أيقنت
أنها باتت وحيدة في هذه الأرض الغريبة، بعد أن رضيت أن تسكن
الكوخ مع القابلة، وتتعلم منها صنعتها، كيف تطيب النساء، وكيف
تعرف الحمل من عدمه، كيف تعالج بعض البسطاء، مقابل كسرات خبز
تبقّيها، والأهم... أن لا تقترب من المقابر!

أما خلفها فلقد وقفت القابلة تنظر إليهما بعينين مثقلتين بالشفقة،
هي أيضاً متفاجئة لكنها لم تكن مذهولة مثلهما، لم ترسم الصدمة
لوحتها على وجهها العجوز، كأنها شاهدت من قبل مئات مشاهد الفزع
والدهشة، فتجمدت مشاعرها وباتت تتوقع كل شيء هنا.

نهض مالك واقفاً، تاركاً سلام على جلستها أرضاً، يتفرس في وجه
القابلة، لقد شاخت لكن ملامحها التي رآها منذ قليل لم تختلف كثيراً،
سألها بصوت مرتجف وهو يشير إلى الفراش:

- هل تعرفين أمي... المرأة التي أخبرتها هنا كذباً أنها أنجبت فتاة؟

ثم أشار إلى صدره وهو يردف متألماً:

- هل تعرفين ماذا فعلت كذبتكِ بالصبي؟

لم تقل شيئاً، كانت تعرف بأنه لم يكن ينتظر إجابة، لم تكن الكلمات لتغير ما يعرفه هو بالفعل.

لقد حاولت بالفعل أن تكفر عن كذبتها، حاولت أن تساعد، أن تساعدكم جميعاً، هي الوحيدة التي كانت تعلم بمكان اختبائهم في القصر لعام كامل؛ هو وسلام وجلال الدين وخديجة ابنة نصر الراوي، وبالتأكيد سلطان... سلطان ابن صخر العاصي، الذي أمرها أن تجاري جنون المرأة وتخبرها بأن المولود فتاة!

ظلت صامته محتفظة بتاريخهم جميعاً، هذا ما تفعله مع كل من تتقاطع طرقهم مع كوخها، مع وحدتها، مع خطاياها التي تحملها فوق كتفها.

اختارت أن تبقى هنا، أسيرة كوخها، بعيدة عن وجوه الناس التي لا تطيق مواجهتهم بعد أن دفنت أسرار بناتهم هنا، بين جدران هذا الكوخ، تجتر ذنوبها وتُجبر على الاستمرار في حياة لا تنتهي.

- لماذا تركته يخرج ببساطة هكذا.

قالها عاصف منفعلًا وهو يقف أمام وصال التي كانت تجثو وتتفقد البذور في الطين وترعاها برفق، مالت بوجهها نحوه بلا مبالاة وهو تجيب ببرود:

- أنا لا أجالسه وأتسامر معه في غيابك يا عاصف ليخبرني بما ينتوي.

زفر عاصف غاضبًا وجلس ليرتاح قليلًا وهو يفكر إلى أين يكون قد ذهب، فنفضت يديها واقتربت تجلس جوارها وتقول بنبرة ساخرة تخفي خلفها غُصّة:

- أتمنى أن تعرف أخيراً بماذا أشعر، عندما تقرر الخروج دون أن تعلمني عن وجهتك.

نظر إليها حانقاً، لكنه متعب وليست لديه طاقة لجدالها، كيف يشرح لها بأنه لا يطيق أن يحبس نفسه في مكان مغلق، الجدران تخنقه، لقد نشأ في الجبل، حيث القفز والصيد والترقب، البيوت هذه لا تناسبه ولا يعلم كيف باتت تناسبها وهي من كانت مثله تقضي أوقاتها تتسلل من الجبل إلى الغابة كل يوم!

كانت تريد أن تصمت مثله، لكن الصمت مهارة لم تتقنها الفتيات قط، خاصةً وصال؛ فانفجرت فجأة تبرّره له، كأن الكلمات تنفلت من بين شفقتها أسرع مما تفكر:

- لقد كنتُ داخل الدار والباب موصد، وكنتُ أظنه، كعادته، يختار أن ينزوي في الساحة وحيداً حتى تعود... لم أشعر به وهو يغادر، ولا خطر ببالي أن يبتعد أكثر من ذلك.

قال وهو يمسد قدميه ويسألها:

- متى شعرتِ بغيابه بالضبط؟

رفعت كتفها ثم رأسها لأعلى كعادتها تحاول التذكر:

- قبل الضحى بقليل.

عاد يزفر مجدداً، وقال متأملاً السماء:

- أرجو أن لا يكون قد وجد الأنفاق... هناك لو وقع بيد الحرس سيستجوبونه وتكون نهايتنا.

كلماته أقلقته أكثر مما كانت تبدي له، كانت تود لو قال بأن الأمر بسيط وهو حتماً سيعود عاجلاً أو آجلاً، من الطبيعي أن تكون هي

الفزعة هنا وهو من يطمئنها بعبثه المعتاد، لكن كونه هو القلق هنا، فهذا يعني أنها يجب أن تبدأ بالخوف.

بدأت تحرك ساقتها، ذلك الارتعاش التي لا تستطيع السيطرة عليه وهي تسأله متوجسة:

- لقد نبهت عليه كثيرًا أن لا يخبر أحدًا بأنه غريب... أليس كذلك؟
ابتسم عاصف ابتسامة صغيرة لكنها باهتة، كمن يحاول أن يطمئنها بينما في داخله الريبة تتسع:

- مرارًا وتكرارًا، لكن عامةً لا تقلقي فهو ليس أول غريب ينزل الأنفاق.

تجمدت ملامحها، حدقت إليه بعينين متسعيتين وقالت بصوت منخفض:
- ماذا تعني بأنه ليس أول غريب؟ لم تخبرني من قبل عن غرباء غيره!

مد يده يلتقط حصاة صغيرة من التراب ويقذفها بعيدًا وهو يجيبها ببساطة:

- الأمر لم يكن يستحق... إنها مجرد فتاة مخبولة قليلًا... وقد آوتها القابلة في كوخها.

رفعت وصال حاجبيها يتناوب على ملامحها الشك والحيرة؛ فالقابلة لم تكن يومًا من النوع الذي يفتح بابه لأحد، حتى لأهل القبيلة الذين يعرفونها منذ سنين، فكيف بفتاة غريبة، بل ويصفها عاصف بالمخبولة! غمغمت باهتمام وقد اشتعلت أفكار برأسها:

- ما اسم هذه الفتاة يا عاصف؟
زم شفثيه مفكرًا، لم تذكر اسمها له على ما يبدو، فقال وهو يعقد حاجبيه:

- لا أعرف... لكنني لم أرها من قبل... ملامحه غريبة، بشرة سمراء
تشبه قبيلة الرواة لكن عينيها زرقاوان كأنهما...
قاطعته وصال هاتفة فجأة:

- اسمها سلام؟!

انتفض عاصف ملتفتاً نحوها واضعاً كفه على أذنه وهو يصيح
حانقاً:

- لماذا لا يحلو لك الهتاف إلا في أذني يا وصال!

لكن صوته انخفض تدريجياً وتغيرت انعقاد حاجبيه وسألها ببطء:

- سلام... التي...

تابعت وصال بنفس البطء غير قادرة على جمع جملة واحدة:

- هل هذا يعني أن مالك هو نفسه... مالك!

نهض عاصف واقفاً وهو يحرك رأسه نفياً:

- لا... مستحيل... ربما هي فتاة تشبهها... وهل الكون كله لا يوجد

فيه صاحبة عينين زرقاوين غيرها!

فعلت مثله ناهضة وهي تقول مرتبكة:

- لكن كيف لم أتعرفه، لقد راقبته سنوات!

ثم سارت بعصبية جيئةً وذهاباً، ثم توقفت فجأة تهمس لنفسها:

- لقد تغير شكله واللحية ملأت وجهه. لهذا لم أعرفه يا عاصف.

تقدمت نحوه وهمست:

- يجب أن نخبر عمار!

قاعة مستطيلة جدرانها حجرية باردة تحفظ صدى الأصوات وتعيدها
أضعافاً. في وسطها طاولة حجرية عريضة تغطيها خرائط، بقع حبر،
وحبال صغيرة. حولها مقاعد خشبية صماء.

امتزجت رائحة الشمع المذاب والجلد القديم والدخان الخفيف مع
عقب ورق الخرائط، بينما كانت نسمات ليل تمر من شقوق النوافذ
الضيقة المرتفعة تحرك لهب الشموع الموضوعة في ثريّة حديدية
معلّقة بخيوط من السقف، فتترنّح وتجعل الظلال تتراقص على الوجوه
كأقنعة متحركة.

كل شيء فيها يهمس بالاجتماعات السريعة والقرارات المصيرية،
خشونة الخشب، قساوة الحجر، وصدى الكلام الذي لا يُنسى.

وقف جلال الدين بينهم، عاقداً كفيه خلف ظهره ويستمع إلى ما
يقولونه بوجوم وقد شعر بالعجز وهو يقول:

- ما هو المطلوب مني إذن؟ ما تحاولون إخباري به منذ مغيب
الشمس وحتى اللحظة أنكم استخدمتم كل الخطط الممكنة ولم
تفلحوا في الإيقاع بهم.

بسط كلتا يديه فوق الخريطة أمامه يستند فوق التراب المبعثر فوقها
وهو يردف حائقاً:

- النار... الدخان... الحصار... قذائف اللهب... محاولات اقتحام لا
تنتهي... وفي كل مرة ينصبون لكم الفخاخ وتقعون بها بسهولة
شديدة.

تدخل قائد الجند بوجه متعب، كمن لم يعد يحتمل تكرار النتيجة:

- أخبرتك يا مولانا أن الأمر لا يتعلق بالقدرات العسكرية... إنهم
سحرة!

ساد الصمت لحظة ثقيلة، لم يُسمع فيها سوى صرير الشموع وهي تذوب، حتى مال عجوز البركة بجسده النحيل إلى الأمام، صوته الأجش يخترق السكون:

- قوتهم ليست في السلاح ولا في العدد... بل في الطلاسم التي تحرس
مداخل الجبل... كل من يقترب يُضلل بطرقٍ متشعبة ويتوه... إنهم
لعنة ولذلك لن يفلح في قتالهم إلا رجل صاحب نبوءة مثلك.

أراد جلال الدين أن يسخر، أن ينكر تلك النبوءة التي تطارده منذ
نجاته، لكنه يعلم أن لا فائدة عندما يتعلق الأمر بيقين عميق كالذي
يؤمنون به، صمت لحظة، يمرر أنامله فوق الخريطة، يتتبع خطوط
الجبال الملتوية بعينٍ نصف شاردة، وقد ارتسمت كلمة واحدة بعقله
فنطقها بشرود:

- الخديعة؟!



مع كل خطوة له، كانت الأعين تلاحقه؛ بعضها مغموس بالخشية،
وبعضها بالرهبة، وآخرها بفضول لا يجرؤ صاحبه على رفع رأسه.
وخلفه خديجة تخطو بخطوات مُترنة، تلقي نظراتها احذرة على
وجوه الحرس والناس من بعيد.

السوق لم يعد صاخبًا كما في النهار؛ أصوات الباعة انخفضت، كأن
كل واحدٍ يخشى أن يرفع صوته أكثر من اللازم في حضرة مولانا.
لكن شيئًا آخر كان حاضرًا بقوة... النبوءة.

على كل جدارٍ، فوق كل باب، ارتفعت في كل مكان كأنها تلوح في
الأفق، كأنها وجهة، أينما ولوا يجدونها مشرعة أمام أعينهم، حتى في

أحلامهم صارت هي محرك كل الأحداث، سنوات طويلة يرزحون أسفل سطوتها حتى غدت همسًا يلزم صدورهم ليل نهار.

وصل جلال الدين إلى الساحة، توقف هناك، الساحة خالية إلا من مشاعل ضخمة تتأجج منها النيران في دائرة كأنها تحيط بشيء ما في المنتصف، لكنه لا يراه!

وعلى مسافة قريبة منه سور مرتفع، شاهق، يشبه سور قصره، معلقة فوقه مشاعل متناثرة، قال متسائلًا:

- ما وراء هذا السور؟!

قال أحد الحراس الذين يسرون من خلفهم:

- حدائق النعيم يا مولانا.

فجأة، وضع يده على رأسه، كأن أحجارًا تنقضُّ على جبهته من كل جهة، فتراجع للخلف بقوة وهو يشعر بالألم يجتاح جمجمته كزلال، عروقه تخفق بقسوة، وعينه تتلألأَن بدمع لا يسيل!

رفع كفه عن رأسه ببطء... توقَّع أن يراها مضرَّجة بالدم، فقد كان الإحساس واضحًا، خيطٌ ساخن ينزلق على جبينه.

لكنها كانت نظيفة... لا دماء... لا أثر!

- كيف؟!

همس بينما الألم لا يزال يستشري في رأسه، كأن الخيط الوهمي من الدماء لم يجف بعد، بل يتساقط في مكان آخر لا يراه!

مدت خديجة يدها تمسك بذراعه تسأله بصوت قلق:

- ما بك؟!

التفت نحوها بدهشة كأنه قد نسي وجودها وقبل أن يخبرها بما يحدث معه قالت وهي تربط على ذراعه:

- يبدو أن الحكيم معه حق، لقد نشر هؤلاء الملاحين السحر في كل مكان على أرض النعيم... لذلك الناس تعاني كما رأينا في السوق والآن في الساحة.

عقد حاجبيه متسائلًا:

- الحكيم!

أومأت مؤكدة:

- نعم... العجوز... هل نسيته!

كأنه قد انبعث من اللامكان، كان يقف خلفهم، بينهم وبين الحرس، قال بصوته المتهدج العميق:

- لقد أغاروا عليها قديمًا... فاضطررنا إلى رفع السور إلى هذا الارتفاع الكبير.

شعر بالدوار يملكه، الألم يغمره ولا يعرف ماذا حدث له، همست خديجة ببطء وهي تسنده أكثر:

- لنعد إلى القصر... أنت متعب.

شعر بأن صورتها تتداخل أمام عينيه فأغمضهما بقوة قبل أن يفتحهما ويراها تبتسم له وتتأبط ذراعه متبرمة:

- تعرف أن قدميَّ تؤلمانني سريعًا... وأنت رفضت الموكب.

ثم أرخت رأسها على ذراعه وتتابع بنبرة مُغوية:

- أعرف أنك حاكم متواضع... لكن ما ذنبي أنا؟ لقد افتقدت شرفتي وستائرها.

أحاط أصابعها الرقيقة الملتفة حول ذراعه بكفه، فارتجف جسده بتلك القشعريرة التي تنتابه كل مرة، والتي بدا أنه لن يعتادها أبدًا.

رفع رأسه وبصوتٍ عالٍ، خاطب الحرس:

- أحضروا الأحصنة.

وما هي إلا لحظات حتى جاؤوا بجوادَيْن مهيبَيْن، سنا بكهما تضرب على الحجارة في دويٍّ متتابع، ارتفعت معه أعناق الناس المزدحمة على بُعد عند الساحة.

صاح كبير الحرس وهو يرفع يده:

- أفسحوا الطريق لمولانا.

أمسك هو بلجام جواده، ارتقى ظهره في رشاقة اعتادها، والتفت إلى خديجة التي كانت تستوي فوق جوادها بسهولة شديدة وقال بدهشة:

- هذه الأحصنة مروضة وهادئة للغاية.

قالت خديجة بابتسامة غامضة:

- لأن من قام بترويضها أستاذ.

بادلها الابتسامة وهو يكرر كلمتها متعجباً:

- أستاذ؟!!

تنحنحت وهي تحرك جوادها بهدوء لتسير بجواره:

- أقصد محترف.

ومن بعيد كانت هناك عيون تراقب، بل وتستمع إلى الهمس الدائر بينهما بخفوت.

أسند عابد راحته إلى الحزام المشدود حول خصره، يتدلَّى منه مقبض خنجر فضي انعكس عليه وهج المغيب.

عيناه كانتا أشبه بسهام مشدودة، تتابع كل حركة لجلال الدين وخديجة، يزن خطواتهما كما يزن صيادٌ طريدته قبل الانقضاض، مهممًا:

- لم أظنك سهل التلاعب بك يا ابن شمس الراوي.

تجاوزت سلام الدرج المؤدي إلى شبكة الأنفاق، وقفت تتلفت وقد نسيت أين تتجه، فُتح الباب من خلفها وهبّط فتاة سمراء، تنظر إليها الفتاة نظرة متفحصة قبل أن تتجاوزها بأنف مرتفع.

تركتها سلام تمر وسارت تتبعها، وجدت نفسها في نفس المكان المألوف الذي استفاقت فيه للمرة الأولى، وسمعت خطوات سعادة تقترب منهما.

تحركت الفتاة مُسرعة نحو سعادة وهي تقول بلهفة:

- لقد وصلت أولاً... ماذا لديكم اليوم يا تُرى؟

قالت سعادة بفتور وهي تضغط صدغها وتعتقد حاجبيها:

- لا يوجد سوى التين.

زمت الفتاة شفّتيها متبرمة وهي تتوسلها:

- لم نأكل التفاح والفراولة منذ أربع سنوات كاملة... من فضلك يا خالة سعادة... أرجوك.

زادت سعادة من الضغط على رأسها وهتفت بعصبية لا تحتمل الألم:

- تعلمين أن الجميع معاقب منذ ذاك الانفجار اللعين.

خرجت الفتاة حانقة وهي تسب وتلعن قطاع الطرق الملعين، بالنسبة لها التين لا يستحق ما تفعله من بكاء يقطع أنفاسها، ربما تعود في الغد بعد أن تتدرب على عرض للرقص يوازي ما ستأخذه من التين. أغمضت سعادة عينها قليلاً ثم تنهدت وقالت:

- وأنتِ؟

أطرقت سلام برأسها، فنظرت إليها سعادة وقالت ساخرة رغم الألم: - المرة السابقة هربت مرتعبة... ما الذي جاء بك مجدداً؟! رفعت سلام كتفيها وقالت بعدم اكتراث:

- لم أكل فاكهة منذ زمن بعيد... أردت التجربة... ما هي التعليمات؟ أشارت سعادة بعينها إلى أحد الممرات وهي تقول بملل: - لا تعليمات... قدمي ما يحلو لك... المهم أن تجلسي القرفصاء عندما يرمون لك الثمرة وتأكليها دون النظر لأعلى وتخرجي على الفور.

وعندما تحركت سلام أمسكتها سعادة من رسغها وهمست:

- نصيحة... السادة لا يميلون كثيراً إلى اللهو وما شابه... مكافآت هذه العروض ضئيلة لا ثمن لها... إنهم يحبون المآسي والبكاء أكثر... وأسرع يوشكون أن ينصرفوا.

تركتها سعادة وانصرفت، شعرت سلام بالغصة وهي تتمم لنفسها:

- المآسي والبكاء... إذاً فسيمنحونني النعيم كله!

وصلت سلام لنهاية الممر وسارت مع المنحنى لتجد نفسها وسط القاعة المقصودة، منصة صخرية مرتفعة، وظلال مرتسمة على الجدران، عرفت على الفور أنها ظلال من يجلسون في الأعلى.

اعتلت المنصة وصمتت، لقد رسمت المشهد بعقلها مئات المرات، ستؤدي لحظة حبسها في غرفة الأسياذ.

سقطت على ركبتيها وهو تميل بشدة إلى الأمام، بدأت تزحف وهي تستدعي ما حدث لها في غرفة الأسياذ، تضع يدها على صدرها وتتنفس بسرعة وقوة قبل أن تنفجر في الصراخ:

- ليلى... أخرجيني من هنا... أخرجوني...

تضرب ساقها وتصرخ بها أن تتحرك، ترجوها أن تعود أن تعود إلى الحياة لتستطيع الوقوف والهرب، لكن ساقها تخذلها كما تفعل دومًا، فتصرخ ثانية وثالثة:

- أخرجوني من هنا... ليلى... أرجوك يا ليلى... لا تتركيني... لا تتركيني.

ولم تكن في حاجة إلى استدعاء الدموع، فلقد كانت تهطل بغزارة وحدها، شعرت بأن الشعلة المثبتة على الجدران تهتز قليلاً قبل أن ترتفع السنة اللهب ثم تخبو من جديد.

ظلت منحنية إلى الأمام جاثية تسعل وقد بدأت رغماً عنها تبصق دمًا، لقد أخرجت كل الصراخ الذي لم تستطع إخراجه من صدرها وهي في غرفة الأسياذ بداخل بيت سلطان وليلى.

وفجأة سقطت أمامها ثمرة تفاح، التقطتها سريعاً بلهفة وبدأت بأكلها، تبتلع مع التفاح دماء حلقتها النازف حتى أنهتها واضعة البذور أمامها بترتيب ونهضت مسرعة لتخرج، لكن صوتاً استوقفها:

- إلى متى ستظلين حبيسة غرفة الأسياذ يا سلام؟

دارت على عقبيها وهي ترفع رأسها نحو مصدر الصوت متسائلة:

- من؟!!

أجابها الصمت المطبق، لكن الظلال تتحرك بوتيرة مضطربة على الجدران مما جعلها تتراجع للخلف وهي تقول بخوف:

- أنا خرجت منها منذ...

قاطعها الصوت بثقة:

- منذ متى... هل تعرفين؟

زاغت نظراتها وقد تجمدت قدمها في الأرض لا تقوى على الحركة فقال الصوت ساخرًا:

- بحسبة بسيطة... عام قضيته مختبئة في القصر... وعشر سنوات بعد الغرق

- عشر سنوات!

همست وقد بدأت تشعر بالدوار لكن الصوت تابع:

- عشر سنوات مضت... كل شيء تغير... إلا المكان الذي ابتلعك! استندت إلى الجدار تلتصق جسدها به حتى لا تسقط، الغثيان يتزايد، بينما الصوت لا يتوقف:

- كل من تسبب بحزنك... بوحدة... سرقوا من عمرك عشر سنوات... دفعوا بك إلى طرق لم تكوني لتمشي بها... وفي النهاية عدت فارغة... بينما هم يرفلون في النعيم.

تسللت دموع العجز من مقلتيها، لم يكن الصوت عابرًا، كان يخرج من شقوق الجدران كأن المكان كله ينطق، يدخل رأسها كخنجر صدئ، يوقظ في قلبها جراحًا قديمة لم تندمل... قال:

- تعيشين مع القابلة في كوخ حقيير... تأكلين كسرة خبز... وجلال الدين وزوجته يمتطون الأحصنة ويتقلبون في الحرير... داخل قصر الحكمة...

همهمت متسعة العينين:

- قصر الحكمة!

تعالَت ضحكات من يحدثها، وحين سكت قال ببرود جعل الغصة تتجمد بقلبها:

- هو الحاكم الآن... يدير شؤون النعيم... يتحكم بالثمرة التي لا تزال تسكن أحشاءك.

ولما تعالت الضحكات ثانية وتردد صداها بين الجدران، وضعت كفيها فوق أذنيها وقد تملك الدوار منها... اقتربت الظلال حتى كادت تبتلعها، وصوته صار كالوخز في أذنها، أغمضت عينيها وسقطت فاقدة للوعي.

وحين استعادت وعيها كانت داخل حجرة ضيقة، بالكاد تسع فراشاً قديماً وماضياً مؤلماً لصاحبته، حاولت الوقوف تتسند على حافة الفراش، لفت انتباهها ثياب مألوفة مُعلقة على الجدار، يبدو أنها تخص سعادة قبل عدة سنوات، قياسها مختلف، ألوانها وقطعها تذكرها بثياب نساء الرواة، لقد كانت خديجة ترتدي ثياباً مشابهة، قالت لها يوماً إن هذا الجلباب يسمى الجرجار!

سقطت العباءة فحاولت إعادتها إلى نفس مكانها لكن يدها ارتطمت بمقبض مختبئ خلف الثياب المعلقة.

أزاحت الثياب جانباً، نظرت خلفها بتوجس وهي تدير المقبض ببطء، تسللت بخفة في الظلام خلف الباب، لوهلة، لم تحتج سوى وهلة فقط لتضربها الذكرى بقوة وهي تقف وسط البهو الفسيح عند الدرج الحلزوني الضخم الذي يشعرها دائماً أنه لا نهاية له.

لفها الدوار مرة أخرى لكنها تماسكت وهي تنظر لأعلى حيث الطابق العلوي، إنها الآن تتذكر! ذاكرتها المهترئة تتقاذفها هنا وهنا، ومضات

تضيء وتنطفئ، كانت تذكر كل شيء إلا ما يخص هذا القصر! لكنها الآن تذكر.

تمسكت بحافة الدرج وتسلقته ببطء، لقد عاشت هنا عامًا كاملاً بصحبة مالك وسلطان وخديجة وزوجها، زوجها الذي يحكم النعيم الآن كما أخبرها الصوت بالأسفل.

جلال الدين... سيظل هذا الاسم يعكس معنى الأنانية الكاملة لديها، أي شيء يقال عنه قابل عندها للتصديق.

ارتقت الدرج ووصلت إلى الممر الذي زحفت فيه يومًا ما بقدميها المريضة لتهرب، الآن تسير فيه تبحث بنصف إرادة.

خطوات قليلة وتصل إلى الغرفة التي كانت سجينتها يومًا، اقتربت منها لكنها كانت مغلقة، الباب تغير، في الماضي كان مجرد باب خشبي يُفتح بسهولة، لماذا يضعون هذا الباب الضخم كأنه جذع شجرة؟!

وعندما حاولت فتحه جاءها من الداخل صوت يشبه السلاسل الحديدية، تجر على الأرض، شعرت بانقباض قلبها ووضعت أذنها تستمع، بالفعل... سلاسل تجر وتحك بالأرض، كان الصوت يقترب حتى وصل إلى الباب.

واستمعت إلى صوت جعل قلبها يختض بداخل صدرها، كان صوت خديجة... تستنجد باكية!

- ماذا تفعلين هنا؟!

انتفضت سلام وهي تستدير تجاه الصوت، كانت سعادة تعقد يديها فوق صدرها وتنظر لها باتهام واضح.

أشارت سلام إلى الغرفة وقد انعقد لسانها، جذبتها سعادة للأسفل بعنف حتى وصلت بها إلى باب حجرتها الخفي، دفعتها للداخل، وأغلقت الباب خلفهما، أشارت بسبابتها تهددها وهي تسألها:

- لماذا بحثت في غرفتي؟ على ماذا كنتِ تنتصتين بالأعلى؟

قالت سلام مُتلعثمة وهي تشير بيد مرتجفة نحو الأعلى:

- أنا كنت في الغرفة العلوية ذات يوم... وجدتني أسير نحوها بفضول... لم أكن أتنتصت.

عقدت سعادة بين حاجبيها وقد انتابها الفضول:

- هل كنتِ تسكنين هذا القصر؟

ترددت سلام قليلاً ثم همست بصوتٍ واهن، وهي تحرك رأسها نفياً:

- لا... هناك شيء ما اضطرني إلى البقاء هنا.

جذبتها سعادة لتجلس أمامها على الفراش تستجوبها بحزم:

- الآن ستحكين لي كل شيء... وإن كنتِ كاذبة فسأعرف... ووقتها لن تخرجي منها.

أومأت سلام موافقة وبدأت تحكي لها باقتضاب، منذ اختارها الغراب في يوم الحصاد وحتى الغرق.

لم تصدق سلام ما تراه عندما خرجت من بوابة أنفاق النعيم، لكن هذه المرة وبعد أن علمت أن هناك بوابة أخرى تؤدي إلى أرضها التي تعرفها اختارت أن تخرج عن طريقها، لماذا إذن يسمونها النعيم، إنها داو!

داو بكل شيء فيها، الوجوه المكفهرة البائسة، الساحة التي لم يتغير فيها سوى تمثال جلال الدين، لقد رآته مرة واحدة فقط قبل أن يرحمهم بالحجارة فيهرعون هاربين عبر الحديقة ثم إلى القارب، ثم الغرق!

قاعدته فقط حدث بها تشققات، وجزء منها مُدمر، كأن أحدهم حاول هدمه من قبل، كانت تسير مُرتدية أحد أثواب سعادة القديمة، بشرتها السمراء جعلت ثوب القبيلة يليق بها وتبدو طبيعية للغاية.

السوق تكاد تكون فارغة، لا خضر إلا نوعان أو ثلاثة منها، أوراقها ذابلة يتعارك الذباب فوقها، وحبوب عدس، وطحين... فقط

ليس هذا السوق الذي تعرفه، حتى وقت الجفاف لم يكن بهذا البؤس والفقر، كل الوجوه التي قابلتها من العجائز، جلبة عند أحد الدور جعلتها تلفت، فتاة تدفع عجوزًا في صدرها وتهول هاربة، بينما العجوز تضع يدها على صدرها متألّمة وتصرخ غاضبة «لن نترك لك كسرة خبز واحدة يا غبية»، بينما الفتاة لا تسمعها، تسرع وشعرها المُتناثر حول وجهها يسبقها نحو بوابة النعيم!

تابعت سلام سيرها تتلفت هناك وهناك، أخذتها قدماها إلى بيت سلطان ولىلى، لم يعد بيتًا، إنه مجرد حطام، ربما تركوه على حالته هذه ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه مخالفة الأسياد!

نظرت إلى الجدران المحترقة، وفكرت في الطفلين، ترى حتى تألّما كثيرًا، أم كان الموت أشد رحمة عليهما من لىلى وسلطان.

غضت بصرها وهي تمسح دمعة غافلتها وسقطت على وجنتها، دمعة واحدة لكنها أحرقتها كالنار المتقدة في قلبها، لماذا يدفع الأبرياء الثمن دائمًا، بينما الآخرون ينعمون لا يمسهم سوء!

جلبة قادمة تتعالى أصواتها؛ صهيل، جنود، الحرس تبعد الناس يصيحون «أفسحوا الطريق لموكب مولانا».

اختبأت سلام خلف الركाम، اشرأبت لتنظر، رأتهما، جلال الدين على صهوة جواده والجواد الآخر يحمل خديجة!

اتسعت عيناها بذهول، كيف؟ من إذن حبيسة الغرفة في القصر؟! لم تنتبه إلى ذلك الذي كان يقف على الجانب الآخر من الركام، ركام بيته، حيث احترق ولداه بين جدرانها، يشاهد الموكب مثلها، لكن عينيه تتركز بقوة على جواد جلال الدين، وشفاته تتحركان متممًا.

فجأة سهل الجواد بقوة كأن شيئًا ما أغضبه، رفع قوائمه وصهيله يعلو ويعلو، ثم بدأ في الركض، والأشد غربة أن جلال الدين لا يحاول السيطرة عليه، ولا إيقافه، حتى عندما اقترب من التمثال، سيرتطم به، لماذا لا يحاول إيقافه، إنه بارع، هي تعرف هذا، ماذا يفعل!

ارتطم الحصان بقوة بقاعدة التمثال، سقط، واندفع جسد جلال الدين صوب التمثال، كان الارتطام قويًا، لكنه لم يفقده الوعي، كان جسده مُمددًا على الأرض والحراس يسرعون نحوه، كان يلهث ويتألم، ولكن عيناه كانتا تحدقان إلى التمثال بدهشة، كأنه يراه للمرة الأولى! وحين رفعت سلام رأسها لأعلى، رأت النبوءة المنقوشة على الحجر، قرأتها بتعثر، زفرت لم تفهم شيئًا، من صاحب الحكمة أشج الجبين، وكيف يقود البشرية إلى النعيم!

سارعت تحت الخطى نحو وجهتها الأولى، بيت عائلتها القديم، قبل أن تغلقه ليلى وتأخذها لتعيش معها في بيت سلطان... وقبل أن تصل إليه، وفي زاوية الطريق الضيق وقعت عيناها على عراقٍ ما بين شاب وفتاة.

توارت في الظل حتى لا يلاحظاها، بينما صوت الفتاة يخترق سمعها وهي تنهره بغضب:

- لا... أنا لن أفعل هذا... السادة يحبون المشاهد الحزينة أكثر!

غير أن الشاب يحاول أن يجعلها تخفض صوتها وينهرها لتسمعه:

- اصمتي... قلت لكِ إنهم وعدوني أن يرموا إلينا بالتفاح لو وقفنا على المنصة الصخرية وفعلنا ما شرحت لكِ... ألم تشتاقي إلى التفاح؟ لم نأكله منذ فجر الملعين السور.

لعت الفتاة شفتيها وقد باغتها طعم التفاح المُسكر، لمعت عينا الشاب وقال بهدوء:

- لن يشاهد هذا غير السادة... هم وعدوني.

أطرقت دون أن تجيبه ف جذب مرفقها وسار بها في اتجاه سلام التي التصقت بالجدار وانكلمشت حتى لا يلحظا وجودها.

وعندما اختفيا عن ناظريها أسرع نحو البيت، تفاجأت بما فعلت به العاصفة، لقد تهدم سقفه بالكامل، بذلت جهدًا كبيرًا حتى تستطيع دفع الباب، إذ كانت أخشاب السقف تسد الطريق من الداخل، ورائحة غريبة خنقت أنفاسها.

قفزت من بين الألواح المتكسرة لكنها خدشت ساقها، لم تشعر بخيط الدماء الذي سال ببطء حتى وصل إلى كعبها ومنه إلى الأرض، نقطة واحدة كانت كافية ليشتعل البخور في الزاوية من تلقاء نفسه.

تملّكها الخوف وهي ترى دخان البخور يرتفع ويملأ فراغ الدار من حولها، حينها سقط شيء ما جوارها فانتفضت متراجعة للخلف، إنها مرمدة كحل تعرفها، الكحل الذي كان يميز عيني ليلى، ذاك الذي لم يكن سلطان بكل هييبته وشياطينه يقاومه.

لمسته بأناملها برهبة وهي تشعر بثقل قد بدأ يتسرب إلى صدرها، لقد جاءت هنا لأن الخالة سعادة استطاعت إقناعها بأن في النعيم ستكون أفضل من القبيلة، لديهم عمل كثير هجره أصحابه لأجل حدائق

النعيم، لديهم مياه أنظف، وبالتأكيد لديها بيت ولو كان قديمًا سقط سقفه، سيكون أفضل حالًا من كوخ القابلة وأصوات المقابر ليلاً.

رفعت المرمدة نحو عينيها، تنظر إلى انعكاس صورتها في غطاء الآنية النحاسي العتيقة، سحبت خطين فوق جفنيها بأصابع مرتعشة وظلت تنظر إلى انعكاس صورتها، شيئًا فشيئًا، وببطء، يتبدّل وجهها في الانعكاس؛ عيناها الزرقاوان بدأ لونهما يذوب، كأن قطرة حبر سوداء انسابت في الماء، حتى غمر السواد كامل القرعية، باتت عيناها نسخة كاملة من عيني ليلي.

شهقت وأبعدت وجهها، لكن حين أعادت النظر تجمدت؛ أخذت صورة أخرى تتكشف، ملامح ليلي نفسها، واضحة وقريبة.

كانت جالسة أمام شاشة كبيرة في قلب مدينة لا تشبه عالم سلام، ترتدي ملابس عصرية، وجهها متبرج بعناية، وصوتها يعلو بخطابٍ واثق: - أسابيع قليلة، وربما أيام، تفصلنا عن خروج من سيخلصنا من كل هذه الفوضى، والحروب والمجاعات والجفاف... ويعم السلام! شعرت سلام أن ليلي توقفت عن الكلام فجأة، ثم تركت من كانت تتحدث إليهم والتفتت نحوها كأنها تقف أمامها الآن وقالت بحدة:

- ألم أخبرك بأنك شؤم؟! امسحي الكحل حالاً!

تراجعت سلام مذعورة، سقطت، كأن الكلمات انطلقت من فمها إلى صدرها مباشرة. يدها ارتجفت وسقطت المرمدة تُلطخ الأرض من حولها. - انهضي...

كان عابد يقف أمام الباب، متى دخل لا تعلم، ربما لحظات وستفقد الوعي من شدة الخوف وهي تنظر إلى عابد بوجه شاحب... ابتسم ساخرًا وقال:

- لا تزالين جبانة يا سلام.

كعاداته يشبك كفيه خلف ظهره وهو يدور حولها ببطء قبل أن يُضيف:

- أَلن تكفّي عن ردود أفعالك المبالغ فيها؟ هذه ليست ردود أفعال

فتاة سُجنت يومًا في حجرة متخمة بالشياطين!

بينما هي مكتفية بالتحديق والذعر في عينيها صارخ، كان هو يردف بوقار ضاحكًا:

- شياطين الشاطئ الأسود.

توقف ثم انحنى تجاهها معقبًا:

- هل عرفتِ الآن أين هو الشاطئ الأسود يا سلام؟

اعتدل واقفًا، فتح ساعديه كأنه يعلن شيئًا للعالم، وابتسامة واسعة تتسع على وجهه:

- هنا... دائمًا كان هنا... الرمال السوداء... داو... النعيم... اللعنة والنبوءة!

شعرت بالخدر يسري في ساقها كما أحست به عائدًا يقترب منها مجددًا، صوته خافت كالضحك:

- اتركي دور الحمقاء هذا... ألا تريدي أن يخافك الناس... يسارعون لتلبية أوامرك؟ ألا تريدين حياة هائلة... مع مالك!

جسده مُثقل بالآلام، متعب، لكنه لم يكن نائمًا كما ادعى، لقد عاد من لقاء سلام وكل عظامه تنن، بينما عقله لا يستطيع استيعاب ما يحدث، كيف مرت عشر سنوات في لمح البصر، أين كانوا خلالها؟

القابلة أقسمت أنها لا تعرف كيف حدث هذا، سلام نفسها بدت كأنها لم تكبر يومًا، أما هو... فلم يطرأ عليه سوى شيء واحد لحيته التي استطالت، شاهدة صامته على غياب لم يفهم معناه.

توقفت أفكاره حين اخترق سكون الليل صوت حركة خافتة.

فتح عينيه على اتساعهما، لحظة أولى لم يدرك إن كان ما سمعه حلمًا أم حقيقة. لكن الصوت عاد أوضح؛ وقع أقدام خفيف، يعلو تمامًا من فوق سقف الدار.

ارتجف قلبه، واعتدل قليلًا وهو يحبس أنفاسه. غمره مزيج من الفضول والخوف، كأن الليل نفسه يتنفس فوق رأسه، حاول أن يميز أي ظل أو حركة في العتمة، لكن الظلام لم يمنحه سوى فراغ صامت. هل ينهض ويرى ماذا يحدث؟ ماذا لو ظنَّوه متطفلاً كما حدث سابقًا؟

غلب فضوله خوفه في النهاية، نهض ببطء حذر كالقط نحو أقرب جدار، هذا الصوت الذي أيقظه، ربما يكون لصًا يحاول الدخول من النافذة العلوية!

سار بروية متلفتًا بحذر، حتى التف حول الدار من الخلف، اتسعت عيناه حين وقعتا على الحبل السميك الممتد صاعدًا إلى أعلى، يختفي طرفه بين عوارض السقف.

تجمد في مكانه لحظة، ثم استدار فجأة يعدو بكل ما بقي في ساقيه من قوة.

اندفع نحو الباب وراح يقرعه بجنون، يصيح بصوت مبجوح:

- لص! لص! استيقظوا! هناك لص يحاول التسلل إلى الداخل! افتحوا!

فُتِحَ الباب فجأة، وقبل أن يستوعب ما يحدث، انقضت عليه قبضة قوية كتمت فمه وجذبتة إلى الداخل، ارتد الباب مُغلَقًا خلفه بصوت مكتوم، وابتلع الظلام كل شيء.

ظل مالك يلهث بلا صوت، قلبه يقرع كطبل في صدره، والقبضة الحديدية تمنعه من الحركة، حاول أن يقاوم، لم يعد هناك مجال للتفكير، كل ما تبقى له هو تنفُّس متقطع، مترقِّبًا ما سيحدث، حينها شقَّ السكونَ صوتٌ خافت مألوف، حاد لكنه هادئ، يحذر بصرامة:

- اهدأ ... لا تتحرك. لن تؤذيك... لستُ لصًا.

لكنه لم يجرؤ على الرد، حينها سمع حركة تقترب، وصوت وصال تقول بخفوت:

- لا تخف.

شعر بحركة أخرى على الجانب الآخر، أعقبها صوت عاصف، يقول وهو يشعل مصباحًا في يده، ويوجه حديثه لذلك المجهول المُلثم الذي يقبض على أنفاسه:

- ارفع يدك عنه لئلا تراه.

رفع المُلثم يده وهو يحدق بعينيه الحذرتين إلى وجه مالك، بينما وصال تقترب من أخيها وتهمس:

- ألم نتفق أن تجعله يحلق لحيته؟

رفع عاصف كتفيه وبادلها الهمس:

- لم يوافق...

فجأة خرج اسم مالك همسًا مشحونًا بالدهشة والارتباك من أسفل اللثام:

- مالك! إنه أنت بالفعل...كيف؟!

قال عاصف بلا مقدمات كعادته:

- كيف سيعرفك هكذا؟ اخلع اللثام يا عمار.

- عمار!

همس مالك، وهو يحدق إلى تلك العينين، تشبه، فقط تشبهه، لكن

هذا رجل... وعمار كان مجرد فتى!

انقضَّ عمار يحتضنه هاتفاً لقد تخطى عن حذره:

- مالك... كنت أعرف أنك لم تمت!

كان مالك كورقة في مهبِّ الريح، جسده النحيل يترنَّح بين يدي عمار

القويتين، حتى كاد يعصره بلا رعي من شدة لهفته.

لكنه لم يستطع أن يدفعه أو يتقلت منه، عيناه تائهتان في عتمة

المكان، بين مصباح عاصف المترنَّح، ووجه وصال المشفق، وهو لا

يعرف أهو في حلم أم يقظة.

اختنق صوته بين الدهشة والارتجاف:

- عمار! كان فتى!

لكن عمار لم يترك له مجالاً للشك، كانت يداه ترتعشان، وهو يضمُّه

أكثر، كأنه يخشى أن يختفي من أمامه فجأة.

وضعت وصال يدها أعلى ذراع عمار، وهمست محاولة مقاومة

دمعها:

- ستخنقه.

ضحك عاصف ليخفي الغصة المتصاعدة في حلقه، وقال بنبرة

خرجت مرتفعة رغماً عنه:

- أجلسه يا عمار سيسقط بين يديك... دعه يعتاد ثقلك أولاً.

ضحكت وصال، غير أن عمار كان في عالم آخر وهو يبتسم لصديقه
ويدقق بملامحه المذهولة! كأنه يريد أن يحفر بداخله كل تفصيلة في
وجهه بعد طول فراق.

جلس مالك متهاوياً على الأرض، أنفاسه متقطعة، فيما ظلَّ عمار
يركع أمامه، يبتسم ابتسامة غريبة تتأرجح بين الفرح والبكاء.
لم يقل شيئاً، كل ما فعله أن مد يده ولمس لحيته النابتة، هز رأسه
في اندهاش... لا يصدق! وأخيراً نطق متسائلاً:

- هل بالفعل مرت كل تلك السنوات!

ارتفع بصر مالك إليه ثم إلى عاصف، الذي قال بغموض ونبرة متأنية:
- حاول أن تهدأ... لنخبرك بكل شيء.

ترددت الكلمات في أذنيه، كل ما شعر به هو الثقل المتراكم في
صدره، والدوار الذي أخذ يلتفُّ حول رأسه، بينما عمار ما زال جاثياً
أمامه، يرمقه بنظرة ملؤها الفرح والخوف معاً، نظرة لا تُشبه أيَّ شيء
آخر.

كانت القابلة عائدة من رحلتها اليومية من وإلى القبيلة، وبجعبتها
بعض الحبوب، كانت تفكر في سلام التي اختفت منذ أيام، ما جعلها
تطمئن قليلاً أن سعادة أخبرتها بعودتها إلى بيت عائلتها في داو، لكنها
لا تزال منشغلة تفكر بها، الفتاة وحيدة، بلا أصدقاء أو عائلة، إلى أي
شيء ذهبت إذن؟!

أوقفت عربتها الخشبية أمام الكوخ، الباب موارب وهذا يمنحها
مشاعر متناقضة، إما أن تكون سلام عادت، وإما أن يكون لصاً!

دفعت الباب ودخلت تجر جسدها الضخم وتلهث، وجدت سلام في انتظارها عند الموقد، قالت:

- أين كنتِ؟ كيف تذهبين دون أن تخبريني؟

ابتسمت سلام، ورفعت حاجبيها قائلة بدهشة:

- أنا معتادة أن يرتاح الناس لمجرد اختفائي عنهم.

تفحصتها القابلة، وقالت وهي تجلس على مقعدها الذي يئن بحمله:

- وتضعين الكحل! هل أخبرك مالك أنه سيزورنا الليلة؟

تجهمت سلام، وأطرقت برأسها مما أقلق المرأة، كانت تتوقع أن تعبس أو تخجل، قالت متسائلة:

- هل تشاجرتما؟

عقدت حاجبيها، وانشغلت بوضع الحبوب في الماء، فقالت القابلة مردفة:

- لا بأس... لقد كان مصدومًا وأنا أحكي له في زيارته السابقة... اتركه وسيأتي من تلقاء نفسه عندما يهدأ.

- لقد رأيته.

قالتها سلام فجأة بنبرة يشوبها الحق، فقالت المرأة معقبة:

- مالك؟

- لا... الحاكم الجديد.

التفتت المرأة متفاجئة وهي تتساءل بعينين متسعيتين:

- مولانا؟!!

ضحكت سلام دون توقف حتى ظنت المرأة أنها فقدت عقلها، وعندما هدأت نظرت إليها نظرة طويلة قائلة بعتاب:

- كنتِ تعرفينه... صحيح؟

تغضن جبين المرأة أشاحت بوجهها قائلة بجمود:

- ولماذا أخبرك؟

- تعرفين أنه أصبح الحاكم... وكتمتِ الأمر عني وعن مالك...

وتعرفيني... وقمر... أقصد الخالة سعادة!

قالتها سلام منفعة مما جعل المرأة تنهض هاتفة:

- لا تصرخي في وجهي... لست ملزمة بإخبارك كل ما أعرف...

وقمر لن تفشي سرها إلا إذا كانت تريد شيئاً منك... لا تكوني

غبية.

دمعت عيناها، وهي تفتح باب الكوخ قائلة بنبرة باكية:

- هذه المرة سأكون غبية بإرادتي يا خالة!

وقبل أن تخرج اصطدمت بجسد مالك الذي كان يتأهب ليطرق الباب،

مرت جواره وهي تغلق الباب خلفها، تهمس والبكاء عالق بصوتها:

- اتبعني...

خطواتها كانت سريعة واسعة، كلما هطلت دمعة تمسحها بعنف،

بينما هو يلحق بها ويناديها لتتوقف، خففت من سرعتها قليلاً، سار

جوارها وهو يلهث:

- ماذا حدث؟ توقفي.

كانت تصارع نفسها، ستفعل، ولم لا؟ يليق بها النعيم، يليق بها

أن تأمر فتُطاع. عابد محق، الجميع يستغفلها، إلى متى ستظل طفلة

باكية راکضة إلى حضن أمها التي تنزل صفعتها على وجنتها تزلزلها،

وتخبرها بأنها هي المخطئة، لأنها شؤم، لأنها سلام؟

- سأخبرك سرّاً.

تناوبت الدهشة على وجه مالك مع الابتسامة وهو يقول بحماس:

- أنا من سيخبرك سرًا.

أوقفته تقاطع كلماته، وهي تهتف:

- لقد وجدت خديجة... هي حبيسة في قصر أبيك.

توقفت خطوات مالك فجأة، كأن الأرض جمدت تحت قدميه، اتسعت عيناه وهو يرمقها في ذهول، كلمتها الأخيرة اخترقت صدره كطعنة مباغطة، ارتجف صوته وهو يكرر ببطء غير مصدق:

- خديجة... في قصر أبي!

رفع مالك رأسه فجأة، عيناه دامعتان لكن بريقهما حاد، وصوته خرج متقطعًا:

- جلال الدين... هل كان هناك أيضًا؟!

انكملت ملامحها للحظة، وعضّت على شفتها السفلى، ثم همست قبل أن تتراجع:

- لا... لقد رأيته في ثياب الحاكم... لقد سحروه... لا يعرف أي شيء.

تمتم غير مصدق، صوته يخنقه:

- في ثياب... الحاكم؟!

خطت نحوه، أمسك بمرفقه وهي تقول ما حفظته:

- لا وقت يا مالك... يجب أن تتخطى صدمتك... جميعنا عبرنا عشر سنوات فجأة... وكل منّا ظهر في مكان مختلف لا يذكر كل ماضيه... وما عرفته عندما كنت في النعيم أنهم خدعوا جلال الدين... سحروه واختطفوا خديجة وبدلوها بكيان آخر يتشكل بهيئتها... لا بد من إنقاذها قبل أن يقتلوا... ثم نأخذها ونذهب

بها إلى جلال الدين... وأنا على يقين أن السحر سينتهي بمجرد أن يرى خديجة الحقيقية.

لم تتوقف حتى لتأخذ بعض أنفاسها، كأنها تريد إلقاء الكلمات ثم تصمت، حتى لو صمتت بعدها إلى الأبد، وجهها كان شاحبًا، لكن مالك كان أكثر شحوبًا، لونه أصبح شبيهًا بالأموات، نظراته زائغة وهو يغمغم:

- كيف سننقذها؟

ابتلعت ريقها وارتفع وجيب قلبها، بينما كل خير بداخلها يناشدها ألا تفعل، لكن الكحل حول عينيها يحرقها، والهمس في صدرها يتزايد أنها لا يجب أن تتوقف الآن... وإلا ستدفع الثمن.

أشاحت بوجهها وهي تقول بجمود:

- لا بد وأن نجد من يساعدنا... نحتاج إلى من يصدقونها... ونثق بهم. همس كأنها زرعت الفكرة في رأسه:

- عمار.

أطرقت، حاولت أن تبدو متفاجئة وهي تسأل:

- هل عثرت عليه؟!

لكنه لم يكن يسمعها، بداخله يرتجف، جلال الدين مسحور، خديجة سجيئة، كل ما قاله عمار حقيقي إذن، داو باتت معقل الشياطين، نحن لم ننجُ إذن.

شعر بعرق بارد يسيل على جبينه، قبض على صدره وهو يلهث:

- يبدو أننا كنا نركض هاربين في دائرة مغلقة يا سلام... لم نهرب... لم ننجُ.

جلست سلام في الساحة الخارجية لبیت عاصف ووصال التي رحبت بها للوهلة الأولى، لكن شيئاً ما بعينَي سلام جعل ابتسامه وصال تتبخر ببطء حتى اختفت تمامًا.

أما مالك فلقد كان مجتمعاً برفقته كلها أخيراً، ينظر إليهم بفخر، لقد باتوا رجالاً أشداء، بينما أصبح هو الفتى بينهم!

هكذا عبّر أنس عن الصدمة بمزاح ثقيل، لكن يحيى استطاع أن يدير الجلسة عندما رأى الشحوب والنظرات الزائغة في عيني مالك، إنه حتى غير قادر على الابتسام.

لم تكن صدمتهم بأقل منه عندما عرفوا أن جلال الدين هو حاكم النعيم، أو بمعنى أدق وكما فهموا من سلام، إنه لعبة في يد حاكم النعيم، بلا إرادة تقريباً.

قال عمار والصدمة مُرتسمة على وجهه، لا يصدق:

- مستحيل... لو اجتمعت شياطين الأرض على جلال الدين لن يخدعوه في خديجة...

مال ياسين نحوه قائلاً بجدية:

- مهما كان يحبها... هو بشر في النهاية يا عمار.

لكن يبدو أن عمار كان يقينه أقوى من المنطق، فقال يحيى بحسم:

- ربما سنفهم فيما بعد... الآن لا بد من وضع خطة لتحرير خديجة. تدخلت سلام برأيها قائلة:

- المرأة المسؤولة عن الأنفاق ستساعدنا.

التفت عاصف نحوها عاقداً حاجبيه، وهو يسألها بريية:

- كيف وثقت سعادة بك بسهولة هكذا!

تحولت كل العيون تجاهها فارتبكت، تنفست بعمق، ووضعت يدها على جيدها وهي تقول بخفوت:

- لقد أشفقت عليَّ عندما عرفت قصتي... وأنني... وأنني كنت سجينَة نفس الغرفة.

قال صالح مندفعًا، وقد كان المتحمس الوحيد بينهم:

- جيد... من الممكن أن تغطي تلك المرأة تسللنا حتى نستطيع الوصول إليها.

تبادل عمار النظرات مع عاصف الذي قال ساخرًا:

- ما هو الجيد يا صالح... أنا أعرف سعادة هذه جيدًا... امرأة تدير شبكة الأنفاق لصالح عابد والوفود التي يستقبلها في الجزيرة بسرية... يعتمدون عليها بشكل كامل... ترشد الفتيات إلى الطرق التي يستطعن بها جلب الثمار من السادة بضمير ميت... لم تتعاطف معهن ولو مرة... هل تتعاطف هكذا فجأة مع فتاة صادفتها مرتين أو ثلاث!

نهضت سلام منفعلة، وهي تهتف وقد شحب وجهها:

- لن أبقى هنا حتى أستمع إلى مزيد من الاتهامات والسخرية... لقد أخبرتكم بما رأيت وعرضت عليكم طريقة للمساعدة... لكنني أعلم أنكم تكرهونني منذ زمن بعيد... أنا الغريبة الوحيدة بينكم.

أشارت بيدها إلى وصال وعاصف ومالك، وقالت وقد بدأت ترتجف حقيقة والدموع تنساب من عينيها:

- لقد ظهر لك أخوة يا مالك فلم تعد بحاجة إليَّ.

ثم انتقلت ببصرها إلى عمار وياسين ويحيى وصالح وأنس، تدور بعينيها بينهم وهي تستكمل انهيارها:

- وأنتم رفقة... منذ زمن... ورفقة مالك أيضًا... أما أنا فمن أكون! أنا سلام... أنا الشؤم... أنا لا شيء.
- هربت راکضة تخفي وجهها بيدها، كان مالك أول من تحرك بلحق بها، بينما أطرقت وصال هامسة:
- هل كنتم تنفرون منها في أثناء بقائها معكم في القصر؟
- مال عمار نحوها وقال بجدية:
- وصال... سلام مشكلتها أكبر منّا بكثير... سلام مجروحة من عائلتها... لذلك هي لا تُشفى مهما حصلت على الحب من غيرهم.
- غرد عاصف خارج السرب، وقال معقبًا:
- ابتعد قليلًا يا عمار... يمكنها الاستماع من مسافة أبعد.
- نهض يحيى وهو يزفر بسأم:
- وهل هذا وقته؟!
- قال عمار موافقًا:
- معك حق... هذا ليس وقته...
- ثم نظر إلى عاصف وقال ببساطة:
- على الرغم من أن عمي نصر عقد قراننا... كما فعل معك أنت وزهرة... أم أنك نسيت السبب الذي جعلنا نبني هذا البيت لأربع سنوات كاملة!
- ثم تابع كأنه كان يضع النقاط على الحروف فقط، قبل أن يردف:
- أرى أن نستوثق من الخبر أولًا.
- عاد مالك في هذه اللحظة متجهماً، يبدو أنه لم يستطع اللحاق بها، وقال عاجزًا:

- لم أجدها... كأنها تبخرت في الهواء!

كانت وصال تفرك كفيها متوترة، تشعر بأن هناك خطأ ما، سلام لا تشعر بأنها جزء منهم، حانقة، غاضبة، ووصال دائماً تخاف ممن تجتمع فيهم صفتا اليأس والغضب معاً.

لقد كان عاصف مثلها يوماً ما، لهذا كان يؤذيها وهي أخته ويحبها، لكنه لم يكن يقدر العواقب، الغضب من تاريخ والدتهما، وما حدث لها وشدة شعوره بالعجز من أن ينتقم لها كان يعمي عينيه.

لذلك هو تغير بعد أن خرب عليهم بعضاً من نعيمهم الزائف، لم يحدث به خسائر فادحة لكنّ جزءاً ما بداخله هدأ وصار أكثر تقبلاً للعالم.

- لا يجب أن نجتمع هنا ثانية.

قالتها فجأة فدارت الرؤوس نحوها، فتابعن، ملامحها تشرح القلق المعتمل بداخلها:

- وسأذهب إلى صفية لأستطلع الأخبار عن الحاكم الجديد... أستطيع معرفة جلال الدين ببعض التركيز.

قال عاصف يؤيدها:

- سأصحبك.

التفّ خمستهم حول الجدة يقصون عليها آخر الأخبار، بينما بدى عمار متلهفًا، حتى إنه لم يستطع الجلوس، كان يقطع المسافة بين اجتماعهم وصخرة وصال المفضلة جيئة وذهابًا، يمسح على شعره بين الفينة والأخرى، يسمع الجدة وقد تمكن القلق من صوتها:

- خيرًا ما فعلتم... نتأكد أولاً من الخبر ثم نرى كيف سنخرجها من هناك.
- وجلال الدين يا خالة... لو صح الكلام فهو في خطر أيضاً.
- رفعت الجدة عينيها نحو عمار وقالت تهدئة:
- معك حق... ولكن يجب أن نهذاً لنفكر...
- قال عمار وقد بدأ يفقد صبره:
- أنا غير قادر على الانتظار حتى يعودا... يجب أن أفعل شيئاً.
- حاولت أن تشتت أفكاره بعيداً فسألته فجأة:
- وأين هذا الولد... مالك؟
- تركناه في الدار خلف التلة... إنه حائر بين تصديقه لكل ما قالته سلام وبين شعوره المماثل لنا بأن هناك أمراً ما تخفيه!
- اتسعت عيناها، كأنها قد اقتحمت فكرة عقلها فجأة:
- هل أخبرتموه أن لا يذهب إلى نصر الراوي.
- زفر ياسين متنهذاً بقوة، بينما همس أنس:
- لقد نسينا.
- فرك صالح جبهته وهو يدعو الله ألا تزور الفكرة رأس مالك، فالشيخ نصر مريض منذ أن ماتت الحاجة وسيلة، اعتزل الناس أكثر، ورفض العودة إلى مشيخة القبيلة، فتولاها الشيخ سليمان مضطراً، فهي لم تعد مطمئناً كما كانت، صارت حملاً بينما الناس بدؤوا بهجر القبيلة بعد أن جفت معظم مواردها، وأصبحت الضفاف سوداء تبتلع من يقترب منها فتمنعهم الصيد، بعضهم انتقلوا إلى أطراف داو بعيداً عن السوق والساحة، العمل هناك متوفر مقابل العدس، ولحم الطقوس الذي يأكلونه وهم يعلمون لماذا ذبح!

ربما لذلك استطاعت زهرة العودة إلى دار الشيخ نصر، خاصةً بعد أن استرد داره، تختبئ وتعتزل الناس والخروج إلا للضرورة، وتكون متخفية، لكنه على الأقل ليس وحيداً تماماً ويجد من يرعاه.

تحرك صالح ناهضاً، وهو يقول بصوت متعب:

- سأعود إليه.

استيقظ جلال الدين شاهقاً، يتنفس بصعوبة، يلتفت حوله فلم يجد إلا العتمة، لكن يداً ناعمة لمست كتفه وصوتها يهمس قرب أذنه:

- عُد إلى النوم... أنت متعب.

ارتعش جسده، يريد أن يفكر، يريد أن يتذكر ما حدث له في الساحة، لكنها توجد دائماً إلى جواره، تهمس في أذنه فيعود للنوم مرغماً.

منذ أن دخل هذا القصر للمرة الأولى لم يزره كابوسٌ واحد، أحلامه كلها تدور داخل بستان قصره، إلا الليلة التي ارتطم فيها بذاك الشيء الصلب داخل الساحة، ماذا كان؟ لقد نسيه!

هذه الليلة تحديداً بدأت الكوابيس تطارده، ولم تتوقف، شخصٌ ما يظهر له داخل أحلامه الرائعة فيقلبها رأساً على عقب، يرتدي عباءة سوداء، يمسك كتفيه، ويهزه بقوة، ويأمره أن يستيقظ لينقذ زوجته، لينقذ رفاقه، ليمنع سجين الكهف من الخروج للعالم.

الصورة تتباطأ، ويختفي صوت صاحب العباءة السوداء، ويصم أذنه صراخ خديجة، كل ليلة، كل التفاصيل تُكرر نفسها كل ليلة.

صرخات خديجة المتألّمة لا تتركه إلا عندما يصحو شاهقاً، وثقل ما يجثم على صدره، فيشعر بيدها، ويستمتع إلى صوتها فيغمض عينيه،

ويذهب إلى أحلام وردية بين حدائق قصره وثمارها، ونعيم لمسة خديجة!

جفناه يتثاقلان، فيحاول رفع رأسه ولو قليلاً لعله يصحو، فترفع هي كفها فوق رأسه وتحرك أصابعها في الهواء كأنها تعقد عقدة، ثم تشدها بقوة، فيتراخى عنقه فوق الوسادة الناعمة، ويذهب في سُبات عميق. أما في قاعة الحكم، فلقد كان هناك اجتماع آخر ينتظرها، تعلم أنه سيتم توبيخها لا محالة، لكن إن لم تذهب شدوا السلاسل المنصهرة حول عنقها وأحضرها رغماً عنها.

وقفت مطرقة أمام عجوز البركة، تقر بذنبها:

- حتى الآن لم نعرف المتسبب في حادث الساحة.

كانت تتوقع أن يكون غاضباً، يعذبها لينتقم منها، لكنها وجدته يطرق بعصاه على الأرض الملساء طرقات متتالية مضطربة، كأنه يفكر بعمق ثم يقول:

- حاجتنا إليه فيما بعد ستحدد حسب الخطوة التي سيخطوها رفاقه يا ليليث... لو انجرفوا وراء مشاعرهم... وهبطوا الجبل إلى هنا ليروه، سننهي أمرهم، ولو حاولوا تحرير خديجة، فقد حضر عابد لهم سحرًا يجمدهم مكانهم وحراسنا سيقطفون رؤوسهم بسهولة... وحينها فقط تنتهي مهمة جلال الدين.

قالت دون أن ترفع رأسها:

- هذا ذنب عابث... هو من أخرجهم من بين الأمواج وأحضرهم إلى هنا.

خرجت النار من رأسه، وارتجفت الجدران قبل أن يرتفع صراخ عابث من السرداب، سقطت راکعة على ركبتيها، تعلم أنه غاضب.

لم يهدأ غضبه منذ أن خرج عابث عن السيطرة مجدداً، وقرر اللعب مع البشر، نسي التحذير، نسي التعذيب الذي مر به سابقاً، نسي حتى التهديد بأن يُنفى مثل كاردل، استغل النبوة التي ما كانت سوى أمنية زرعوها في قلوب سكان داو، وانشغلوا بها عن كل شيء آخر.

حتى يحين الوقت، ويقوم عجوز البركة بتجهيز ليليث لتتجسد في صورة جلال الدين، لتخرج عليهم في صورة مبهرة، تجعلهم يخرون سُجداً لها، ثم إلى من ستأمرهم فيما بعد بالسجود أمامه!

لكن اللعنة على عابث، وعلى شيطنته، وحبه للعبث مع البشر.

الآن هو ينال ما يستحق، لقد خرب عليهم خطتهم مدعيًا أنه يريد أن يضعهم جميعًا أمام رغباتهم وشهواتهم، ثم يشاهدهم وهم يتحولون إلى عباد لها.

أراد أن يعيد رقعة الشطرنج إلى حالها الأولى، لكن العقد انفرط من بين يديه، نسي أن هناك إرادة أخرى أعلى من إرادته، إرادة جعلتهم يتفرون ويسيرون في طرق أخرى، لم يستطع عابث التحكم بها.

بالغت ليليث في سجودها أمام عجوز البركة، وهي تقول بخضوع:

- سيدي أشمداي... ماذا سنفعل في الخطوة القادمة؟ قد اقترب موعد الوعد الجديد.

قال بغموض:

- تقصدين الوعد الأخير.

نظرت إليه بوجوم، وقالت بخفوت:

- هل حان موعد الخروج؟

وضع عصاه على رأسها، وقال وهو ينظر إلى أعلى:



telegram @
yasmeenbook

- أيام من أيام البشر... ويخرج إلى العالم مخلصهم!

في اللحظة التي قفز فيها صالح عابراً سور بيت وصال ليطمئن على مالك ويخبره أن لا يذهب إلى القبيلة، كان مالك بالفعل على حدودها، وجه غير مألوف بالنسبة لهم، سأل ببساطة عن دار نصر الراوي فوجه أحد الأطفال إليها.

طرق الباب كثيراً حتى ظن أن الدار خاوية من أهلها، وحين أسند رأسه إلى الباب مفكراً في الخطوة القادمة، هل يعود إلى بيت عاصف أم يذهب للبحث عن سلام، سمع صوت فتاة تسأل بخفوت:

- من بالباب؟

قال متفاجئاً:

- مالك... أريد الشيخ نصر الراوي.

غابت الفتاة قليلاً، ثم سمع جلبة خلف الباب الذي فُتح على مصراعيه، تجمد نصر المستند إلى عصاه وقد ظهر المرض متجلياً على وجهه بوضوح، رغم ذلك كانت عيناه متسعيتين وهو يتفحص مالك بوجه شاحب، ويقول بشك:

- من تريد؟

تقدم مالك خطوة، وهو يراقب خطوط الشيب الكثيفة في لحية الشيخ نصر، ربما آن الأوان ليصدق أن عشر سنوات مرت، كأن ما رآه حتى الآن ليس كافياً!

- أنا مالك يا شيخ نصر... ألا تذكرني؟ كنت آتيك بأخبار ابنتك عندما كانوا...

ضاعت كلماته بين يدي نصر الراوي الذي أمسكه من كتفيه، وجذبه للداخل. أغلقت زهرة الباب من خلفهما، وهي تراقب معجزة أخرى وتستمع إلى تفاصيل حدوثها!

وحين انتهى هتف نصر منفعلًا:

- ابنتي... ابنتي هنا... خديجة في القصر... لم تكن أُمي تخرف... وأنا الذي ظننتها تعاني أوهام سكرات الموت!

أما زهرة فلقد كانت صدمتها مختلفة، وهي تهمس:

- قمر في أنفاق النعيم... تديرها للعم عابد؟!

صاح نصر غاضبًا، وهو يتقدم صوب الباب:

- عابد... ذلك الحقير... ابنتي سجينه لديه!

عندما فتح الباب وقبل أن يلحق به مالك، وجد صالح يرفع يده ويستعد لطرق الباب، توقف وهو ينظر إلى مالك، ثم زفر ضجرًا، لقد أخبره وانتهى الأمر:

- إلى أين يا شيخ نصر؟

- إلى ابنتي يا صالح... لن أتركها.

- اسمعني أولًا يا شيخ نصر... ثم اذهب بعدها إن أردت... الأمور ليست كما نعتقد.

حاول صالح أن يعيده إلى الداخل حتى نجح في النهاية، وبمساعدة زهرة جلسوا إلى جواره في حجرة المجلس بينما مالك بدأ يشعر بالخطأ الذي ارتكبه، الرجل مريض للغاية، ماذا ستفعل معرفته من عدمها، إنه بالكاد يستطيع الوصول إلى باب داره!

كان يستند بكتا يديه إلى عصاه، وصالح يخبره أن الخبر غير مؤكد وأن سلام مشكوك بأمرها، وعندما نظر إليه مالك يعاتبه قال الشيخ نصر نافيًا:

- لا، هي لا تكذب... لقد رأتها أُمِّي في رؤيا وأخبرتني... لكنني لم أصدقها.

ضرب بكفه على مقبض العصا يؤنب نفسه، وهو يردف:

- قالت بأنها سجينَة قصر... رأتها تنادي على عمار لينقذها.

- عمار!

همس صالح بدهشة، فقال نصر وهو يومئ برأسه:

- نعم... عمار!

- إذن فسلام محقة؟

همس بها مالك، لكن صالح كأنه يحدث نفسه:

- لماذا لم تستنجد بجلال الدين مثلاً!

صاح نصر وقد نفد صبره:

- هل هذا هو المهم الآن يا صالح!

اقتربت زهرة بينما عقلها بالكاد يستطيع تقبل فكرة انتقالهم عشر

سنوات هكذا في لمح البصر، وقالت:

- اهدأ من فضلك يا شيخ... أنا سأذهب... سأعرف الحقيقة من قمر.

نظر إليها صالح وقال معترضًا:

- انتظري عودة عاصف من داو يا زهرة.

صمتت وقد حسمت قرارها، بالتأكيد قمر لن تؤذيها، وربما تستطيع

تهريب خديجة، قمر التي تعرفها ليست بهذا الشر، إنها أصلًا لا تصدق

أن ابنة الشيخ فاضل تدير الأنفاق التي تلهث الفتيات خلفها، تخرج من بيتها برداء القبيلة وحشمتها، تصعد به فوق منصة لترقص وتؤدي أشياء مخجلة، كل هذا لأجل ثمرة، وتعود إلى قبيلتها بعينين حالمتين، شاردتين في شيء جديد تقدمه في المرة لأخرى للحصول على المزيد.

تفاجأت قمر بزهرة أمامها في الأنفاق، تسير نحوها بخطوات وثيدة، وعينان مشتاقتان لرفيقة دربها، لقد تغيرت قمر كثيرًا، امتلأ جسدها ونحتت الصرامة أثرها على ملامحها، وتركت شعلة لا تزال لم تنطفئ في عينيها.

همست قمر بذهول:

- زهرة... ماذا جاء بك إلى هنا؟!

اقتربت زهرة منها وقالت بسخرية حزينة:

- أفعل ما تفعل الفتيات هنا يا خالة سعادة!

شحب وجه قمر، لا، ليس زهرة، اختنق صوتها، وهي تحاول أن تثبت عينيها في عينيها:

- زهرة... لقد كنت آخر من أردت أن أراه هنا.

تقدّمت زهرة أكثر، كأنها تقطع المسافة بينهما ببطء مقصود، وفي ملامحها خليط من لوعة وعتاب دفين.

قالت بنبرة تخفي ارتجافها:

- لماذا لم تبحثني عني كما بحثت عنك... بالتأكيد تصلك الأخبار هنا! ارتجفت شفتا قمر، وأحست بجدران النفق تضيق عليها، الذكريات تراحمت فجأة وتكالبت على صدرها كأشواك.

- لم يعد بإمكانني ترك هذا المكان.

- ماذا؟ هل أنتِ حبيسته أيضًا كخديجة!

ابتلعت قمر الغصة بحلقها وأطرقت، لم تكن تعلم أن نصر لا يزال يأويها في بيته، وأنها ستعرف عن خديجة هكذا ببساطة.

- لا تزالين تكرهين خديجة... صحيح؟

رفعت قمر رأسها بحدة، كأن الاسم صعن أنوثتها المجروحة، ارتعشت أنفاسها وهي تهمس:

- لم تعد مشاعري من شأنكِ يا زهرة... أنا تغيرت... تغيرت كثيرًا.

تقدمت زهرة خطوة أخرى مترددة، حتى صار وجهها على بعد أنفاس منها، تناولت كفها بين يديها، وقلت تناشد رفيقتها القديمة فيها:

- مهما تغيرتِ يا قمر... لن تكوني نائلة.

ارتجفت ملامح قمر، وتراجعت خطوة للوراء، الجدران تضغط عليها أكثر فأكثر، وصوت زهرة يتغلغل بقلبها كأنه صدى قديم، عاد ليحاصرهما من جديد.

- لا تخافي... لن تموت... ستخرج بومًا.

- متى؟ حين يموت زوجي!

تشنج وجه قمر للحظة، ثم أفلتتها كفيها كأنها لامست جمرة، وهي تهمس مذهولة:

- زوجكِ! من يكون؟

- أحد الذين تقومون باستدراجهم إلى هنا لقتلهم.

أطبقت قمر جفניה، تنهيدة طويلة نزلت من صدرها، في عينيها دموع حبيسة تتعارك مع غضب قديم.

سادت لحظة صمت ثقيلة بينهما، لا يُسمع فيها إلا همس أنفاسهما،
وقبل أن تتكلم، دوى صوت عابد من منتصف الممر ساخرًا:
- لقد تأثرت كثيرًا.

حين دخلت القابلة إلى الكوخ تفتّش عن سلام، وجَدَتها جالسة
أمام الموقد كعادتها في الآونة الأخيرة؛ ظلال اللهب ينعكس في عينيها
المكحّلتين حتى بدا أن من يحدّق إليهما لا يميّزها عن ليلي.
أقبلت القابلة نحوها ووقفت أمامها متسائلة بريية:
- أين قمر؟

رفعت سلام عينيها برتابة وحركت رأسها بلا مبالاة:
- ولماذا تسأليني؟

أعادت عينيها إلى النار، فجلست القابلة على مقعدها تنفّرس في
ملاحها المتغيّرة بين ليلةٍ وليلة، ثم سألت ثانية:
- ألم تخبريني أنك كنت معها في حجرتها بداخل الأنفاق.
قالت ببرود:
- كنت.

أمسكت القابلة ذقنها، وأدارت رأسها نحوها، وهي تقرب وجهها
منها، قائلة بخفوت صارم:

- لقد اختفت... وهذا لم يحدث قط منذ عملها بالأسفل... وحتى
ظهرت فجأة في حياتنا... وتقاربت معها.

خلصت سلام ذقنها من بين أصابعها بعنف، لكنها حافظت على
جمود ملاحها وهي تقول:

- ألم تدري يا خالتي... أنا شؤم على الجميع... دائماً ما أغير حياتهم للأسوأ.

قبضت القابلة على فكها بقوة، ثم نظرت في عينيها بحدّة قاسية، كأنها تقرأ ما خلف الصدأ، في عمق الجرح الغائر بداخلها، والذي يبدو أنه لن يندمل:

- لم تعيشي حياة مالك... لم تعرفي ما حلّ به: صبي يُجلد ويحبس ويُجوع على يد عائلته التي من المفترض أن تحميه... قضى سنوات صباه في قبو... يعيش على التفاح، ويصبح شبحاً تائهاً... سُلبت روحه بما زرعت فيه أمه المجنونة.

غامت عينا سلام، لكنها لم تبكِ؛ جمودها كان أقسى من الدمع، واصلت القابلة كلامها بصوتٍ متهدج:

- هل تعلمي أنني من قررت أن أخلصه من معاناته تلك؟
اتسعت عينا سلام بصمت، وهي تشعر بأن القادم أسوأ، بينما القابلة تقول:

- عندما طلبت مني أمه المجنونة أن أحرق القصر بعد العشاء... لأنها ستكون في القبو مع مالك... لكنني اخترت موعداً آخر... موعداً ربما يرحم ذلك الولد البائس من كل معاناته دفعة واحدة... خلصته من كل من آذوه وهم جلوس يتناولون ما يحرمونه منه.
همست سلام بصدمة:

- أنتِ من أحرقتِ القصر؟!
أومأت المرأة وهي تتابع بنبرة مثقلة:
- أردت أن أكفر عن بعض أخطائي الكثيرة بأن أساعد هذا المسكين، وأن أحرره من عائلة أسوأ من الشياطين.

انتفضت سلام واقفة، وهي تنزع جسدها نزعاً من أمام النيران،
وتدفع يد القابلة وتهتف:

- ولماذا تخبريني بكل هذا؟

- لتعلمي أن هناك من تعذب أكثر منك... عانى أكثر منك، عاش
وحيداً أكثر منك... لكنه لم يفكر في أن يؤذي أحدهم... حتى
عندما وجدك... كان يركك ويحميك... وعندما لجأ له جلال الدين
وفي يده زوجته لم يتأخر... وقام بحماية الجميع.

اتقدت عيناها حتى خيل إلى المرأة أنها أظلمت، بعد أن كانت زرقاء
صافية وصرخت:

- بما أنك تعرفين كل شيء وكنت تراقبينا... فمعل حق... لم يتأخر
وقام بحماية الجميع... أصبح له رفقة ولفظني... لفظني أنا... كل
مرة أنا... كل مرة أنا.

كانت تصرخ بلا توقف وهي تنهت والكلمات تتقاذف من عمق وجعها،
وفجأة شعرت بيد تقبض على شعرها من الخلف، ويد أخرى تصب
عليها الماء، كانت تشهق كأنها تغرق، لكنها ليست كشهقتها وهي ترى
مهاجمها... سلطان!

لقد استمع إلى كل ما دار بينهما، لا يفصله عنهم سوى باب الكوخ
الموارب...

وبعد أن أفرغ القنينة كلها فوق رأسها قذفها بعيداً، وبدأ يمسح
الكل من عينيها بقوة وهي تصرخ، بينما لسانه لم يتوقف لحظة عن
الهمهمة بالآيات حتى زال الكل تماماً... فرفع يديه عنها، وقد فقدت
الوعي.

كانت القابلة مبهورة الأنفاس وهي تشاهد ما يحدث، صدرها يعلو ويهبط كأنها كانت هي التي تتلمص بين يديه، وأخيرًا همست:

- أنت! ابن صخر العاصي!

قال على الفور كأنه يتبرأ من ذاك الذي علمه السحر يومًا:

- إنما أنا أخوها... لكنها لا تعرف.

حين خرج مالك يبحث عن زهرة بعد أن تفقدوها في الدار ولم يجدوا أثرًا، ففطنوا أنها نفذت ما باحت به أمامهم وذهبت إلى قمر- بينما عاد صالح إلى الجبل، وقد جن الليل ولم يعد هناك شكوك في مصير زهرة، لم تعد خديجة هي الأسيرة الوحيدة، وعاصف لا يمتلك الصبر الكافي حين يتعلق الأمر بزهرة.

لقد شُفيت على يديه بعد أن كان ميؤوسًا منها، كان خائفًا من أن تلقى نفس مصير والدته، تظل كئيبة حزينة مختبئة في الظلام حتى ينهشها المرض، ثم تموت في عتمة ركنها المفضل وحدها.

كان يأخذها إلى البئر خمس مرات في اليوم واللييلة، يجعلها تتوضأ منه ويصب عليها ويرقيها، لأسابيع، حتى توقفت عن محاولات قتل نفسها. ترك لها بومته تؤنس من وحدتها، تذكرها أن هناك من يهتم لأمرها، ليست وحيدة بلا عائلة، لم تفقد كل عائلتها كما كانت تظن، لا يزال الشيخ نصر يحتاج إليها- والجدة...وهو.

لقد حصلت على الأسباب التي حُرمت منها والدته لتعود إلى الحياة مجددًا! وما حسبه صالح وجده وأكثر، فعند عودة عاصف انقلبت الأمور رأسًا على عقب، وهو يسألهم:

- هل عادت وصال؟

عقد عمار حاجبيه وهو يقترب منه ببطء متسائلاً:

- ماذا تعني بسؤالك هذا... كان من المفترض أن تعودا معاً.

كان عاصف يلهث وهو يحرك رأسه نفيًا، ونظرات زائغة كأنه لا يزال يبحث:

- لقد اتفقت معها أن تذهب إلى صفية ونتلاقى في الليل عند بيت

عمار... لكنها لم تأتِ وعندما عدت لأبحث عنها عند صفية وجدت

أمها تفتقدها وتبحث عنها هي الأخرى... لم نعثر لهما على أثر.

تجمد ياسين في جلسته، وأمسك أنس بمرفقه وهو يقول بارتباك

خائف:

- ربما...

تلعثم، فصمت، لم يجد ما يقوله، إنهم يعرفون وصال كما يعرفون

أنفسهم، هي تصل في موعدها مهما حدث، تعلم أن تأخرها سيثير

الذعر ويجعلهم يتخلون عن حذرهم، لذلك تحرص على الوجود حيث تم

الاتفاق مهما كانت الظروف.

و ما زادهم خوفًا، ما قاله عاصف عن جلال الدين، ويتناقله الناس

فيما بينهم سرًّا، «لقد انطلق نحو التمثال بسرعة كبيرة كأنه لا يراه، لم

يحاول حتى جذب اللجام أو إنقاذ نفسه، كأن حواسه كلها مسلوبة منه،

كأنه مسحور».

ورغم أن عمار لم يكن يستطيع الجلوس ولا الهدوء، إلا أنه كان يفكر

بعمق ويتحدث إلى نفسه محاولاً تنظيم أنفاسه:

- لقد تكلمت الحاجة وسيلة في إحدى المرات... عن وشم كان على

بطن هند والدة جلال الدين وهي تلهده... ربما يكون هو السبب.

قال عاصف مقاطعًا أفكاره:

- لن أبقى هنا وأستمع إلى المزيد... زهرة رهينة لديهم.

ضربت الجدة الأرض الصخرية بعصاها وهي تنهره ليتوقف:

- لن يتحرك أحدكم من هنا حتى نتفق على طريقة آمنة نخلصهم بها.

ربط يحيى على كتفها وقال بجدية:

- لم يعد أماننا بدائل أخرى يا خالتي... سنتفق على طريقة...

وندعو الله أن يوفقنا... حتى وإن متنا... لسنا أغلى من نساءنا

السجينات لدى شياطين.

صرخة العقاب في الخارج كانت كفيلة بأن تُسكتهم، خرج عمار

على الفور لكنه توقف مصدومًا عند المنحنى المؤدي إلى مدخل الكهف
وهتف بذهول:

- سلطان...!

كان يقف في انتظارهم وبجواره تراصت صناديق البارود فوق

بعضها بعضًا، ابتسم سلطان وهو يمرر عينيه بينهم، فخرًا بهم، إنهم
القليل الذين أتى لأجلهم ليساندتهم فيما هم مقدمون عليه.

بسط كفه ليصافحهم وهو يقول ببساطة:

- لديّ خطة.

غزو النعيم

الغرفة تغرق في العتمة، لا تكاد ترى كف يدها، إنها مقيدة من يد واحدة إلى الجدار بقيد حديدي، طرق سمعها أنين آتٍ من مكان ما حولها... همست:

- من... من هنا؟

- قمر؟!

تحسست قمر رأسها متألمة، كان هناك جرح ما ينزف في رأسها، وبادلتها الهمس:

- زهرة... أأنتِ بخير؟

حاولت زهرة جذب القيد، وهي تسألها بخفوت:

- هل أنتِ مصابة؟ هل تعرفين أين نحن!

- أظن أننا في الغرفة العلوية في القصر.

ندت عن زهرة شهقة، وهي تبادلها الخفوت ذاته متسائلة:

- هل خديجة هنا؟!

- لا أعرف هل لا تزال هنا أم نقلوها إلى مكان آخر.

تعيد زهرة رأسها إلى الوراء، فتشعر بألم يوخز مؤخرة عنقها، لقد باغتها من الخلف، لم يعلم بأنها أضعف من ذلك بكثير، كان يكفي أن يصرخ بوجهها لتفقد الوعي في الحال.

أما قمر، فقد راحت تتحسس الجدار المتهالك، أصابعها تلامس عمودًا محترقًا من بقايا فراش قديم، في حين زهرة لا تكف عن جذب القيد الحديدي، عقلها يرسم أسوأ الصور لما ينتظرهما، فيعلو وجيب قلبها حتى تشعر بأن أنفاسها تمرُّ عبر ثقب إبرة.

- اهدئي يا زهرة... لا تخافي... أنا سأحميك.

قالتها قمر وهي تحاول حبس ارتجافة صوتها، لكن زهرة أجابت بمرارة:

- كيف ستفعلين وأنتِ مقيدة مثلي؟

تنهدت قمر، اليأس يغلف حروفها:

- لا أعرف...

لم تكد قمر تُنهي كلمتها حتى دوى صوتٌ صريرٍ حاد، كأن المفصلات تتنُّ تحت وطأة دفعٍ ثقيل، انفتح الباب ببطء، وانسكب خيط باهت من الضوء على أرض الغرفة المظلمة، كاشفًا الغبار المعلق في الهواء.

تجمدت أنفاسهما والتصقت زهرة أكثر بالجدار، بينما عين قمر اتسعت تحديقًا إلى الفتحة المشرعة.

خطوات بطيئة، متزنة، أخذت تتقدم ظهر بعدها «عابد»، قامته تُلقي ظلًا طويلًا يزحف إلى حيث يوجد، يستند إلى مقبض خنجره.

وقف عند العتبة، عيناه تتجولان في أرجاء الغرفة قبل أن تستقرا عليهما، ابتسم ابتسامة واهنة لا تصل إلى عينيه، وقال بنبرة رخيمة تحمل سخرية قاسية:

- آه... ثلاثة عصافير في قفص واحد!

الضوء الشحيح سقط على ذاك الجسد الممدد في ركن الغرفة، شهقت زهرة وأطرقت قمر شاعرة بالخزي!

- هل... هي ميتة؟

همهمت زهرة وقد تجسد الرعب في عينيها، وغلف حروفها المرتعشة.
قال عابد ساخرًا:

- لا تزالين طيبة يا زهرة... لم تفعل السنوات بكِ ما فعلته برفيقتك.
أغمضت قمر عينيها، لا تريد أن تواجه نظرات زهرة، ولا جسد خديجة
الشاحب، إنها ومنذ الكثير لا تستطيع حتى مواجهة صورتها في المرأة،
لكن ماذا تفعل، حياتها مقابل حياة خديجة، هكذا قالها عابد عندما جاء
بها فاقدة للوعي.

هي لم تعد تكرهها كما تظن زهرة، ولم يعد لديها الدافع نفسه
لانتقام كما يفكر عابد، هي فقط وجدت نفسها هنا، وليس لها مكان
آخر غير هنا... فبقيت.

كل يوم يمر يزرعها بين جدران الأنفاق، ويبقيها هناك، ذنب يعقبه
ذنب، خطيئة تتبعها خطيئة، تغرق حتى أذنيها، لم تعد تريد الخروج، لا
تريد مواجهة العالم، أصبحت غير قادرة على رؤية الشمس.

ولكي ترضي ضميرها، تدخل الغرفة مرة يوميًا، حريصة على ألا
تواجه عيني خديجة، تضع لها الطعام، وتطمئن أنها لا تزال تتنفس،
تتفقد القيد الحديدي والنافذة الخشبية المغلقة بعناية ثم تخرج.

وقبل بزوغ الفجر تستمع إلى استغاثتها، صراخها الذي يخفت شيئًا
فشيئًا حتى يصمت تمامًا، فتنهمر دموعها على وجنتيها وتدفن رأسها
في الوسادة وتذهب في نوم يشبه الموت.

ركلةٌ عنيفة على قدميها أعادتها للحاضر، تألمت ورفعت رأسها
نحوه، وهو يقول بغضب:

- ماذا؟ تفكرين في خيانتني مجددًا!

بادلته النظرات الغاضبة، وقد أفقدها ألم ساقها تعقلها وهتفت:

- هل فعلت كل هذا بي لأنك ظننت أنني أفكر في خيانتك!

قبض على خصلات شعرها التي تجمعها خلف رأسها، وجذبها بقوة
فصرخت وهي تسمعه يتكلم بنبرة تشبه الفحيح:

- لا أحتاج إلى الظن يا دميمة... أنا أعيش في أفكارك.

صرخت مجددًا، بينما هتفت زهرة بنبرة مرتعشة:

- اتركها يا عم عابد... أرجوك.

توقف، ثم انحنت شفتاه عن ابتسامة باردة قبل أن يضحك، ضحكة
ارتفعت حتى ملأت الغرفة، كان يكرر ساخرًا:

- عم عابد! تذكريني بجلال الدين... غبية مثله.

رفعت قمر رأسها، الدموع لطخت وجهها، شعرها انحلت صفائره
وصار مشعثًا، بدت كمن فقد عقله، خرج صوتها متكسرًا، وقد طعنها
بكلمة دميمة كما كان يفعل خاطر.

- إن كنت ستقتلنا فافعل الآن.

ابتسم عابد وهو يدور بين ثلاثتهما عاقدًا كفيه خلف ظهره، يقول
وهو يعقد حاجبيه قائلًا بعتاب مصطنع:

- لا يا دميمة... لا تفقدي صبرك هكذا سريعًا... اصبري حتى
يأتي الوفد الجديد ويأخذون مخلصهم معهم ثم يرحلون...
حينها سيكونون منشغلين جدًا بمحاولة إقناع العالم به... ولن
يكون أمامهم غيري لتولي أمر النعيم كله... القبيلة، داو... وقصر
الحكمة...

تقدم نحو جسد خديجة المسجى، وبكل حقد دفين رفس بطنها فتأوهت، تفتح عينيها بذهول، لا تقوى على رفع رأسها لتنظر إليه. وقد رسمت المعاناة لوحاتٍ فوق ملامحها.

ربط على وجنتها بقسوة وهو يردف:

- وقتها فقط يا ابنة نصر الراوي... سأجعلك تشاهدين أباك المتعجرف، مربوطاً في الساحة... يُذبح قرباناً لنيل رضاي بعد أن يُقبّل قدميَّ هو وكل شيوخ الرواة الحمقى.

استدار ببطء ليغادر، خطواته تزحف على الأرض كأنها تسحق ما تبقى من أنفاسهن، دفع الباب خلفه فأصدر صريراً كختم أزلي على مصيرهن لديه.

حل الصمت ثانية، لكنه لم يكن صمتاً عادياً؛ كان أثقل من أي صراخ، زهرة تتشبث بقيدها حتى كاد يقطع معصمها، وقمر تسحب أنفاسها بصعوبة، بينما جسد خديجة الممدد لا يزال يئن في الركن بكلمة واحدة: - أبي...

قمر أسندت رأسها إلى الجدار، دموعها لم تجف بعد، وجسدها يرتعش برداً أو خوفاً لم تعد تفرّق بينهما.

أغمضت عينيها ببطء، كمن يغرق في هوة، والظلام يبتلعها بلا مقاومة.

وزهرة ظلت تحرق إلى العتمة، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، لكنها لم تر شيئاً غير ظلال رعبها، حاولت أن تهمس لقمر، لكن الكلمات انكسرت في حلقها وصارت مجرد شهقة خافتة.

أما خديجة، فبعد أن انطفأ أنينها شيئاً فشيئاً، انسابت في صمت ثقيل يشبه الغيبوبة، بين اليقظة والموت.

لم يكن نومًا بالمعنى الحقيقي، نومٌ يشبه الغيبوبة، ثقیل كالحجارة، يسكن جفونهن المنهكة، ويترك الغرفة غارقة في عتمة أعمق.

- صفية... صفية!

اعتدلت صفية فزعة، بينما صوت وصال يصلها خافتًا مُلحًا، يناديها.

- هه... وصال.

جاءها همس وصال المقيدة إلى جوارها في ركن ضيق، السقف قريب للغاية من رأسيهما، ومساحته تسعهما بالكاد.

- أفيقي.

صفية رأسها يدور، لا تتذكر ما حدث، سقطت رأسها على كتف وصال التي حاولت تحريكها لتسترد وعيها سريعًا، وتهمس لها:

- صفية... تمالكِ نفسك لتساعديني... تنفسي بعمق.

مرَّ وقتٌ طويل مما أفقد وصال صبرها، كانت كقطة على صفيح ساخن منذ أن أفاقت ووجدت نفسها في مكان يشبه نهاية ممر ضيق تكاد جدرانه تطبق على جسديهما من شدة الضيق، كأنهما محشورتان في أنبوب.

تنظم أنفاسها حتى لا تختنق، وبين الفينة والأخرى تحاول أن تُفَيِّق صفية من غيبوبتها، عقلها يعمل بجنون بعد أن استردت كامل وعيها.

لقد كانت تنتظر صفية خلف دارها، وحين مرَّ الحراس بها على غير العادة حاولت أن تتصرف بشكل طبيعي وتنحني لتلتقط قربة الماء التي تضعها أرضًا، لكن وقبل أن ترفع رأسها هبطت ضربة مدروسة على

جمجمتها أفقدتها وعيها في التو، وعندما عاد إليها وعيها ووجدت صفية جوارها، لم تكن في حاجة إلى مزيد من شرح.
جذبت القيد بقوة وهي تشتم نفسها همسًا:

- يا حمقاء... كيف لم تنتبهي؟

حينها ارتجت الجدران، صراخ كالجحيم، صراخ لا ينتمي إلى بشر، صداه يتردد في الممر الضيق حتى تضاعف كالرعد، عويل مسعور، ممتد، يتقافز بين الحجارة ويعود إليهما مضاعفًا حتى كادت أذناهما تنمزقان.

استردت صفية وعيها دفعة واحدة، ودفنت رأسها في كتف وصال التي لم تكن بأحسن حال منها، وهي تحاول أن تسد أذنها من شدة الألم والرعب!

صرخة تتلوها صرخة، يتخللها أنين مكتوم، ورائحة احتراق بغیضة جعلتها تحاول كتم أنفاسها حتى لا تقيء.

- وصال... ما هذا؟

- ششش... اصمتي.

كانت تسمع كلمات مبعثرة، سبابًا غريبًا بلغة لم تعرفها، لكن نبرته توحى بالهلاك!

رفعت وصال عينيها صوب السقف المنخفض، قالت ببطء، وشفاتها ترتجفان:

- هذه الكلمات شيطانية.

وبمجرد أن لفظت الكلمة، ساد صمتٌ قصير، صمت مشؤوم، ثم دوى صراخ أعنف، هذه المرة مصحوب باهتزاز في الأرض، حتى سقط الغبار فوق رأسيهما، كأن المكان برمته يوشك على الانهيار.

ظلت صفية تدفع رأسها في عنق وصال تحاول الاختباء، هذه أصوات غريبة عليها، كل خبرتها في الحياة تدور بين بئر الماء، ومساعدة العجائز، ومحاولة الحفاظ على خطبتها من ياسين.

حتى رؤية الرمال السوداء لم تتعد لحظات، وفرت هاربة ولم تعد إلى الضفاف مجددًا.

تسمع عن اللعنات، وتشاهد النبوة يوميًا محفورة في كل مكان تذهب إليه، لكنها تظل مجرد أحرف، يحكي لها ياسين عن الصلوك، والحاكم وعجوز البركة، لكن عيناها لم تَرَ أيًا منها، تظل في عقلها مجرد حكايات، إما أن تسمع صوت شيطان يصرخ، يلفظ أنفاسه الأخيرة، فهذا يجعلها تموت فزعًا دون أن تنتظر للتأكد.

استمعت إلى صوت تكة فوق رأسها، فرفعت رأسها لتتظر، اتسعت عيناها وهي تجد كف وصال يتحرر من أحد القيود، وبين أصابعها دبوس للشعر، تحاول الوصول إلى يدها الأخرى.

أما في الأعلى، وعلى الفراش الوثير، انتفض جسد جلال الدين مذعورًا تحت وطأة الصرخات، فانقلب وسقط سقطة موجعة، ارتطم فيها أنفه بالأرض الملساء.

حاول أن يفتح عينيه، كان غارقًا في حلم وردّي كالعادة، قبل أن تُنتزع روحه منه انتزاعًا بتلك الأصوات المدوّية، لم يدرِ أكانت الغرفة هي التي تدور أم رأسه؛ كل ما شعر به أن الأرض تميد تحته كأمواج هائجة لا ترحم.

رفع رأسه مترنحًا، فإذا بعينه تصطدمان بظلّ داكن عند الشرفة؛ بومة ضخمة، واقفة بلا حراك، تحدّق إليه بعينين واسعتين كجمرتين تنوهجان، عيناها التصقتا بنظرتها كالمشود إلى هاوية.

جمع ما بقي له من أنفاس، وتحرك نحوها كأنه يزحف، لا يعلم كيف تمالك بعضاً من قوته ووصل إليها، ظَلَّتْ تحدّق بعينيها اللتين تزدادان اتساعاً، حتى شعر بأنه يُسحب إلى داخلهما.

وفي أعماق السواد، لمح وجهًا يعرفه... خديجة! جسدها هزيل مُسجى في ركن معتم، قيد حديدي يثقل معصمها، وشفاتها تتحركان برجاءٍ يائس تستنجد باسمه.

شهق جلال الدين، زحف على الأرض كالمحموم مقترباً أكثر من البومة، كأن قربه منها سيحررها من أسرها، لكنه كلما اقترب، تلاشت الصورة شيئاً فشيئاً، وحل محلها صورة لسلطان، ينظر إليه عبر عيني البومة، ويهمس له بصوت كالهسيس:

- اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ... الْحَيُّ الْقَيُّومُ...

هبط جلال الدين على ركبتيه، بينما صوت سلطان يصرخ به ليكمل هو الآية بنفسه، شعر بأن لسانه معقود، الخرس يملكه لكن ذاك الشعور بالخدر يتراجع، وقبل أن يتحرك لسانه دوت صرخة من خلفه، وحين التفت وجدها، تقترب منه دون أن تحرك قدميها.

صورة خديجة تنسلخ عنها، وتتبخر ببطء، بينما تظهر من خلفها صورتها الحقيقية، رفعت يدها لتقبض على عنقه، من الخلف لكن صرخة أخرى شقت السماء، وانقضّ جسد ضخم على وجهها، هي تبخرت في اللحظة ذاتها لكن لسان جلال الدين انطلق من معقله صارخاً بكل آيات التحصين متسع العينين، لا يمنح نفسه حتى فرصة الفهم أو الإدراك لكل التفاصيل.

ظل يصرخ بالآيات وهو يفر، لا يعلم إلى أين، سقط فجأة على ركبتيه بمجرد خروجه من الغرفة، شعر بشيء ما يتحرك في أمعائه.

انحني للأمام رغماً عنه وبدأ شيء ما يندفع من أحشائه عبر فمه إلى الخارج، ظل يتقيأ قطع تفاح أسود، يعقبها دم أشد سواداً، كأنه يتقيأ رمال الشاطئ الأسود كلها على دفعات، بينما تتراءى أمام عينيهِ صورُ لوالدته وهي تصرخ، بينما القابلة تخرج شيئاً من ملابسها وتلوّثه بدمائها ثم تجرح الطفل الوليد، وتقطر قطرات من دمه على نفس الخرقه البالية فامتزجت دماء الوضع بدمائه، بينما وشم كان مرسوماً على بطن أمه يتلاشى ويختفي كأنه لم يكن.

نجحت وصال أخيراً في فك قيود صفية، وأمرتها أن تتبعها، زحفتا كثيراً عبر السرداب الضيق الممتد، حتى همست صفية بإرهاق:

- وصال... لا أستطيع اللحاق بك.

دون أن تنظر وصال خلفها، همست:

- النفق بدأ يتسع يا صفية... تحلي بالقوة.

قالت صفية وهي تلهث:

- لماذا اخترتِ هذا المخرج بالذات... الآخر كان يبدو أكثر اتساعاً.

همست وصال دون أن تتوقف عن الحركة:

- أردت أن نبتعد عن طريق الصرخات المربعة.

وبالفعل، السرداب بدأ بالاتساع رويداً رويداً، حتى استطاعتا الوقوف،

جذبتهما وصال من مرفقها وهي تهمس بوجه محققن:

- اركضي.

حاولت صفية مجاراتها، وكلما أرادت الوقوف والاستسلام، تجد جروح مرفقي وصال وركبتيها تنزف لكنها لم تتوقف لحظة، كيف لها بمجارة ابنة الجبل.

خفت وصال من سرعتها وهي تشير إلى صفية بالتوقف، صدرها يعلو ويهبط بقوة، تقاوم الدوار، لا رفاهية لفقدان الوعي الآن. أشارت إليها بأن تلتصق جسدها بالجدار الصخري، أمسكت يدها وجرتها خلفها ببطء، إنه مدخل كهف، وهي أكثر من يعلم مداخل الكهوف.

لو صدق حدسها فهما الآن يعلوهما منتصف قصر الحكمة، حيث قاعة الحكم، ولو كان كذلك فهما قريبتان من الباب الخلفي حيث ساحة القصر الخلفية.

الكهف كان مظلمًا إلا من شعلة ضعيفة تلقي ظلالها على الجدران، فتزيدها رهبة، أشارت لها أن تصمت وتتبعها فقط.

تحركت وصال ومن خلفها صفية، تمسك بها كأنها أمها، يتحركان ببطء حذر، بينما شفتا وصال تتحركان دون همس بالآيات والذكر، حتى وصلتا إلى منتصف الكهف تقريبًا، وعند القلب تمامًا كانت صخرة كبيرة مستقرة هناك.

التفت وصال من خلفها لتصل إلى الطرف الآخر، لكن تحرك صرير مفاجئ لقيود حديدية جعلها تتجمد للحظة، وحين توقف الصوت تابعت التحرك تتقدم للأمام، وهي تشعر بأن قلبها سيخرج من صدرها للتو من شدة الخوف.

عاد الصرير مجددًا، فتوقفت، نظرت إلى صفية تشير لها أن لا تتحرك، تركت يدها وألصقت نفسها بالصخرة، كانت تريد فقط أن تصل

إلى ما خلفها، أن تنظر نظرة واحدة لتعلم السبب، شخص ما أو شيء ما مقيد هناك.

وصلت إلى النقطة التي حددتها لنفسها، وأطلت، لم تطمح بأن تطل برأسها كله، كانت تريد نظرة فقط لترى ماذا يوجد خلف الصخرة.

لو كانت فتاة أخرى غير وصال لملأت الدنيا صراخًا، ربما هذه إحدى فوائد نشأتها في جبل له سكان من عوالم أخرى كجبلهم، لكنها لم ترَ طيلة حياتها شيئًا بهذه البشاعة.

وضعت يدها على فمها تكتم شهقة كانت ستفصحها وهي ترى ذلك الجسد الضخم للغاية، والمقيد بأغلال أشد ضخامة منه، شعره أجعد كأن رأسه شجرة! بين الفينة والأخرى يحرك يديه كأنه يختبر صلابتهما، حركة رتيبة كمن فعلها من قبل ملايين المرات!

ينظر أمامه بسكون شديد وصمت مطبق حتى ظنت أنه لا يتنفس، وجهه مغمور في العتمة فلم تتمكن من رؤية ملامحه.

في طريق عودتها كادت أن تصطدم بصفية، لكنها توقفت وجذبتها للطريق الذي حددته من قبل للخروج من الباب الخلفي، الصرير مجددًا، الشد، الاحتكاك بالصخور، ثم السكون!

لقد ظنت للحظة أنها نجحت في الخروج أخيرًا بعد أن عبرت الكهف، ووصلت إلى السرداب من الاتجاه الآخر، جذبت صفية وسارعت حتى وصلت إلى نهايته، لكن الباب الخلفي كان موصدًا.

حاولت النظر بين القضبان الحديدية، لكن أصوات تفجيرات قريبة جعلتها تتراجع جاذبة صفية معها للخلف.

همست صفية مرتعشة:

- ماذا يحدث؟!

أجابتها وصال بدهشة:

- تبدو كحرب.

لم ينقض عُقاب واحد، بل امتلأت السماء بالعُقبان الصارخة، تشق سماء داو فوق قصر الحكمة، بينما أهل داو يركضون في الأزقة يبتعدون قدر الإمكان عن السوق والساحة والقصر.

هناك بدأ قتال من نوع آخر لا يعتمد على العدد، الهواء مثقل برائحة النار؛ كلما علت أصوات الانفجارات، تصدَّع سور حدائق النعيم، وبدأ يتهاوى شبرًا بعد شبر، فسقط الغبار كغلالة رمادية تغطي وجوه الحرس من حولها.

تأهب الحرس للدفاع عن الحدائق حتى وإن سقط السور؛ يفدونها بأرواحهم.

وعندما استلُّوا السيوف، أوقفهم قائدهم وهو يشير بيدٍ ترتجف هلعًا، ويهتف لزملائه:

- انظروا!!

كانت هناك معركة غريبة تدور أمام أعينهم: عمار يرفع سيفًا إلى الأعلى ثم ينزله على كتف أحد الجنود وهو يهتف باسم الله الحي القيوم. وما إن يلمس الحديد كتف الجندي حتى يتساقط زِيُّ الحرب ويخرج منه دخانٌ أسود كثيف، له رائحة آسنة.

تكرَّر المشهد أمام حرس السور: عمار ويحيى وياسين وصالح وأنس يتقدمون راكضين نحو جنودٍ تميَّزت خوذهم الحديدية بريشة

حمراء، تلك الخوذ التي تُخفي وجوههم دومًا حتى عن زملائهم؛ وما إن تلمس السيوف أكتافهم حتى يتبخرون على الفور.

هتافات خمستهم بالآيات تصدح فتقشعر أجساد الحرس، وينظر بعضهم إلى بعض بذهول كأن وعيهم يعود إليهم بعد غياب طويل، لقد كانوا قد تَشَكَّكوا في السابق بشأن هؤلاء الجنود أصحاب الخوذ، لكن الحقيقة صدمتهم بينما المستحيل يحدث أمام أعينهم.

رمش قائد الحرس عدة مرات يستعيد عقله المنهوب، وصرخ في زملائه:

- تفرقوا... ابحثوا عن عائلاتكم واحمؤهم... خذوهم بعيدًا.

وفي الخلفية، ومن بين الغبار المتناثر في كل مكان، شق سلطان طريقه تجاه القصر، وصرخات العقبان تعلو كأنها تذلل له الطريق.

بينما نداءات قائد الحرس تتردد وتعلو، فتنقلها مجموعة إلى أخرى، حتى وصلت للجانب الآخر من السور، جهة القبيلة، فأوقفت معركة ضارية كانت تدور هناك، بين عاصف ومعه ثلاثة من صحبة الكهف، ورجال من القبيلة هبوا لنجدة ابنة شيخهم الذي يحتجزها خادمهم!

هكذا رسم يحيى الخطة بتوجيه من سلطان؛ رجال القبيلة كانوا خيارهم الأول لتكثير أعدادهم، ولقد نفذ نصر الراوي دوره في الوقت الذي تم تحديده، والذي يتزامن مع صوت التفجير.

وقف في سوقهم يطلب النجدة لتحرير ابنته التي لم تغرق، بل كانت كل هذه السنوات أسيرة خادمهم، كان نصر يعرف أن الحمية ستأخذهم، ولن يفكر الشيخ سليمان كثيرًا قبل أن يأمر الرجال بحمل سيوفهم وعصيائهم والتوجه إلى قصر صقر القاسم الذي يبدو أنه يسهل المهمة عليهم وقد انهارت أسواره.

لم يكن نصر فقط هو من ينفذ دوره بتفانٍ.

كانت سلام أيضًا تفعل، وهي ترشدهم إلى طريق داخلي عبر الأنفاق بسرعة وحماسة كأنها قائدة كتيبة، بينما صدى حديث سلطان معها في كوخ القابلة يتردد بداخلها فيشعل حماسها.

حين أمسكها سلطان من كتفيها، ونظر إلى عينيها بقوة وهو يخبرها بأنه أخوها، بأن خطأ أمها الوحيد في هذه الحكاية، هو أنها ذهبت إلى والده ليطلب من الأسياد أن ترزقها بمولود، فلقد جفَّ رحمها بعد إنجابها ابنتها الأولى ليلي لسنوات، لكنه خدعها وسحرها، فلم تدرِ بما حدث معها في مخدعه.

بعد أن أنهى كلامه بكت كثيرًا، وأخذت تشهق وهي تنظر إليه من خلف غلالة دموعها، لقد كانت نتاج طقس شيطاني، ربما أمها لم تدرِ حينها، لكن شيئًا ما بداخلها جعلها تكره سلام، هل لذلك كانت تخبرها بأنها شؤم، تضربها بعنف، تحب ليلي أكثر منها؟!!

هزها سلطان بقوة لتعود إليه من أفكارها، وقال بحنو:

- لم تكوني يومًا وحيدة يا سلام... أنا كنت أعرف أنك بداخل قصر صقر القاسم في حماية مالك... كنت أعرف أن هذا الفتى سيحميك وستجدين في قصته ما يُضمد جروحك... لكن على الأغلب أنتِ لم تكوني في حاجة إلى رجل يحبك بقدر ما كنتِ بحاجة إلى عائلة تضمك وتسند ظهرك وتتقبلك... وأنا الآن عائلتك... أنا أخوكِ.

شيء ما في أعماقها بدأ يهدأ، جرح ما بدأ يلتئم، وفراغ في روحها بدا كأنه يمتلئ أخيرًا، امتدت يدها بارتجاف حتى لامست كفه، فاجتذبتها إليه واحتضنها، مسح على شعرها وهو يرقبها بصوتٍ خافت، بينما جسدها يرتجف بين ذراعيه، تتشبَّث بعباءته كما لو كانت تخشى أن تفلت من دَفِّ انتظرتة عمرًا.

لقد قال إنها أخته... هكذا فقط!
بكلمة واحدة انكسرت الوحشة، واندمل النزيف القديم.
بكلمة واحدة شُفيت جراحٌ عميقة...
فقط لأنه أخوها!

أما في الساحة الكبرى، وبينما كانوا يتقدّمون نحو القصر، كان يحيى يلهث، يحمل عصاه الخشبية كمن يتمسك بآخر ما تبقى من عزيمته، يجرُّ أنفاسه بصعوبة لكن عينيه تشتعلان بإصرارٍ غريب.
إلى جواره أنس، يقاتل بحدّة لا تشبهه، كأن شيئاً في أعماقه قد استيقظ فجأة بعد طول سبات.

خلفهما كان عمار وصالح يسندان ظهريهما إلى بعضهما بعضاً، يتبادلان الحراسة والغطاء كأنهما جناحان لجسدٍ واحد، لا يسمحان للغبار أن ينال من رفاقهما.

واندفع ياسين وحده نحو بوابة القصر، سيفه يلمع في الضباب الكثيف، يضرب المزلاج الحديدي بكل ما أوتي من قوة، ومع كل ضربة كانت تتردّد أصوات غريبة من حوله، كأنّ الجدران نفسها تصرخ، تتداخل صرخات العُقبان بصرخاتٍ أخرى تأتي من العدم، صدى بعيد لعوالم لا تُرى.

وأخيراً، انكسر المزلاج بصوتٍ حادٍّ كأن القصر نفسه تنفّس بعد طول حبس.

لم يجدوا الحرس بالداخل، فلقد كانوا يشاهدون ما يحدث عن بُعد، وضربتهم نفس الصدمة التي ضربت حراس الأسوار، حين سقطت خوذ

رفاقهم الحديدية على الأرض، فارغَةً، بلا أجساد داخلها بينما دخان
يثير الغثيان يتصاعد!

تراجعوا خطوةً إثر أخرى، أعينهم تتسع رعبًا، يتبادلون النظرات في
ذهولٍ لا كلام بعده، ثم التفتت أعناقهم نحو الداخل، نحو القصر المظلم
كأنهم يتساءلون في صمتٍ خائق: من كُنّا نحرس إذن؟!
هدر عمار يصيح بهم:

- إلى الداخل.

لقد التزموا بالخطّة تمامًا، لم يوجهوا ضربة تجاه الجند أو الحراس
الحقيقيين، لم يأتوا لحرب هؤلاء الذين غُيبَت عقولهم بالسحر، وسلطان
كان كفيلاً بأن يُعيد لهم وعيهم ليشاهدوا حقيقة ما يدور حولهم قبل أن
ينغمسوا في الاشتباك.

كانوا يقاتلون وهم يعلمون أن ما يواجهونه ليس لحمًا ولا دمًا، بل
شيئًا خلق من الظلال التي كانت تحرس هذا المكان.
تقدّموا وسط الدخان والرماد، في قلب الساحة الأمامية للقصر، كانت
الأرض تهتز كأنها كائن حي يئن.

خرج جلال الدين من القصر يترنح، قميصه مُلطخ بدماء القيء حتى
يظن من يراه أنه مذبوح من الوريد إلى الوريد.

كانت وجهته باب القصر ولم يشعر بالدهشة وهو يرى البستان تذبل
أزهاره وتموت، والأشجار تتساقط أوراقها ويصفر لونها وتبتلع الأرض
المياه العذبة فتجف في لحظات معدودة كأنها لم تجر يومًا.

ما جعله يتوقف حقًا هو رؤيته لسلطان وهو يقف أمام عجوز البركة الذي كان يتجه نحو جدول الماء، والذي جف وتغير لونه وصارت مياهه كالمستنقع بعد أن قتل عابث في محبسه وبين قيود النار التي صهرت هيئته المتجسدة وأذابتها، لقد نال العقاب الذي وُعد به من قبل.

يقطع عليه سلطان الطريق، وعندما اقترب جلال الدين فهم ما يدور. كان سلطان قابضًا بقوة فوق كف العجوز الممسكة بمقبض عصاه، يشد على قبضته فلا يمنحه الفرصة للخروج من هيئته التي يتجسد فيها، يحبسه في صورته البشرية، ويتلو الآيات.

بينما العجوز لا يُظهر أي تأثر وهو يقول ساخرًا:

- هل نسيت يا سلطان؟ أخبرتك من قبل أنني أخدم الخوف.

لكن سلطان لم يتوقف عن الترتيل وعجوز البركة يضحك، ويوجه كلامه إلى جلال الدين ويقول:

- لا تظن يا ابن الراوي أنك نجوت... فأنت موصول بالسيد... دمك مرصود منذ ولادتك.

تقدم جلال الدين نحوه، وهو ينظر إلى سلطان الذي بدا كأنه منعزل عن كل ما حوله، ويستمر بالقراءة.

- لماذا فعلتم هذا بأمي... لماذا أنا؟

خيل إلى جلال الدين أن عجوز البركة جسده يتماهى، ثم يعود ظاهرًا مجددًا ويقول ضاحكًا:

- صديقك المخلص عابد قدّم دمك لنا قريبًا... لنفتح له الكنوز.

يعود جسده يتماهى وهو ينظر إلى سلطان، يحدق إليه كأنه ينوي القفز داخل عينيه، وهو يهمس له:

- هكذا أنتم يا بني آدم... ثم في النهاية تحرقونا نحن.

قالها وتعالَت ضحكاته دون توقف، وكذلك سلطان صوته يعلو بالتلاوة والعصا تهتز بقوة أسفل قبضته «إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ».

رفع عجوز البركة ذراعه الأخرى إلى الأعلى، باسطاً كفه إلى الأفق محاولاً استدعاء أعوانه، بينما العقبان تدور من حولهم على ارتفاع منخفض يبسطون أجنحتهم الواسعة، صوتهن يشق الأفق، فتتفرق الأعوان وصدى أصوات الضباع المتباعد يرنجُ الساحة قرب بوابة القصر! وجلال الدين يحاول تثبيت قلبه وقدميه، وهو يمد يده إلى سلطان، فيقبض الأخير على كفه دون أن ينظر إليه هاتفاً بقوة: «قَالَ فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ» (٢١) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٢٢)».

ظل عجوز البركة رافعاً يده إلى الأفق، بينما الدخان ينبعث من أركانه التي تموج وتتماهى وهو يصرخ: «أنا... أشمداي».

أما هناك، في قبيلة الرواة، كان عابد يندفع صاعداً نحو الغرفة العلوية ومعه رجاله المقرَّبون، بينما أصوات العراك بالخارج تصل إلى مسمعه، لم يعد لديه الآن سوى أن يستخدم الطقوس، ليجمد من سيحاولون الاقتحام فيستطيع رجاله قتلهم ببساطة.

هتف برجاله بصوتٍ نافذ الصبر:

- ليس لدينا وقتٌ كثير! علينا اللحاق بالقارب قبل أن يتحرك الوفد! اندفع إلى الداخل، فوجدهن على حالهن في الأصفاد، السكون يخلق المكان، فكَّ قيودهن وجمعهن في دائرة رغماً عنهن، بينما انهمك رجاله

في تجهيز الطقوس، رسم دائرة بالرماد حولهن، وأشعل الشموع واحدة تلو الأخرى، ثم بدأ بخط الرموز على الأرض... لكن الشموع خبت دفعة واحدة.

صاح غاضباً:

- أشعلوها!

وحين فعلوا، انطفأت من جديد، كأن شيئاً يتنفس داخل الغرفة، التفت حوله بعينين محمومتين، وصوته يرتجف غضباً وخوفاً:

- كيف دخلتم؟! المكان حصين!

انكبَّ على الأرض يحاول إشعالها مرة ثالثة ورابعة، لكنها كانت تخبو كلما اقترب منها اللهب، كأن الظلام يبتلعها عمداً.

بدأ يفقد أعصابه وأصوات الاقتحام تقترب للغاية، والارتباك يلتهم كلماته، ما يحدث في داو قلب حساباته كلها؛ الجميع ظنَّ أن البداية ستكون من هنا، بمحاولة تحرير خديجة وزهرة وقمر، لكن أولئك الملاعين قلبوا الجزيرة رأساً على عقب، فجَّروا الأسوار، وحركوا ما لم يكن يُفترض أن يتحرك، هناك قوة أخرى توازي قوتهم... وربما تتفوق.

صرخ وهو يجذب خديجة من معصمها بعنفٍ، ويدفعها خارج الدائرة وقد انتهت حيله:

- أحضروهما معنا!

كانت خديجة أضعف من أن تقاوم، كورقة في مهبِّ الريح، لو أنها فقط أكلت شيئاً من تلك الكسرات اليابسة لربما استطاعت أن تصرخ، لكنها الآن حتى على الصراخ عاجزة.

هبطوا الدرج الطويل الذي بدا كأنه لا نهاية له، خطاهم تتردد كالرعد في جوف النفق، حتى بلغوا الباب الخلفي، نفس الباب الذي خرج منه

الوفد منذ لحظات متجهين نحو ضفة داو ليتحركوا بقاربهم نحو المركب التي تنتظرهم خلف قصر الحكمة.

لكن القابلة كانت هناك تسدُّ الباب بجسدها الضخم، وعيونها تشعُّ كالجمر، تقول بكرهٍ ملأ عينيها وصوتٍ غليظ:

- لن أدعك تأخذهم، يا عابد.

تقدّم نحوها غاضبًا، قبض على حافتي ثوبها بعنفٍ، وهدر صوته كالبرق:

- ابتعدي عن طريقي، يا زبيدة!

قدم نحوها ببطء، لكنّها لم تتحرّك قيد أنملة بدت كجدارٍ صخري يسدُّ الطريق، رفعت رأسها نحوه، وعيناها تتوهجان كمن يشعل فيهما غضب السنين.

قالت بصوتٍ متهدّجٍ، يتكسّر بين كل كلمة وأخرى:

- لن أدعك تأخذهم... يكفي ما جعلتني أفعله بـ هند في الماضي... كل ذلك فقط لأجل أن تفي بوعدك وتزوجني!

اقترب منها عابد خطوةً أخرى، صوته ينخفض فجأةً، يحمل صدى ماضيه:

- اسكتي يا زبيدة... هذا ليس وقت النواح على الماضي.

لكنها تقدّمت خطوة، كتفاها تهترآن، ودموعها تلمع فوق وجنتيها:

- لقد جعلتني أعيش في قذارتك كل هذه السنين!

لطمها بقوة، ارتدّ رأسها للخلف مصطدماً بالباب الحديدي، وفي اللحظة نفسها انفتح بعنف الباب الخفي الذي يفصل حجرة قمر عن بهو القصر، واقتحمه عاصف ومالك يتبعهما ثلاثٌ من رفقاء الجبل ومن

خلفهما رجال من القبيلة يشهرون سيوفهم وقد انتقدت أعينهم حين رأوا ابنة شيخهم بين يديه فاقدة لقواها شاحبة كالأموات.

اندفعوا إلى الداخل كأنهم خرجوا من رحم العاصفة نفسها، والسيوف في أيديهم تلمع كشرر في الظلام.

حينها احتفى خلف جسد خديجة المتهاك التي يسندها بكتلتا ذراعيه، والتفت إلى زبيدة، وقال هامسًا بعنف:

- ابتعدي عن الباب.

قالت وجسدها كله يرتج غضبًا بينما تنزع خنجره من حزامه صارخة:

- لن تهرب يا عابد.

تجمدت نظراته عليها، ثم خفض بصره إلى صدره، حيث انغرس خنجره عميقًا في قلبه، سقط متهاويًا، مضرجًا بدمائه، بينما تلقفت زبيدة جسد خديجة بين ذراعيها.

كانت سلام تنتظرهم داخل غرفة قمر بعد أن أرشدتهم إلى هذا الباب الخفي الذي يؤدي إلى الدرج، ومنه إلى الغرفة العلوية، وعندما اتخذت قرارها وعبرت خلفهم، وقع بصرها على جثة عابد ممددة عند أقدام المرأة، التي كانت تحديقًا إليها بذهول، كأنها لا تصدق أنها هي من أزهرت روحه بيديها، وقمر وزهرة يندفعان ليسندا خديجة قبل أن تسقط وقد استسلم من كانا يأسرانهما.

فلقد كانت زبيدة تبدو كأنها موشكة على الموت، وهي تُهمهم بنظرات زائغة:

- وإن أزهرت روحه الآن... فقد ظلَّ هو يزهرق روي مرارًا طيلة سنوات عمري.

منذ أن كانت شابة غضة تتعلم من أمها أسرار المهنة، دخل حياتها كرجل وحيد منكسر، قال لها إنه وحيد مثلها، لا عائلة له، وإن آل الراوي لا يرويه سوى خادم صغير عند أعتابهم.

قال إنهما معاً يمكن أن يصنعا حياة جديدة، يجمعان المال، ويتركان كوخ أمها الضيق ليبنيا بيتاً واسعاً، تكون هي سيدته كما يليق بها، لم تدرك وقتها أنها كانت مجرد أداة في يده، يُسيّرُها حيث يشاء، وأنَّ وعوده لم تكن سوى طعم يُحكم به قبضته عليها.

وليت كل ما فعله أتى عليه بنفع، فقد خسر في النهاية كل شيء؛ طُردوا من أرضهم، وتركوا وراءهم الذهب والكنوز، جاؤوا إلى داو، ولكل عائلة دارٌ ومسكن، إلا هي وأمها، شيدتا كوخاً حقيراً عند أطراف المدافن. حتى اسمها تلاشى مع السنين؛ لم تعد زبيدة، بل صارت تُعرف فقط بـ القابلة... وكفى.



صاح عمار وهو يوجّه حديثه إلى ياسين:

- هناك صراخ عند الباب الخلفي للقصر.

وصال وصفية كانتا تصرخان بكل ما في صدريهما من فزع، لعل أحداً يسمع، بينما تلتفتان وراءهما برعبٍ متزايد، خاصة وصال التي أخذت تستمع إلى صريرٍ يعلو وصوت قيودٍ تتكسر شيئاً فشيئاً.

اندفع عمار نحو الباب وهو يأمرهما بالابتعاد، لم تحتمل الأقفال أكثر من ثلاث ضربات بالمعول حتى تكسّرت دفعةً واحدة، ما إن فُتح الباب حتى اندفعت وصال إلى الخارج تتشبّث بقميص عمار وهي تهتف:

- بالداخل... هناك مسخ في الداخل!

قال عمار بحدة:

- تعنين شيطاناً؟

هزّت رأسها بعنف، تتنفس بصعوبة وتشير بيدٍ مرتعشة نحو عمق السرداب، حيث الكهف المظلم:

- لا... لا إنه بشري، لكنه... لكنه يبدو كمسخ!

كانت تلهث، وعيناها تتسعان كمن يرى الرعب ماثلاً أمامه، قال يحيى وهو يربت كتفَي عمار وياسين:

- ابقيا مع وصال وصفية، سأذهب لأرى.

واندفع إلى الداخل بحذرٍ تتبعه ظلال صالح وأنس، تمسكت وصال بمرفق عمار وهي تحاول أن تجمع أنفاسها المبعثرة:

- هل... هل وجدتم جلال الدين؟

لم يُجبها أحد، لكن الأربعة رفعوا رؤوسهم في اللحظة نفسها حين دَوَّى في السماء صوت العُقاب، صرخة طويلة شقت الصمت فارتجّوا لها جميعاً، تبعوا مصدرها بخطى متسارعة حتى بلغوا باب القصر.

صرخت صفية وهي تشير إلى المشهد أمامهم:

- الدماء...

كان قميص جلال الدين تتناثر الدماء فوق صدره، بينما يقف سلطان ممسكاً بعصا عجوز البركة بيد، واليد الأخرى تطبق على يد جلال الدين، كأنما تنتزع منه شيئاً، عند أقدامهما تكومت ثياب العجوز، محترقة، يخرج منها دخان أسود نتن الرائحة.

اقترب عمار بخطوات حذرة، عيناها معلقتان بجلال الدين في دهشة لا تقلُّ عن دهشة ياسين الذي وقف إلى جواره. همس له:

- لقد ظنناه جاسوساً... لكنه كان هو!

تقدم عمار أكثر ووضع يده على كتف جلال الدين، فانتفض الأخير
كمن عاد من غيابٍ طويل، التفت نحوهما حاجبيه معقودين، بينما
اتسعت ابتسامة عمار وهو يغمغم بصوتٍ متهدّج:

- كنت أعلم أنك حيٌّ يا أستاذ.

ابتسم سلطان الذي بدا كأنه جرى مئات الأميال دون توقف، وهو
يتفحص ثياب العجوز بعصاه، قائلاً موجّهاً حديثه إلى جلال الدين:

- عمار... وياسين.

وفي تلك اللحظة، ظهر صالح وهو يهرول تجاههم، وجهه شاحب،
عيناه متسعتان ذهولاً وهو يشير إلى الداخل بينما لا يستطيع التقاط
أنفاسه، تمتم سلطان بدهشة:

- ما بك يا صالح؟!

توقف صالح هو ينحني مستنذاً إلى ركبتيه، لكن الانفعال لم يدعه
يجمع أنفاسه، وقف وهو يتمسك بجلال الدين وهتف:

- يحيى وأنس... كان هناك مسخ في الكهف.

لم يفهم جلال الدين شيئاً، لكن سلطان اقترب منه وهو يسأله وقد
اتسعت عيناه:

- هل تكسرت أغلاله؟!

ابتلع صالح ريقه وهو لا يزال يلتفت إلى الخلف ثم إليهم، لا يدري
كيف يعالج ذهول رؤيته لجلال الدين وقد أدرك أنه هو الذي ظنوه
جاسوساً من قبل، أم يصدق ما رآه داخل الكهف!

- هل قتلها؟

صاح به سلطان فحرك صالح رأسه نفيّاً بينما صدره يعلو ويهبط
بعنف، لم ينتظر عمار وياسين أكثر من هذا، تحركا فوراً مسرعين نحو

الباب، عبراه وتبعهما جلال الدين وسلطان الذي أمر وصال وصفية أن ينتظرا في الخارج.

صالح كان خلفهم جميعاً وقد آلمه صدره وصوت أنفاسه تملأ الفراغ بين جدران السرداب، عند نهايته قال بحروف متعثرة:
- هذا هو الكهف.

كان الكهف فارغاً، الأغلال الضخمة مرتمية أرضاً، والشعلة الضعيفة لا تزال ظلالها تتراقص على الجدران كأنها تحتفل!
أشار صالح نحو مخرج منخفض وهو يقول مرتعشاً:
- عندما وصلنا كان يخرج من هنا.

أغمض سلطان عينيه، وقد أدرك ما حدث، هو الوحيد الذي يفهم، لذلك تقدمهم وانحنى، المخرج منخفض لكن فتحته كبيرة تكفي ليمر جسد ضخم جاثياً على ركبتيه.

عبر سلطان وهم من خلفه، كان هناك جسر خشبي سقطت حافته يصل بين المخرج والبحيرة التي ما عادت بحيرة، بدت كمحيط متسع، بينما الضفاف بدت كأن طبقة الرمال السوداء المحيطة بها تغوص، كأن الأرض قد سئمتها وأرادت أن تبتلع خطيئتها الأخيرة، كانت تنسحب في دَوَامٍ خافتة، يعلوها بخارٌ رقيق تفوح منه رائحةٌ رماذٍ قديم، والريح تدور حولهم بهسيسٍ مريب، كأنها تُنذر بأن النهاية لم تكتمل بعد.

أشار صالح بذراعٍ مرتجفة نحو المركب التي كانت تبتعد وسط الضباب، وصوته يتهدج:

- المسخ! كان يعتلي سطح المركب، والنساء ذوات الأوشحة السوداء يمددن أيديهنَّ نحوه، كأنهنَّ يحمينه أو يباركن صعوده!

اقترب عمار خطوتين، عيناه تلاحقان الظل المتهادي فوق صفحة الماء وهو يقول بقلب يخفق خائف، وعقل يعرف كيف يفكر يحيى:

- ويحيى... وأنس؟

- يحيى قال إنه عرفه، وإنه لن يتركه ليفتن الناس من جديد، كان الجسر ينهار، والنساء قد انشغلن بمحاولة تثبيت المسخ كي لا يسقط، وفي تلك الفوضى اندفع يحيى متسللاً نحو المركب، وتبعه أنس، تسلاً إلى بطنها قبل أن يبتلعهما الضباب... تأخرت عنهما لحظات فقط، وحين هممت بالتسلل خلفهما، التفتت إليّ إحدى النساء، حرّكت شفّتيها بكلماتٍ لم أفقهما، لكنها دفعتنني بعيداً... ألقّت بي عند مخرج الكهف مجدداً... وسمعت زئير المحرك.

هتف عمار وهو ينظر إليهم:

- دعونا نلحق بهم.

قال ياسين وهو يزفر بقلب مرتجف:

- كيف... حتى وإن وجدنا قارباً صغيراً... فلن نلحق بمركب كالتي يصفها صالح.

هتف عمار وهو يراقب المركب التي اختفت في الأفق:

- كيف تركهما هكذا ببساطة... لا بد وأن نجد طريقاً لنلحق بهم ونتخلص من هذا المسخ الذي تتكلمون عنه.

اقترب منه سلطان وهو يربت كتفه مهدئاً قائلاً بغموض:

- سيُقتل يا عمار... لكنه ليس مقدر لنا أن نكون نحن قاتليه.

كان جلال الدين عاقداً حاجبيه يتابع بعقل مشوش كل ما يدور، عيناه زائغتان في الأفق البعيد وهو يهمس:

- يحيى... أنس!

الخاتمة

ارتمت خديجة في حزن أبيها نصر الراوي، دفنت نفسها فيه وقد ذرفت الكثير من دموع قلبها، أما هو فلقد كان يغلّق عليها قلبه قبل ذراعيه، إنها خديجة، نبض ما تبقى من عمره... ابنة أبيها.

لم تمت، لم تذهب في العاصفة، حكوا له حكايات كثيرة لم يفهم منها سوى شيء واحد أنها الآن بين ضفاف قلبه، وهذا وحده يكفي.

كان جلال الدين يقف خلفها، يحدّق إلى عمّه الذي نهشته السنون كما تنهش الريح جدار الطين، ورأى في عينيه وجع الفقد حين يتجسّد في لحيّة بيضاء وظهريّ منحني.

رفع نصر الراوي يده نحو جلال الدين يدعوه ليقترّب، كانت يده ترتجف، لا ضعفاً بل امتلاءً بالعمر وما حمله من حكايات.

تردد جلال لحظة، كأن في الخطوة إليه عبوراً من زمن إلى آخر، ثم تقدم ببطء وانحنى يقبّل كفه كما كان يفعل صغيراً، ثم احتضنه بقوة جعلت نصر يغمض عينيه... قال بصوت بُح لكثرة البكاء:

- ظننت أنني لن أراكما مجدداً.

ارتجفت خديجة فضمها أبوها وهو يقول لجلال الدين:

- لن ندع الغياب يسرقنا مرة أخرى يا بني.

لم يجبه، كان خافضاً رأسه يحدّق إلى كَفِّيه، عقله بعيد، شارد، كلمات عجوز البركة قد حفرت نفسها في ذاكرته قبل أن يتبخر، فهمس دون إرادة:

- أُمي.

رفع نصر يده يربت كتف ابن أخيه بقوة يشد من أزره قائلاً:

- لقد نال عابد الجزاء الذي استحقه وزيادة.

قبض جلال الدين كفيه وخرجت الكلمات منه بهمس عنيف:

- كنت أريد أن أمزقه بيديّ هاتين.

قال نصر وهو يربط على كتفه بقوة أكبر:

- لا يزال هناك آخر تنتظره... وهناك ستقتص منه أمك كيفما تشاء.

رفعت خديجة وجهها لأول مرة منذ أن خبأته في كتف أبيها، كانت عيناها غارقتين في الدموع، تحدّقان إلى جلال الدين كأنها تراه لأول مرة، لم يتغير به إلا لحيته التي نمت، وشيء ما يسكن عينيه، لا تعرف هل هو الغضب بعد معرفته بأمر الوشم، أم دناءة عابد الذي كان يحتجزها لينتقم من نصر الراوي فيها ويعبر بها طريق أهدافه نحو السلطة المطلقة التي سعى إليها من البداية؟

تشعر به، لقد تعب وتعذب، أما هي فلقد قضت فترة سجنها فاقدة للوعي، فقط تصحو كأنها مُخدرة، تجد نفسها في مكان مظلم، مُقيدة، وهواء ثقيل يغزو رئتيها فتصرخ وتستغيث، ثم تذهب إلى غيبوبة أخرى. حتى أخرجها عابد من الغرفة وهو يجرها ليأخذها معه أسيرة، وبمجرد أن استنشقت الهواء خارجها حتى بدأ وعيها يعود لها تدريجياً، رأت كيف قتلت القابلة عابد، ولم تستوعب ما قالته قمر وهي تطرق برأسها وتطلب منها أن تسامحها.

تشعر بأنها بحاجة إلى سنوات لتفهم، لتستمع إلى سرٍّ طويل للغاية يحوي كل التفاصيل، لتستطيع احتواء ذاك الغاضب الذي...

فجأة توقفت أفكارها، وعقدت حاجبيها، وقالت لجلال بخفوت:

- كيف لم تعرفني؟! كيف خُدت بي بهذه البساطة!

رمش جلال الدين عدة مرات، يشعر بالغباء وهو يحدق إليها، فقالت بريبة:

- هل تذكر التفاصيل؟

نظر جلال الدين إلى نصر كأنه يطلب مساعدة، وهو يغمغم بنصف إدراك:

- لا أذكر...

ابتسم نصر الراوي، كانت ابتسامته الأولى منذ ذهببت الحاجة وسيلة إلى خالقها وتركته وحيداً.

قال على الفور قاطعاً عليها أفكارها:

- لتبقيا معي هنا... لن أسمح لكما بأن تتركاني مجدداً... هل هذا مفهوم؟

وقفت الخالة راوية عند الضفاف، تعبت بغصنٍ في الطين أسفل قدميها، تراقب الماء بعينٍ متوجسة، تنتظر ذلك الذي ابتلعتة البحيرة التي غدت بحرًا شاسعاً!

كان سلطان قد أخبرها أن تغيراتٍ جغرافية هائلة قد وقعت، فانفصلت قارتهم عن سائر القارات، وأحاطت بها البحار من كل جانب، لا جزيرتهم وحدها.

أما المركب لا يزال لا يعلم عنها شيئاً، ولا حتى وجهتها، ومع ذلك لم يهدأ في داخلها سؤال.

من أين سيبدأ المسخ عمله هذه المرة؟

سؤالٌ عبرَ خاطر راوية وهي تحدّق إلى الأفق البعيد، حيث تنكسر زرقة السماء على صفحة الماء.

تقدّم عاصف بخطواتٍ هادئة، يده على كتفها، وصوته خرج دافئاً كنسمةٍ تعرف طريقها إلى صدرها:

- لا تقلقي يا جدة... سيعودان يوماً ما.

التفتت نحوه، وفي عينيها تلك الطمأنينة التي لا تُكتسب إلا بعد ألف وجع، فابتسمت له، ثم مالت برأسها قليلاً إلى الوراء حين رأت زهرة تقف خلفه بخجلٍ عذب، تُطأطئ رأسها كما كانت تفعل في صباها.

لقد تمّ زواجهما أخيراً، وسكنا بيت التلة المطل على الوادي، بصحبة بومتهما التي لا تزال تحوم فوقهما كأنها تحرس وعداً قديماً لم يُنس.

هبّت نسمةٌ خفيفة من ناحية البحر، فرفرفت أطراف عباءة راوية، وأغمضت عينيها للحظة كأنها تصغي إلى همسٍ لا يسمعه سواها.

ثم تمتمت، بصوتٍ كصدى يخرج من أعماق الأرض:

- يجب أن نستعد... فالمركب ستعود، والمسوخ سيكون على متنها، ومعه أتباعه من الإنس والجن، ليُخضعوا القلّة المؤمنة من أهل داو.

فتحت عينيها مجدداً، كان الغروب قد بدأ يرسم خيوطه القرمزية على صفحة الماء وهي تردف بثقة:

- نعم، يقيناً سيعود... ولا بدّ أن نجدنا جاهزين.

عاد عمار إلى بيته في داو، بصحبة وصال، أصرَّ على ترميم بيت أبيه، ووافقت هي، خاصة بعدما أوكلت إليهما راوية مسؤولية حماية الجزيرة، ومعهما عاصف وصالح ورفاقهما الذين أفنوا أعمارهم في الجبل.

قالت وصال وهي تقف خلف عمار والذي كان منهكًا في فتح غرفة التخزين بمسجد الجزيرة، ويناولها نسخ القرآن:

- هل تعتقد أن أهل داو سيتقبلون وجودنا بينهم هكذا بسهولة؟

قال دون أن يستدير نحوها بينما لا يزال جاثيًا على ركبتيه:

- أهل داو يتقبلون الشياطين أنفسهم بسهولة!

ابتسمت لمزاحه وهي تزيل التراب عن نسخ القرآن وهي تسأله:

- لماذا لم تبَقْ وقتًا أطول مع أستاذك.

سمعته يضحك من قلبه لأول مرة وهو يجيبها:

- لقد طردني شر طردة بعد إتمام زواجه بخديجة.

بادلته الضحكات وهي تومئ برأسها معقبة:

- كذلك عاصف طردني بينما أبقى بومته معه.

جلس أرضًا وما زالت ابتسامته عالقة بين شفتيه، أمسك بكفها

ووضعها فوق نسخة القرآن الساكنة بين كفيها وهو يقول بهدوء:

- هذه النسخ مهمتك القادمة يا وصال وستساعدك فيها صفية...

ستعلمين فتيات داو كيف يقرأنها ويفهمن ما فيها...

قالت مفكرة:

- فتيات داو فقط؟

قال على الفور:

- فتيات القبيلة مهمة قمر... فلقد أقسمت أن تعيدهن إلى رشدن
كما أفسدتهن في الأنفاق... لها عليهن سلطة غريبة!
- شردت في ملامحه التي تنسكب مشاعره من خلالها، عدما يعقد
حاجبيه هكذا تعلم بأنه يفكر بعمق حتى وإن انسابت كلماته من بين
شفتيه بسهولة، قالت بخفوت وهي تراقبه من كُتب:
- إنك تفعل مثل الخالة راوية... قلقها على يحيى لم يجعلها تتوقف
عن الإصلاحات التي تقوم بها في الجزيرة.
- زَمَّ بين شفتيه وهو ينهض، ثم ينحني ليجر السجاد خارج غرفة
التخزين، وعندما وقف ينظر إلى المسجد والغبار العالق بأركانها، بينما
صالح وياسين ينظفان كل ركن فيه، قال بخفوت وقد أرسل تنهيدة
محملة بالقلق الذي يعتمل بقلبه:
- عندما اقترحت الخالة راوية أمر الخطبة قبل سنوات تكلمت عن
النضال، وأنه يجب أن يستمر رغم كل فقد وكل حزن... حتى
الزواج والإنجاب نوع من النضال.



أما مالك فقد تبرّع بحديقته كلها، فبعد أن تهدّمت الأسوار جعلها
ملكاً للجميع، يوزّع البذور مجاناً، ويحثهم على زراعة التفاح كيفما
شاؤوا، وأسند إدارة ذلك إلى سلام.

كانت سجينة القصر الكبير، تخشى أشباحه، وتظنُّ أن مالك أحدها،
ولم تخطئ كثيراً، فقد كان هو الشبح الوحيد الذي يختبئ من البشر،
يخشاهم كما يُخشى الجحيم، حتى جاءت هي.

لماذا تقف الآن في نفس الشرفة بنظرات مختلفة، وهي تراقب العمل في الحديقة، قلبها يرتجف بداخلها فرحًا، في انتظار زيارة سلطان، أخيها.

همس مالك مازحًا، والذي كان يقف جوارها يرقب ما ترقبه هي:

- لماذا لم تأكلي من طبق التفاح؟

ابتسمت وهي تلتفت نحوه بينما طبق التفاح ساكنًا على حافة النافذة:

- أفكر في زراعة نوع جديد من الفاكهة...

ضحكت عندما أنهت كلامها وقد كانت تنتظر أن يعقد حاجبيه مشمئزًا من الفكرة، لكنه قال شاردًا:

- أنا أيضًا أريد أن أتعرف على فاكهة أخرى... أريد أن أخرج إلى العالم يا سلام.

استدارت نحوه، لا يزال الطفل الحبيس داخله يحاول الخروج، إنه نقي للغاية، قفز عشر سنوات بجسده فقط لكن روحه داخله تشعر بالغبرة، تتلفت كطفل تائه تحاول الوصول إلى المرفأ، وهي ستكون مرفأه، لقد علمها سلطان كيف تخرج من ذاتها وتنظر حولها بتمعن، تخرج من خوفها وتعيد ترتيب ماضيها.

همس ممتنًا:

- شكرًا لأنك يومًا ما جعلتني أرى النور... وأعرف نفسي... أعرف أنني لست شبحًا كما كنت أظن... أعرف أنني مالك.

كان جلال الدين يقف على ضفة القبيلة، يرقب المياه وهي تتلوى في هدوء غريب، غارقًا في شروء صار سِمته هذه الأيام، يخرج مع كل

غروب، ليقف هنا عند الضفاف التي كانت يومًا رملاً سوداء حين كان حبيس السحر في قصر الحكمة، يتأملها طويلاً كأنها مرآة تُريه وجهًا آخر له، وجهًا لم يعرفه حين كان مأسورًا خلف المرايا والظلال.

ترى ماذا رأى يحيى ليندفع هكذا نحو المركب؟

ولماذا تبعه أنس دون تردد؟

ولم يرفض سلطان حتى الآن أن يخبره بما جرى، وبم جعله يتحول من النقيض إلى النقيض؟

أيُّ غفرانٍ عاشه سلطان جعل منه هذا الرجل الواصل الهادئ، بينما ما زال هو يتعثّر في ظله كلما حاول أن يصلي أو يقرأ الأوراد؟

ما زال يشعر بثقلٍ في لسانه، لكن نصر لا ييأس، يرقيه كل ليلة بعد صلاة العشاء، وصوته المتهدج بالآيات يُنزل عليه سكينَةً يعرفها ولا يعرفها، كأنما تعود إليه نفسه قطعةً قطعة.

لم يصدق أنه سيسمع الأذان مجددًا في القبيلة، الصوت يتردد صداه في الوديان كأن الملائكة تردده من خلف الجبال، يدخل وجدانه، ينساب في عروقه فيحييها، ويهمس له برغم كل تلك الشياطين... كان الله أكبر. كأن القبيلة كلها عادت تتنفس.

لا يصدق أنه يقف اليوم في صفٍّ واحدٍ إلى جوار عمه نصر والشيخ سليمان، هو الذي كان منبوز السيرة بينهم، محرومًا من بيته ومن زوجته ومن اسمه حتى.

سمع صوتًا خلفه يقول بنغمةٍ مازحةٍ تخفي شيئًا من الغيرة:

- سأظن أنك تأتي إلى هنا لتتذكرها.

ابتسم قبل أن يلتفت، تلقف كفيها بين يديه، عيناها تلمعان بحبٍ طاهرٍ يذكره بما نسي، وبسؤالٍ لا ينطفئ عن تلك الأيام التي عاشها مع أخرى، والتي لا يذكرها.

هي لا تريد أن تصدق أنه نسي فعلاً، وهو لا يريد أن يجرب تذكر ما محاه الله عنه، نظر إلى ابتسامتها الرائقة، إلى وجهها الوضاء، ورأى فيها صورة العروس التي كانت قبل كل شيء.

تذكر يوم زفافها، يوم سلّمه نصر إياها بزهوٍ وفخر، وهي ترفل في ثوبٍ أبيض كأنها وردةٌ خرجت للتوّ من قلب النور.

همس، وصوته مبجوح كأنما يخشى أن يفسد الهدوء المحيط بهما:
- أشعر كأنني أراك لأول مرة يا حُب.

ضحكت بخفوتٍ، وقالت وهي تمسك بكفه:

- لا تبدأ... تعلم أنني لا أستطيع مجاراتك.

بادلها الضحك وهو يحيطها بساعده وهو يقول بجدية مصطنعة:

- للمرة الثانية أخبرك بأنه يكفي أن تحتويني بحلة محشي!

ضحكت وهي تميل لتستند برأسها إلى ساعده، بينما كان النسيم يهبُّ من جهة الجبل، يحمل معه رائحة الطين بعد المطر، وشيئاً من بخور المساء العالق في أركان القبيلة.

رفع جلال الدين بصره إلى الأفق، إلى شمسٍ تميل إلى الغروب، نصفها في الماء ونصفها في السماء، كما لو أن النور يسعى للوضوء قبل الرحيل.

ترددت بداخله همسه خافتة:

ربما الغفران لا يُعطى دفعةً واحدة...

ربما يُسقى كما تُسقى الأرض العطشى، قطرةً بعد قطرة، حتى تخضر من جديد.

أغمض عينيه، واستنشق هواء النهر كأنه يتنفس للمرة الأولى منذ سنين.

وبين خفقات قلبه، سمع الأذان يتردد مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يأت من مئذنة بعيدة، بل من داخله هو.



لم يحد سلطان بعينه عن صفحة الماء منذ أن ارتقى الجبل، ينظر بعيداً حيث يختلط الأفق بالموج.

يعلم ما تفعله راوية، لكنه لا يجده كافياً، فلقد رحّب سكان داو بعودتها إلى القصر، وهذا أكثر ما أخافه، هؤلاء أنفسهم رحّبوا من قبل بطقوس الحصاد، ثم بتقديم القرابين لتمثال جلال الدين، ثم بالنبوءة، والآن... براوية!

سيفعلون الشيء نفسه كل مرة، لأنّ الخوف ما زال يسكنهم، ولأنهم لم يتعلّموا بعد «كيف يعبدون الله بلا وسيط».

أغمض عينيه، والرياح تمرّ بين الصخور، وضوء غريب يشقّ الغيم، وصوتٌ من بعيد يقترب، فتح عينيه ورفع رأسه فرأى العقاب؛ جناحان كالسحب، يطوي بهما المسافات كأنّ الجبل لا شيء، وريشه يلمع كرمادٍ ينهض من نارٍ لم تنطفئ بعد.

دار العقاب حوله دورة واحدة، ثم أطلق صرخةً اخترقت الأفق، ارتفع فجأة، ومع كل رفّة جناح، ينشقّ الغيم أكثر، وظهر خطٌّ نورٍ ممتدّ نحو البحر، تبع سلطان ببصره المسار حتى تلاشى، أطرق برأسه نحو الأرض عندما لاحظ شيئاً صغيراً يلمع بين الحصى.

انحنى والتقطه بين أصابعه، كانت ريشة داكنة الطرف، رمادية في منتصفها، تتوهج بخفوتٍ كأنها بقايا غروب.

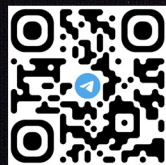
شدّ قبضته عليها، وهمس بصوتٍ مرتجفٍ باليقين:

- ليس لدينا عشر سنوات أخرى... بين ليلة وضحاها سيتغير كل شيء... حتى المكان الذي ابتلعك.

تمت بفضل الله



telegram @yasmeeenbook



ظل النحيم

لا يبدو الأمر اختياريًا.

لقد خشي عليها من مجرد الصوت،

فكيف بصاحبه القابع في الظلام؟

أما هي، فقد جمعت ذراعيها حولها، تحتضن ارتجاف قلبها،
وتودعه بعينيها.

قديمًا لم تكن تخشى عليه من السحر.

أما الآن فقد حدث شيء ما.

لقد أكل من الشجرة،

ويبدو أن الثمرة الأولى

قد انتزعت منه خياراته،

وفرضت عليه خوض كل هذا الخوف.



أعمال
أخرى
للكاتبة

إلى القارئ

غلاف: محمود هشام



aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com